
يوسف السباعي
من العالم المجهول
خبايا الصدور
مكتبة مصر

من العالم المجهول

خبايا الصدور

يوسف السباعى

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

الاهـــداء .....

الى اهل العالم المجهول ....
الى العفاريت والجن والاشباح والأرواح ....

اهدى كتابى هذا ، بلا سابق لقاء ولا قديم معرفة ، عله يكون فاتحة صداقة بيني وبينهم ... ليتذكروننى كما اتذكرهم ، ويؤكدون لى وجودهم ... فيرسلون الى – على سبيل الهدية – ماردا من عفاريتهم فى « قمقم » أو فى « خاتم » يتصاعد شبحه مع الدخان الى عنان السماء ويهز صوته أرجاء الأرض ويصيح بى « شبيك لبيك ... عبدك بين يديك » ....

فاذا استعصت عليهم الهدية .. أو استكثروها على .. فلا اقل من أن يرسلوا الى « جنية » من جنياتهم حلوة الذات لطيفة المعشر ، تؤنس – اذا ما أرقت – وحشتى ، وتقصر ليلى ، وتهبنى متعة مأمونة مضمونة لا متاعب ورائها ولا عواطف ، ولا زوابع .

هذا هو مطلبى المتواضع ... فاذا ابيتموه على ، فاما أنكم بخلاء ناكرون للجميل .. أو أنكم – كما قلت دائما – لا وجود لكم الا فى أوهام المخابيل ... وان عالمكم المجهول ... عالم غير كائن .

يوسف السباعى

مقــــدمة

أنا لا أومن بالأشباح والجن والعفاريت ... وما كنت قط خبيرا بعلم الأرواح ، وما حاولت أن أبحث فيها قليلا ولا كثيرا .. وما صادفت من الحياة الا ناحيتها الظاهرة الملموسة التى تستنفد كلْ وقتى فتشغلنى عن التفكير فيما عداها مما خفى واستتر .

اليس من السخرية بعد كل هذا أن أضع عن العالم المجهول كتابا .. وأنا أجهل الناس به وأضعفهم ايمانا بما فيه .

انى أتوق لمخاطبة روح ... أو مصادفة جن ... أو مطاردة شبح ... حتى يتبدد من نفسى ذلك الشك الذى يحيط بكل ما وراء المادة من عالم مجهول ... وحتى استجلى ، ولو مرة واحدة ، تلك الأشياء الخفية المبهمة المجهولة الغامضة .

كل ما أعرفه عن العالم المجهول لا يعدو السماع ، فأنا أسمع عن أرواح تهيم ، وأشباح تطوف ، وعفاريت تحوم وجنيات تعشق ... وكلها ظهرت لأناس آخرين ... أما أنا فلا ... حتى لكأن بينى وبينهم تنافر مستحكم ، وبغضاء مقيمة ، فهى تأبى لقائى والظهور لى .

اثنان وثلاثون عاما .. لم أصادف فيها شيئا عجيبا .. غير ملموس ولا محسوس .. ولا هبط على وحى انبأنى بنبوءة ، أو أطلعنى على سر .. ولا حلمت حلما يعنى شيئا أكثر من ترديد لما أحسه فى الحياة ، وأتشوق اليه . والمرة الوحيدة التى حاولت أن أجد لأحلامى معنى .. وأتخذها قاعدة استنتج منها ما يوشك أن يحدث .. خذلتنى خذلانا شديدا .. فقد حلمت ذات مرة قبيل الامتحان أنى رسبت ، فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى ناجحا ... وفى السنة التالية تكرر الأمر.. فادركت أن احلام السقوط عندى لا بد أن يعقبها نجاح .. وفى العام الثالث حلمت أنى رسبت ، فرحت أغدو فرحا مغتبطا .. وكدت

أسقى شريات النجاح .. فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى راسبا - بلا ملحق - ... ألم أقل لكم بينى وبين أهل العالم المجهول صلة مقطوعة ؟

انى لأسائل نفسى فى بعض الأحيان .. احقا ستحشد الأرواح من عهد آدم حتى القيامة ؟ . وهل يحتمل العالم الآخر كل هذه الأرواح من بشر ، وكلاب ، وقطط ... ونحل ونمل .. وأسود وجراثيم ؟ اليس كلها كائنات حية ذات أرواح لا تفنى !

واذا كانت الأرواح تتبادل الأجساد . فكيف ينوى أن يقتسمها أصحابها .. ومن منهم أحق بها فى العالم المجهول ؟

ولم لا تكون نهاية الانسان بسيطة .. كنهاية كل شىء ؟ .. الفناء والعدم .

وتتواتر على الأسئلة الشيطانية وأنا صامت حائر لا أعرف لها جوابا ..

ومع كل هذا التخبط فى التفكير والجهل بالحقيقة ، يتملكنى احساس بأن هناك أشياء خفية .. اشياء لا شك فى وجودها .. ولكن أذهاننا البشرية أعجز من أن تدرك كنهها ، وأعيى من أن تحيط بحقيقة كيانها .

ضلة للانسان .. ما جفل فى الحياة بشىء جهله بنفسه .. فهو ما زال يتخبط فى ادراك كنهه .. لا يكاد يعلم عن نفسه الا أنه شعاع يخبو ، وبارقة تضمحل .. يشرف على عالم الفناء المجهول .. فلا يكاد يعرف من أسراره والغازه ، الا كما يعرف ذلك الجالس على شاطىء المحيط يدلى فيه بأطراف أصابعه .

ليجبنى محطم الذرة . من أين أتى ؟ .. والى أين يذهب ؟ .

فلا أظنه بمجيب بأكثر من قول الخيام :

كم بذرنا حكمة الفكر البصير
وسقيناها جيا العقل الغزيـر
ما جنينا غير بهتان وزور
ما علمنا غير أنا فى المـلا
شعل البرق خبت بعد التماع

يوسف السباعى

● ● ●

حديث على القبر

وظللت اتعثر وراءه واخوض فى أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريه كأنه همس الجن أو حديث الشياطين . والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذى يسلطه الرجل من بطاريته .

جلست وصديقى الطبيب النفسانى ذات ليلة نقطع الوقت بالحديث والتدخين .. ونفث الرجل من فمه حفنة من الدخان تصاعدت الى الجو فى حلقات متلاشية .. وأخذ يتمم حديثه قائلا :

« وهكذا ترى ياسيدى أنه ليس هناك أشد تعقيدا من النفس البشرية ، فلقد علمتنى دراستى وتجاربى اننا مهما وصلنا فى علمنا وبحوثنا ، فلن نعلم عنها الا القليل . فهى غالبا ما تستتر وراء حجب زائفة لاتكشف عن حقيقتها .. فلا يكاد الانسان يبصر من سواه الا قشورا تحجب اللباب ، أو زبدا يستر أغوار النفس العميقة .

أجل ياسيدى .. ماجهل الآدمى كالآدمى .. فنحن لا نكاد نعلم عن بعضنا شيئا الا ما نراه من الظاهر الخداع .. أما الباطن المعقد المظلم الملتوى .. فما أشد جهلنا به .. حتى لأقرب الناس الينا .. ولو استطعنا

الوصول الى اختراع نبصر به دخائل النفوس ونطلع به على خبايا الافئدة ، لراعنا الفرق بين ما تضمر وما تظهر .. وهالنا التناقض بين ما تتكشف عنه الأعماق وما تبديه لنا المظاهر» .

وصمت صاحبى برهة .. جذب خلالها نفسا طويلا من سيجارته . وأخذ يتأمل فى الدخان المتصاعد كأنه يبصر فيه مناظر متجسدة .

وفكرت فيما قال ، فلم أجد به شيئا غريبا .. وخاصة بالنسبة لطبيب مثله اطلع على كثير من دخائل النفوس المريضة .. وتكشف له الكثير من أسرارها وخفاياها .. وقلت له معلقا على قوله :

– هذا كلام صحيح بالنسبة لمرضاك .. ولكنى أرى فيه شيئا من المبالغة والتعميم .. فالانسان لايعدم بعض الخلصاء ممن تشدهم الحياة اليه برباط من الثقة والصدق .. وتضمه واياهم أواصر المودة والاخلاص ، فتتكشف نفس كل منهم للآخر ،وتتفتح صدورهم عن كل ما تبطن .. فتصبح النفوس ، وقتذاك ، صحفا سهلة مقروءة بلا تعقيد ولا تمويه .

وضحك الرجل ضحكة ساخرة وهز رأسه قائلا :

– لا .. لا .. ياسيدى .. ان النفوس لاتتكشف أبدا . أنها قد تظهر بعض ما بها .. ولكن لاتظهر كل ما بها .. لابد لها من شيء يبقى فى الأعماق ، ويرسب فى القرار .. لا يبصره أحد .. لا صديق .. ولاغير صديق .

وصمت برهة وعاد يحملق ثانية فى الدخان المتصاعد ، وشرد به ذهنه كأنما يستجمع ذكريات غابرة ثم عاد يقول :

– أجل .. ما أشد جهلنا حتى بأقرب الناس الينا .. سأقص عليك قصة صديق .. قصة صديق لا مريض .. فقد كان كل ما بيننا صداقة خالصة .. وما فكرت فى يومٍ ما أن بنفسه مرضا حتى أتولى علاجه .. بل كنت أجده خير الناس .. وأسلمهم عقلا ونفسا وجسدا .

عرفته معرفة جيدة .. فقد كان يقطن بجوارنا فى نهاية مصر الجديدة .. ورغم الفارق الظاهر بيننا فى العمر ، فقد توثقت عرى الصداقة بسرعة .

كان طبيبا متقاعدا قد بلغ الستين من العمر ، وكان يقضى جل وقته : اما فى حديقة الدار الضيقة جالسا على مقعد خيزرانى يتمتع بشمس الشتاء .. أو جالسا وراء النافذة البحرية يتمتع بنسمات الصيف .

وكان يعيش فى الدار وحيدا .. لايؤنس وحشته سوى خادم عجوز تهيىء له الطعام وترعى امره وأمر الدار .

ولقد أحببت الرجل من أول لقاء .. فلقد كان من ذلك النوع من الناس الذى يبدو لنا كالبلور الشفاف .. لاتشوب نفسه شائبة ولا يعتم بريقها ضباب من مكر أو سوء ، أو بغض أو رياء .

كان رجلا ، لطيف المعشر ، حلو الحديث طيب القلب ، نقي السريرة .. حسن الظن بالناس الى حد قد يسميه البعض بلها .. وان كنت أنا لأأرى فيه الا سموا فى الخلق وعلوا فى التفكير .

وتبادلنا الزيارات .. يوما بعد يوم .. وتعودنا أن نقضى سهراتنا سويا اما فى دارى أو فى داره .. نقطع الوقت بلعبة الشطرنج ، أو تبادل الأحاديث والأقاصيص .. أو فى سماع مايستحق السماع من الاذاعة . ولم نكن نكلف أنفسنا مشقة الرسميات .. اذ كان تجاور الدور يهيىء لنا أن نتزاور بملابس البيت وقد وضع كل منا «روبا» على كتفيه .. وجلس فى منزل صاحبه كأنه فى منزله .

وأثبتت لى الأيام حسن ظنى بالرجل .. بل لقد وجدته خيرا مما ظننت ، فقد كان مفرطا فى الطيبة ، مفرطا فى حب الخير .. الى الحد الذى يجعل طيبته نوعا من أنواع الشذوذ . ويجعل ميله للخير مصدرا لمتاعبه .. فهو أبدا قلق .. لايفتأ يوخزه ضميره .. لتوهمه أنه كان يستطيع أن يفعل خيرا مما فعل .. فهو من ذلك النوع الذى نستطيع أن نسميه «عبد ضميره» .. وهو نوع متعب ، مجهد ، شديد القلق .

لاشك أن فعل الخير هو واجب كل انسان فى هذه الحياة ولكنى اعتقد ان الافراط والمبالغة فى أى شيء .. حتى فى فعل الخير .. يعتبر فى المرء نقيصة .. فهو يجعل من الانسان «عبدا» لذلك الشيء الذى نسميه الضمير ..

والذى يملأ نفوسنا بمركب الندم .. فيجعلنا نندم على كل شىء فعلناه .. ونتحسر لأننا لم نفعل خيرا مما فعلنا .

أجل ياسيدى .. يكفى أن نعطى لمحتاج حسنة .. أما ان نندم فى كل مرة لأننا لم نعطه أكثر مما أعطينا فتلك مسألة لاتطاق .. ان الضمير شديد الطمع فى الانسان .. فيجب الا نعطيه الفرصة .. لكى يستعبدنا ويتحكم فينا ، ويكبلنا بأغلاله ، ويفسد علينا حياتنا .. ان الحياة أقصر من أن نقضيها ونحن نجر وراءنا سلاسل الضمير .

فمثلا .. كان ضمن ما يثقل على الرجل ويسبب له قلقا دائما - بلا ادنى سبب - أرملة صديق له تقطن فى نفس الشارع .. ولست أنكر أن من واجب الصديق أن يرعى زوجة صديق راحل ويقضى حاجتها ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ولست أنكر أيضا أن الأرملة العجوز .. أو - الست شفيقة - كانت تستحق كل رعاية وكل عناية . ولكنى رغم كل ذلك لم اكن أجد مبررا لأن يثقل الرجل على نفسه بمثل ما أثقل عليها به .. وأن يحس دائما انه مقصر من أجلها ، ومن أجل صاحبه الراحل .. وانه لايكاد يشعر براحة الضمير من فرط توهمه .. أنه لم يفعل من أجلها ما كان يجب أن يفعل .

ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل .. خيرا مما فعل ؟ .. لقد كان جم العطف عليها ، والبر بها .. دائم السؤال عليها .. يرعاها كما يرعى الابن أمه ، والأب ابنته .. ولست أشك فى أنها لو كانت اختا له لما فعل أكثر مما فعل .

ولقد حاولت جهدى أن أسرى عنه ، وأفهمته أن للخير حدودا وأنه قد فعل أكثر من واجبه .. وأن أحدا من أصدقاء صاحبه لم يفعل نصف ما فعل .. ولكنه مع ذلك استمر على قلقه .. لقد كان «عبد ضميره» .. وكان لابد له أن يحس بالندم على شىء ، فلو لم يكن من أجل - الست شفيقة - لكان لأى سبب سواها .

وفى ذات يوم سألنى رأيى فى أنه يود أن يهب نصف دخله - للست شفيقة - حتى يعينها على العيش لأنه يحس أنها فى ضيق .. وأن معاشها

لايكاد يكفيها .. ولقد اصابنى من قول الرجل دهش وسألته عما اذا كان جادا فى قوله . فأجابنى أنه جاد كل الجد .

وأحسست للرجل بتقدير بالغ واكبار شديد ، ولكنى رغم ذلك لم أستطع موافقته ، فلقد كان هو نفسه فى حاجة الى كل مليم من دخله .. وكنت أعرف ان المرأة لاتشكو من شىء ، وأنها - كما قالت عندما صادفتهافى زيارة له - تنعم بالستر ، وانها تشكر الله على فضله .. ولم يكن يبدو عليها مظهر ضيق أو عسر ولكن الرجل أصر على رأيه . ولم يستمع الى قولى .. فقد رأى ان هذا واجب عليه لابد من أدائه ، وانه مقصر لأنه لم يفعله قبل ذلك .

ورفضت «الست شفيقة» طبعا ما عرضه الرجل ، وانبأته شاكرة أنها ليست فى حاجة الى شىء ، فمعاشها يكفى كل حاجتها وأنها لاتطمع فى خير أكثر مما هى فيه .

وفى ذات ليلة ، لاأظن ذكراها ستمحى من ذاكرتى قط ، كنت أجلس والرجل فى دارى ، وقد استلقى كل منا على اريكة وأخذنا نستمع الى حفلة غنائية تذاع لأم كلثوم . وكانت ليلة من ليالى الشتاء الشديد القر ، التى تعصف ريحها فيسمع لعصفها صفير وفحيح .. وقد جلس الرجل امامى مدثرا جسده النحيل برداء من - صوف الجمل - وتلفح «بكوفيه» أحاطت رأسه وعنقه ونصف وجهه ، ووضع على عينيه منظاره السميك ، وتهدل شاربه الأشيب مغطيا شفتيه ، وبدت شعرات بيضاء متناثرة حول ذقنه ، وبرزت عظام وجنتيه ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، وأخذ يهز رأسه ببطء ، ويضرب الأرض بقدمه متمشيا مع الأنغام .

ورويدا رويدا .. رأيت ضربات قدمه تخف ، وهزات رأسه تبطؤ ، وأغماضه عينيه تزيد .. حتى سقط رأسه على صدره ، وعلا شخيره ، وتملكه سلطان النوم . ولقد تعودت من الرجل تلك الطريقة فى النوم .. وتركته فى غفوته حتى انتهت الوصلة الغنائية .. فاستيقظ من تلقاء نفسه .. فلقد كان الانتقال من الضجيج الى الصمت يوقظه ، وهتفت به ضاحكا :

- صح النوم .. يا أحمد بيه .

– أي نوم ؟ .. لقد كنت فى تمام اليقظة .

وكان هذا هو رده الدائم .. فما كان يعترف قط بأنه نائم ، ونهض من مجلسه ورافقته حتى الباب وودعنى عائدا الى داره .

ومضت ربع ساعة كنت خلالها قد تمددت فى الفراش ، وبدات عيناى تغفو .. ونهضت فزعا عندما سمعت طرقا على الباب .. وأسرعت اليه ففتحته ، واذا بالرجل قد عاد مرة أخرى .. وخشيت أن يكون قد اصابه شيء ، فهتفت به فى قلق :

– أدخل .. ما بك ؟

ودلف الرجل الى الداخل ، وأقفلت الباب فى عجلة ، فقد كانت تنفذ منه ريح باردة تلسع العظام .. وتأملته على ضوء مصباح الصالة ، فوجدته قد ارتدى ثيابه الكاملة .. بدلته وطربوشه ، وحذاءه ، ومعطفه الأسود الثقيل ، ولف وجهه جيدا بالكوفية .

وصمت الرجل برهة ، ثم قال فى صوت ملؤه القلق والتردد :

– لقد .. لقد نسيت شيئا . شيئا هاما .

وبدت على ملامحه تلك العلامات التى تنبيء بأن ضميره الطامع فى خيره قد عاد يثقل عليه كعادته ، وأحسست بالشفقة عليه .. ان الرجل خير منا مائة مرة .. ومع ذلك فان ضميره غير قانع .. انه يريد أن يكون خيرا مما هو .. ترى ماذا به هذه المرة ؟

وقلت أسأله فى رفق :

– ماذا نسيت يا أحمد بك ؟

– نسيت أمرا هاما .. كان يجب أن انتهى منه . ولكنى اعتقد ان الفرصة لم تذهب .. ما زال هناك بعض الوقت .

وصمت برهة ثم عاد يتمتم مترددا :

– هل .. هل استطيع أن استعير عربتك .. فلاشك أنها ستسهل لى المهمة .

وسألته فى دهشة :

– تريد ان تخرج بالعربةالآن .. فى هذه الساعة المتأخرة وفى هذا الجو المكفهر ؟

وكان المطر قد بدا يتساقط .. ووصل الى آذاننا صوت قطرات الماء تقرع زجاج الباب .. ووجدت أن من الجنون أن أوافق الرجل على ما يطلب ، فأعطيه العربة ليقودها وحده فى تلك الساعة من الليل وفى زلق الطريق .. وأنا غير واثق من قدرته على القيادة .. انى لاشك أكون ملقيا به الى التهلكة . وبدا لى الرجل فى حالة اضطراب شديد .. فقلت له مهدئا ، وأنا أقوده الى الداخل :

– تعال نجلس برهة .. اشرح لى المسألة .

– المسألة لاتحتاج الى شرح .. انى أريد عربتك لقضاء حاجة .

– ولكن من الجنون أن أدعك تقود العربة الآن وانت فى مثل هذه الحالة من الاضطراب .

وأطرق الرجل فى حزن ، ثم قال بصوت خفيض :

– حسنا .. أستطيع أن أجد وسيلة أخرى .. أو اذهب حتى سيرا على الأقدام .

– ولكن فى هذه الساعة ؟ .. كلا .. ان هذا جنون .. لم لاتنتظر حتى الصباح ؟

ولكن الرجل لم يجب .. وظهرت على وجهه علامات الاصرار .. ومد يده الى مودعا .. وهم بأن يتجه نحو الباب ولكنى لم أترك يده .. فقد وجدت ان من الحمق أن اتركه وحده .. وعدت أقول له :

– اذا كان لابد لك من العربة .. فسآتى انا معك لقيادتها .. اما ان أعطيها لك لتقودها وحدك ، فهذا ما لن أفعله قط .. ما رأيك ؟

وصمت الرجل برهة ثم أطرق برأسه قائلا :

– حسنا .. هيا بنا .

وأسرعت بارتداء ملابسى وقد تملكنى خليط من السخط والدهش .. السخط على الرجل الذى حرمنى من النوم .. واضطرنى الى الخروج فى مثل ذلك القر والمطر .. والدهش مما يريد ان يفعله فى مثل هذه الساعة .. ولا يحتمل التأجيل حتى الصباح .

وبعد لحظات كانت العربة تنساب بنا فوق الأرض اللامعة التى صقلها المطر .

وأخذت قطرات المطر تضرب زجاج العربة ، وبدا لى الطريق ، وقد امتدت على جوانبه المصابيح الخابية الضوء ، الناعسة الطرف من خلال الفتحة المثلثة التى رسمها أمامى الماسح الذى أخذ يروح ويجىء ماسحا الزجاج مما علق به من شوائب المياه ، وسرنا بالعربة مخترقين شارع الخليفة المأمون ثم شارع العباسية كما طلب منى الرجل ، حتى وصلنا الى تقاطع شارع سعيد بشارع العباسية .. ثم طلب منى أن اتجه الى اليسار .. ولكنى سألته فى دهشة :

– إلى اليسار ؟

– أجل ..

ولم يكن الطريق الى اليسار ليؤدى الا الى قلم المرور ، أو «مقلب الزبالة» ، أو «قرافة الغفير» .. ولم أستطع أن أفهم ماذا يمكن أن يكون غرض الرجل من الذهاب الى أى من تلك الأماكن فى هذه الساعة من الليل .

واتجهت الى اليسار كما طلب ، وأنا أحاول عبثا أن أستنتج ماذا ينوى الرجل فعله ، وأخذ الرجل يوجهنى يمنة ويسرة .. وأنا أحملق فى الطريق حتى وجدت العربة فى طريقها بين المقابر .

أنا لست بالرجل الجبان .. ولا بالرجل الذى يتوهم وجود الأشباح والعفاريت .. ولا حتى بالذى يحس للموت برهبة أو خشية .. بل أنى اعتبره نهاية حتمية لكل كائن .. وعلى هذا فليس للمقابر فى نفسى أى أثر وهمى .. لأنى لا أعتبرها أكثر من صناديق للقمامات .. القمامات البشرية . أو المخلفات

الانسانية أو الرمم والعظام المختلطة بأديم الأرض .. هى «ومقلب الزبالة» سواء .

ولكننى رغم ذلك لم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى بدنى وأنا أجد نفسى بين المقابر ، وقد احاطتنى ظلمة حالكة الا من شعاع مصباح العربة الذى يخترق طريقه فى الظلمة حتى يقع فى النهاية على قائم أحد القبور .

وطلب منى الرجل أن أقف ، ثم رأيته يفتح باب العربة وينزل الى الطريق .

ثم يطلب منى أن انتظره ريثما يعود ..

وخشيت عليه أن يصيبه اذى ، فقفزت من العربة وسألته إلى اين .. وماذا ينوى أن يفعل ، فقال لى أنه سيغيب عنى عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر .. ولكنى لم أتركه بل أخذت أتبعه ، ورأيته قد أخرج من جيبه بطارية صغيرة يتبين طريقه على ضوئها . وظللت اتعثر وراءه واخوض فى أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريه كأنه همس الجن أو حديث الشياطين .. والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذى يسلطه الرجل من بطاريته على رؤوس المقابر .

وأخيرا توقف أمام باب خشبى ، ودفعه بيده ، فأحدثت مفاصله الصدئة صليلا مخيفا بعث القشعريرة فى بدنى ، ودلف الرجل الى الداخل ، فحاولت أن اتبعه ، ولكنه توقف فى طريقى وسألنى مستعطفا :

– أرجوك ان تنتظرنى هنا .. دعنى أدخل وحدى .

ولست أدرى ماذا كان يدفعنى وقتذاك الى أن أصر على اتباع الرجل حتى النهاية .. أهو خوفى عليه أم حب الاستطلاع الذى كان قد بلغ عندى وقتذاك أشده .. أم هو خليط من هذا وذاك .

وأجبت الرجل باصرار وعناد :

– لن ادعك وحدك أبدا .

وصمت الرجل برهة ، ثم أطرق برأسه وقال بصوت خفيض :

– اذا فلا تضحك على .. أرجوك .. سأدخلك بشرط الا تسخر منى .. قد يكون فيما سأفعله شيء يبعث على الضحك والسخرية ولكن اؤكد لك أن هذا واجب أؤديه .

وافسح لى الطريق ، وأخذ كلانا يسير الى الداخل حتى وصلنا الى قبر قد تسلقته احدى نباتات انصبار .. ورأيت الرجل قد توقف ورفع كفيه الى السماء واخذ يتمتم قارئا «الفاتحة» ، فقلدته فيما فعل . وما انتهيت حتى بدا يوجه الى الحديث فى صوت هامس :

– ان بينى وبين صاحب القبر موعدا للقاء ، فى مثل هذا اليوم من كل عام ، وهو يوم وفاته .. وكل ما أرجوه هو الا يكون قد قلق من طول الانتظار وظن أننى قد نسيت الموعد فانصرف .. انه صديقى «ابراهيم» افندى زوج «الست شفيقة» .. لقد كنا خير اصدقاء .. ولقد اتفقنا قبل أن يموت على أنه اذا مات احدنا قبل الآخر فعلى الباقى على قيد الحياة ان يزوره مرة فى كل عام لكى يحمل اليه أخبار الدنيا وما حدث فيها خلال العام ولقد وفيت بوعدى كل السنين السابقة .. ولكنى كدت أنسى الموعد اليوم .. حمدا لله .. انى قد تذكرت .. ماذا كان يقول الرجل عنى لو لم أحضر ؟

وعصفت الريح فدفعت الباب دفعة قوية وتملكنى من صوت اندفاع الباب خوف مفاجيء .. ورفع الرجل سبابته الى شفتيه طالبا منى الصمت ، ثم سمعته يقول بصوت مرتفع : «السلام عليكم» .

ولم يجبه أحد ولكن الريح أخذت تعبث بالباب المفتوح فأحدثت به عدة طرقات بدت كأنها رد للتحية ، وأخذ الرجل يتمم حديثه والريح تقرع الباب بين آونة وأخرى .. قرعات عادية جدا .. كما تفعل الريح دائما بكل باب أو نافذة مفتوحة . ومع ذلك فقد بدت القرعات وقتذاك كأنها اجابات لحديث الرجل .. وكانت تبعث فى جسدى قشعريرة خوف .

وأخذ الرجل يخاطب صديقه صاحب القبر قائلا :

– ان معى اليوم صديقا عزيزا .. الدكتور محمود .. رجل لطيف ذو مروءة .

وقرع الباب كأنما يحمل اجابة الروح – تشرفنا – أو – أهلا وسهلا – وعاد صاحبى يتابع حديثه قائلا :

– سأبدأ فى قراءة الأخبار .. لقد دونتها كعادتى حتى لا أنسى منها شيئا ..

ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ونشرها أمام عينيه ، ثم خلع منظاره ومسحه بطرف منديله ، وبدا يقرأ ممسكا الورق باحدى يديه ، مسلطا ضوء البطارية على الكلمات باليد الأخرى .. قال الرجل :

– الأخبار الداخلية .. لا جديد يذكر .. البلد ما زالت كما هى .. الحكومة فى واد والشعب فى واد .. الحكومة فى وادى العز والسلطان والجاه والأبهة .. والشعب فى وادى الفقر والبؤس والمرض والجهل .. الوزارة هى .. هى .. يقول المعارضون أنها تموت غدا .. وتقول هى انها تعيش أبدا .. ذهبنا الى مجلس الأمن .. وشكينا وبكينا .. وتوسلنا الى الذئاب ان ينقذونا من أخيهم الأسد .. وقلنا لهم انه شبع فينا عضا .. ونهشا ، وأنه يوشك أن يلتهم نصفنا الأسفل وينهش نصف أحشائنا .. وغضبت الذئاب .. لا على الأسد بل علينا .. لاننا ناكرون للجميل .. حانثون بالعهد .. وقالوا لنا خير لكم أن تتفاهموا مع أخينا الأسد مباشرة .. تفاهموا معه وأحشاؤكم بين أسنانه .. وعنقكم فى فكيه .

عدنا من مجلس الذئاب .. مهللين مكبرين .. لم ؟ لا ادرى والله .. هذه مسألة لازلت أفكر فيها حتى الآن .. وقد استطيع أن أحدثك عنها فى العام القادم .. عدنا عودة الغزاة الفاتحين .. رغم ما نالنا من فشل وهزيمة .. وعلقنا الاعلام ونصبنا الزفف ولعل ذلك من باب التفاريح والعزاء .. ان احدا لا يلومنا على الهزيمة .. ولكن اللوم كل اللوم على أن نفرح بالهزيمة .. ونجعل منها أمام أنفسنا انتصارا ..

وأعطت الوزارة نفسها الخازوق الأكبر .. ولم تستقل ولو استقالت وقتذاك لاستطاعت أن تحتفظ بما كسبته مدى الدهر ولأوضحت للناس أنها كانت جادة فيما قالته فى مجلس الأمن وأنها أتت بما لم تستطعه الأوائل ..

ولكنها لم تفعل بل أغراها السلطان أو أغريت به .. وبدأت تخسر ما كسبته شيئا فشيئا .. وبدا للناس ان كل ما فعلته مظاهرة أو «زوبعة فى فنجان» .. وبدأت هى تلوذ بسياسة عجيبة .. هى سياسة التجاهل ..

لقد كان الانجليز يتجاهلوننا .. فأصبحنا نتجاهلهم .. ترى هل هناك أى فارق فى النتيجة .. هل هناك فارق بالنسبة للمدين .. بين أن يتجاهل هو الدائن أو يتجاهله الدائن ؟ .

لقد أغرقتنا بعد ذلك سياسة التجاهل .. التجاهل من كل ناحية .

فالانجليز يتجاهلوننا ويفعلون ما يشاءون .. ونحن نتجاهلهم فنغض الطرف عما يفعلون .

اما الأخبار الخارجية .. فلا شىء جديد .. لا جديد أبدا .. ان التاريخ البليد يعيد نفسه كأنما يعطينا من الماضى القريب صورة (طبق الأصل) منه بالكربون .. نفس المطامع ونفس التطاحن ونفس التكتل .. ونفس مهزلة عصبة الأمم .. التى سميت الآن هيئة الأمم .. لاجديد أبدا .. ان البشر مازالوا كما هم .. حمقى مجانين .. كيف يغير التاريخ وجهه .. وهم لايغيرون ما بأنفسهم .

وصمت الرجل .. ورأيته يطوى الورقة ويضعها فى جيبه ويصمت برهة ثم يعاود الحديث قائلا :

- بقى لى معك حديث خاص .. أود أن أسر اليك به لقد ترددت كثيرا قبل أن أقدم على قوله .. ولكنى صممت فى النهاية على أن أقوله .. فانى لا أستطيع أن أحتمل عاما آخر من وخز الضمير .

هل تذكر وفاتك ؟ .. طبعا تذكرها .. لقد كانت عقب مرض طويل .. توليت أنا علاجك منه . ولاشك أن وفاتك قد بدت طبيعية لكل الناس .. حتى لك أنت .. ولكنها لم تكن كذلك .. انى أحمل نفسى مسئوليتها .. أنا لم أقتلك بالطبع وأنت تعلم ذلك .. ولكنى أعتبر نفسى مسئولا عن موتك .. اننى قاتل أمام نفسى فقط .. كنت استطيع أن أمنع وفاتك .. أو على الأقل أؤجلها ..

كنت أستطيع ان اـنحك فترة حياة أخرى .. ولكنى لم أفعل .. بل تركتك تموت .. كنت أستطيع أن أبذل جهدا اكثر مما بذلته من أجلك ، ولكنى لم أبذل .. لأنى كنت أريدك أن تموت قبلى هل تدرى لم ؟ .

انك لاشك تذكر زواجك .. لقد كان ذلك الثلاثين عاما .. منذ زمن طويل .. ولكنى مع ذلك لم انسه قط .. فلقد كان صدمة لى .. لأنى كنت على وشك أن أخطب شفيقة» .. فلقد أحببتها كما لم يحب انسانا .. ولكنك سبقتنى اليها ففزت بها ، وبؤت أنا بالخيبة والخذلان . تزوجتها انت ، ولاشك أن حبك لها - ان كنت قد أحببتها - قد خبا على مر الأيام .. أما أنا فقد أبقى الحرمان على حبى ، فما انطفأت جذوته ولا خبا لهيبه . ولم أقدم على الزواج ، بل عشت وحيدا ، لأنى لم أكن اجسر على التفكير فى أن أتزوج سواها .

ومرت الأيام والسنون ، وقد طويت حبى بين الحنايا .. وقنعت منه بصداقة خالصة لا تشوبها شائبة .. فأخلصت لك ولها ، راضخا لحكم القدر .. راضيا بما وهبنى اياه .. حتى بدأ الهرم يدب ثلاثتنا ، وما زال حبى كما هو .. ومرضت أنت وطال بك المرض .. وأنا أتولى علاجك والعناية بك .

ولقد سألت نفسى ذات يوم .. ما النهاية .. وكيف المصير .. هل قضى على بالحرمان مدى العمر ؟ هل قدر لى أن أخرج من الحياة صفر اليدين .. وساورنى اذ ذاك خاطر بعث فى نفسى بعض الأمل وبعض العزاء .. لقد قلت لنفسى انك قد تخرج من الحياة قبلى .. فيخلو لى الطريق وأستطيع أن أمتع نفسى المحرومة .. بضع لحظات فى نهاية العمر .. أستطيع أن أدفىء القلب المقرور بأشعة الشمس الغاربة الهاربة .

وقوى مرضك هذا الأمل فى نفسى .. وأخذت انتظر فى هدوء وسكينة .. أن تتفضل وتترفق بى .. وتغادر الحياة .

ولكن مرضك قد طال .. وبدأ القلق يساورنى .. وتملكنى خوف من أن يسخر منى القدر فيخرجنى من الحياة قبلك .. وأغادر الحياة كما دخلتها ، محروما محسورا .

وبدأت أقدر الموقف .. فوجدت انك قد نعمت بها - أعنى بزوجتك ثلاثين عاما .. وانك قد أخذت من الحياة قدرا كافيا وفزت منها بنصيب الأسد .. وانك الآن لم تعد تتمتع منها بشيء فان حياتك مع المرض الذى اعتراك ، حياة ضيق وتبرم .. وأن خروجك من الحياة خير لك .. ولى .. فلاشك أنك لن تأبى على - وأنت الرجل الكريم - أن تهبنى بضع سنوات من خريف الحياة بعد أن تمتعت انت ببهجة الربيع وازدهاره .

وهكذا اقنعت نفسى .. أن كل جهد أبذله لاطالة حياتك هو جهد ضائع .. لأنى أهبك لحظات لن تجدك نفعا ، ولكنها تسبب لى خسارة .. أجل لقد كنت أهبك لحظات من حياتى ومن متعتى .

وبدأت أتراخى فى علاجك .. فقل جهدى .. ولم أعد أقبل على العناية بك بنفس الاخلاص ونفس الرغبة .

ولست أدرى ان كان ذلك التراخى منى قد عجل بنهايتك ، أم أن أجلك هو الذى قد حان .. ولكن الذى أدريه هو انى قد ذهبت اليك ذات صباح فوجدتك قد فارقت الحياة .

وبكيتك كما بكتك زوجتك .. بكيتك مخلصا .. فلقد أحزننى فقدك .

ولم تستطع تلك الرغبة الخفية فى الخلاص منك ، وفى أن تسبقنى الى الخروج من الحياة .. أن تخفف لوعتى على فراقك فقد كانت صداقتنا صداقة عمر .. وكنت أحبك .. فما رأيت منك الا كل خير وكل صنيع حسن .

ومرت الأيام بعد موتك .. وكنت أحس دائما بنوع من تأنيب الضمير .. تزداد وطأته كلما أبصرت بزوجتك .. ورأيت حزنها ووحدتها .. وبدأت أشعر أن واجبى الأول هو أن أعينها فى حياتها .

ولقد خلا لى الطريق بعد ذهابك .. ولكنى وجدته شديد الظلمة والوحشة ، ولم أر له البريق الذى كنت اتخيل .

ومع ذلك - ولا أكتمك القول - اننى لم أستطع أن أقاوم تلك الحماقة التى دفعتنى الى أن أسألها الزواج .. فأدهشها قولى .. ولم يسعها الا أن تردعنى برفق وعطف .. كأنها أم حنون .

انى أحس أنها تعيش فى ضنك ، ولقد حاولت أن أعينها بشىء تافه من المال .. ولكنها أبت .. ولشد ما يثقل على الا أستطيع معاونتها وأن أشعر أننى كنت السبب فيما أصابها .

لقد كنت مخطئا كل الخطأ فى اخراجك من الحياة .. فانى أشقيتها دون أن أشعر نفسى بأية سعادة .. وبت أحس أنى قد أجرمت فى حقك وفى حقها وفى حق نفسى .. وثقلت على وطأة الضمير .. ويخيل الى أن هناك طريقا واحدا لاصلاح ما أفسدت ، لقد فرقت بينكما فليس هناك ما أستطيع التفكير به عما فعلت سوى أن أجمع بينكما مرة أخرى .

ولقد كان بودى أن أعيدك اليها .. ولكن هذا - كما تعلم أنت خير العلم - أمر يستحيل على عمله .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى أمر واحد .. وهو أن أعيدها إليك .. فذلك شىء أظننى أستطيعه .. أجل انى سأرسلها اليك فى أقرب فرصة أقرب مما تتصور .. وسأصبر أنا على فراقها وأتجلد وليعنى الله على احتمال الحياة .. حتى يخرجنى منها اليكم .

★ ★ ★

وصمت الرجل .. وسمعت الريح تقرع الباب بشدة .. ورأيته يرفع يده بالتحية قائلا «السلام عليكم» .

واتجهنا الى الباب ، وسرنا فى صمت ، وقد تملكنى دهش شديد ، وأخذت أستعيد لنفسى ما قاله الرجل .. فهالنى الأمر .

ان الرجل - كما اعترف أمام القبر - رجل قاتل .. وهو على وشك أن يقدم على ارتكاب جريمة أخرى .. وهى كما يسميها اعادة المرأة الى زوجها الذى أخرجه من الحياة .

ولم أشك وقتذاك فى أن الرجل مجنون .. وأن أول ما يجب على القيام به هو أن أنقذ من براثنه - الست شفيقة - التى ينوى أن يخرجها من الحياة فى أقرب فرصة .. وبعد أن أنقذها أبلغ عنه ليرسلوه الى مستشفى المجاذيب .

ووصلنا الى الطريق وسارت بنا العربة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة حتى وصلنا الى دورنا ، وشد الرجل على يدى مودعا وعاد الى بيته .

ولم أذهب الى دارى بل انطلقت الى دار الست شفيقة .. لقد كنا حقا فى ساعة متأخرة من الليل .. ومن الحمق أن أوقظها فى ذلك الوقت . ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت .. ان الرجل المجنون قد عزم على أن يلحقها بزوجها .. فى أقرب فرصة .. أقرب مما نتصور .

وقرعت بابها .. ولم يجبنى أحد فى بادىء الأمر .. ولكنى بعد لحظات أحسست خطوات ثقيلة تقترب من الباب وتفتحه وأطل على وجه الخادم .. وقد بدا عليها ذعر شديد .. وسألتنى عما بى وعما أريد .

فقلت لها فى عجلة : انى أريد أن أرى سيدتها فى أمر هام ، فأجابتنى فى دهش : انها نائمة وأنها لا تستطيع ايقاظها . ولكنى أصررت على أن توقظها . وقلت لها أن المسألة خطيرة جدا .

واغلقت الخادم الباب ، وعادت الى الداخل .. ووقفت فى الخارج أنتظر الرد فى ضيق وقلق .

وفجأة سمعت صياحا وولولة ، ورأيت الخادم تهرول نحو الباب وتطل على لتخبرنى باكية .. ان سيدتها قد ماتت .

لقد تركت الحياة .. أسرع كثيرا مما تتصور .

★ ★ ★

وصمت محدثى .. وطال به الصمت وهو يحملق فى الدخان المتصاعد من سيجارته .. وبدا لى كأنه قد انتهى من قصته .. وقطعت عليه صمته متسائلا :

– والرجل ؟ . ماذا فعلت به ؟ .

- لا شيء .. وماذا كنت أستطيع أن أفعل به .. وقد خرج هو الآخر من الحياة قبل شروق الشمس .. أجل ياسيدى لقد مات الرجل فى نفس الصباح .

- أمر عجيب !

- عجيب .. وغير عجيب .. ان المسألة كلها لا تعدو أن تكون طبيعية ، لا جريمة فيها ، اذا حاولنا أن نفحصها من الناحية المنطقية المعقولة .. وهى مسألة عجيبة اذا ما حاولنا ان ننظر اليها من وجهة النظر الأخرى وجهة نظر الرجل نفسه .

فاذا حاولنا أن نفسرها من الناحية الاولى فاننا نجد ان الزوج الراحل قد مات موتة طبيعية نتيجة لمرض عادى ، ولكن صاحبنا الطبيب ، وهو كما قلت لك ، مصاب بمرض الضمير أو من النوع الذى نسميه «عبيد الضمائر» الذين يحسون بندم على كل ما يفعلون قد تخيل له أنه قصر فى علاج الزوج وأن تقصيره هذا قد سبب وفاته .. واستمر ضميره يثقل عليه حتى أصابه بنوع من الجنون .. هيأ له أن يقتل المرأة ليبعث بها الى زوجها فى الحياة الأخرى .

وصادف أن ماتت الزوجة فى تلك الليلة موتة طبيعية .. ثم مات هو فى الصباح نتيجة لذلك الجهد الذى بذله ، ونتيجة لتعرضه للصقيع والمطر .

هذه هى كل المسألة لا عجب فيها ولا غرابة .

أما اذا حاولنا أن نراها من وجهة نظر الرجل ، فاننا نجد فيها مسألة عجيبة حقا فالرجل قد قتل الزوج خوفا من أن يموت هو قبله فلا يستطيع أن يتمتع بالمرأة التى أحبها ولو حتى فى خريف العمر .. ثم ندم على ما فعل ، وأشقاه حزن المرأة ورفضها زواجه فألحقها بزوجها .. متخيلا أن فى ذلك راحة لها وتكفيرا عما فعله بزوجها .. وزادت عليه وطأة الضمير .. فلم تشرق عليه شمس اليوم الا وقد الحق نفسه بالسابقين .

ويخيل الى أننا لو أردنا أن نختتم القصة على لسان الرجل أو لو استطاع

أحد أن يوجد بجواره فى تلك اللحظة التى أقدم فيها على الانتحار ، لسمع منه تتمة ذلك الحديث الذى القى به على قبر الزوج الراحل :

«لقد أرسلتها اليك .. انكما لاشك تسعدان الآن بلقاء ممتع انى احس بوحشة الحياة .. ومرارة الفراق .. وأحاول أن أصبر وأتجلد .. ولكننى لا أستطيع .. لقد قضيت حياتى محروما ، ولكن خير ما كان يعيننى على الحياة هو احساسى بوجودها وانى أستطيع أن أراها وقتما اشاء وأحس بعطفها على .

اما الآن فماذا يعيننى على الحياة .. ماذا يغرينى على البقاء فيها .. لا .. انى لا أحتمل الوحدة .. انى قادم اليكما» .

★ ★ ★

أرواح هائمة

تعالى معنا .. والق به فى اليم أو بعثره على الربى .. انك لن تستطيع أن تبتاع به شروق شمس أو حب قلب .

اشتدت الزوابع من حولها ، وزاد عصف الريح وزئير الأنواء .. وأحست كأنها تهيم فى فراغ شديد الحلكة ، معتم الدياجير .. وتلفتت حولها فى فزع تتلمس ملاذا تلوذ به ، أو مقرا تستقر فيه .. فلم تجد سوى الفراغ والظلمة . وأخيرا رسا القارب على الشاطىء ، محدثا قرقعة شديدة ، سرت منها قشعريرة في بدنها وخيل اليها أن الشاطىء الصخرى قد حطم القارب ومزقه اربا .

وبعد برهة وجدت نفسها وحيدة على الشاطىء وقد خيم من حولها الظلام ، وساد السكون الا من همهمة الريح وهدير الموج ، وتلفتت حولها فلمحت على ضوء القمر الخافت شبحا يقترب منها ما عتمت أن ميزت فيه توأم نفسها وصنو روحها ، فندت عنها صرخة خافتة وعدت اليه لترتمى بين احضانه ..

وضمها صاحبها الى صدره فى رفق وحنان ، وهمس فى أذنها بصوت يفيض رقة وولها :

– ما كنت أحسب ، ياحبيبتي ، أننا سنلتقي مرة أخرى . لقد كنت أحس بفرط الوحشة ، وكنت أسير كضال في بيداء مقفرة مجدبة ، لا ماء فيها ولا رواء .. كنت أهتف باسمك في كل خطوة أخطوها .. ما دعوت الله بأحر مما دعوته لكي يعيدك الي ، سلي الرمال كم مستها جبهتي سجودا لله من أجلك .. سلي الريح ، والصخور ، والمياه ، أن كانت تعي شيئا غير اسمك وصلاتي من أجلك .

– صلاتك من أجلي .. وصلاتي من أجلك .. أجل ياحبيبي . أنا أيضا ما فعلت شيئا سوى الصلاة لكي أعود اليك ان الله ، ياحبيبي رحيم لا ينسى عباده المحبين المخلصين الأوفياء البررة .. كم جاهدت وكم كافحت .. لكي أصل الى الشاطيء .. كانت الفرقة مضنية والبعد مريرا .. كنت أريدك .. أريد همساتك الحنون وصدرك الدافيء .. كنت اريد ضمة ذراعيك ، ومسة شفتيك .. وكنت أومن بك ، وبقوة الصلة التي تشد أحدنا الى الآخر .. فلم أدع اليأس يتطرق الى قلبي لحظة واحدة .. وقلت لنفسي اني عائدة اليك حتما .. وحملت الى الريح هتافك ودعاءك ، فشد من أزري وقوى من عزيمتي ، حتى استطعت في النهاية أن أصل اليك وأرتمي بين ذراعيك .

وضمها اليه بشدة كأنما يخشى أن تفلت منه مرة أخرى .

ومضت لحظة لم يعد يسمع فيها الا أنفاس تتردد في سكون الليل .

وأطل القمر من كبد السماء ، فبدد السحب الداكنة وغمر المكان بأشعته الفضية ، فبدا ساحرا خلابا .. وهدأت الريح الا من نسمات رطبة رقيقة تمس وجهيهما برفق وحنان .

وتلفتت حولها ، مأخوذة بسحر الليل الساجي والقمر الفضي ، وهتفت به :

– هذا الشاطيء العجيب ! ما ظننته قط بتلك الروعة وذلك السحر . ليخيل لي أن كل ما نحن فيه لا يعدو أن يكون حلما !

وأسرع هو .. فألصق شفتيه بشفتيها وقبلها في صوت مسموع ، وأجاب ضاحكا :

- أما زلت تصرين على أنه حلم !

- انى ..

ولكنها لم تتم حديثها .. فقد قطعه صوت يصيح بهما فى حدة :

- هاى .. أنت .. هناك !

وتلفتا فى دهشة الى مصدر الصوت ، فأبصرا شبحا ضئيل الحجم ، على قمة احدى الربى المطلة على الشاطىء .. وعاد الصوت يصيح متسائلا :

- هل أبصرتما رجلا يحمل على ظهره كيسا ضخما ؟

وأجابته بالنفى .. فأخذ يهبط تجاههما فى خطوات سريعة حتى وصل اليهما .. وبدا لهما من قرب ، حاد التقاطيع ، متوتر الأعصاب .. يضع على عينيه منظارا مذهب الاطار . وعاد الرجل يسأل فى نفس اللهجة الحادة الغاضبة :

- أى مكان هذا ؟

وأجابه صاحبها فى لهجة هادئة :

- جزيرة القدر .

- جزيرة القدر ؟ كفى عبثا .. لقد كنت فى طريقى الى «البنك» .. لعن الله هذا الضباب المتراكم .. لقد أضلنى الطريق .. ولكن أين ذهب هذا الأحمق بالكيس .. لعنة الله عليه .

ثم خفف من حدته ، وعاد يقول بلهجة ملؤها التوسل :

- أرجوكما .. اذا ما رأيتماه أن تبلغاه انى أبحث عنه وأن ينتظرنى هنا بجوار الشاطىء .

وسار الرجل فى خطوات متباطئة .. فاختفى وراء الربوة التى ظهر منها .

وأمسك صاحبها بيدها وضغط عليها برفق وهمس قائلا :

- والآن يا حبيبتي يجب أن نعود .

- نعود .. ولكننا لم نفعل بعد .. ما أتينا من أجله !

- لقد أخطأنا المكان .. لن نستطيع ان نعقد قراننا هنا . فانى لا أبصر سوى قفر فى قفر ، ولا أظن أن هناك مخلوقا واحدا يعيش هنا .

- أخطأنا المكان ؟ .. كيف ؟ .. انى اسمع صوت موسيقى .. انصت معى .. انها لاشك موسيقى عرسنا .

- لا .. لا أظن .. انها خدعة من تمويه الرياح .. أو هدير الأمواج .

وتأبطت ذراعه وبدأ سيرهما على الشاطىء .. وقالت وهى تحملق فيما حولها :

- هذا الضباب الكثيف قد كاد يضلنى عنك .. كما أضل الرجل عن صاحبه .. لا أدرى كيف استطعت الحضور .. ولا كيف استطعته أنت .. لقد كان لقاؤنا معجزة . وكان من المحتمل أن يظل أحدنا بمنأى عن الآخر .. ويضيع العمر سدى .

وفجأة أمسكت بذراعه .. وشدت عليه فى فزع وهمست قائلة .

- انى أرى شبحاآخر ، يقترب منا .. انه امرأة ؟

وانقشعت السحب مرة أخرى فكشف ضوء القمر عن امرأة تقترب فى هدوء وقد بدت عليها سيماء الأناقة ، وكست ملامحها الجميلة ابلغ آيات الحزن . وسألتها فى صوت مكتئب :

- ألم تبصرا زوجى ؟

وتملكتها الشفقة بالسيدة الحزينة فأجابتها مطمئنة اياها :

- أجل .. أجل .. انى أبصرته يختفى وراء تلك الربوة . لقد سألنا عن رجل يحمل كيسا ..

وهزت المرأة رأسها فى أسف وقالت :

– لا .. ليس هو .. لقد رأيت ذلك الذى تصفينه .. انه ليس زوجى .. انى مخلوقة شقية تعسة .. انى لن أستطيع العثور عليه .

وغادرتهما السيدة فى صمتها الحزين ، مطأطئة الرأس ، محنية الهامة ، كأنها تحمل عبئا يثقل كاهلها وينقض ظهرها .

وغاب شبح المرأة فى الظلمة .. وأحست هى بالحزن يسرى فى جوانحها .. وسألت صاحبها :

– ترى أين ذهب زوجها ؟ لقد كان من المحتمل أن أفقدك كما فقدت زوجها ، أما كان يجب علينا أن نساعدها فى البحث عنه يجب ألا نتركها هكذا ، انها امرأة تعسة .

– ولكن كيف ؟ كيف نبحث عنه .. ونحن لا نعرف حتى من يكون ؟ .

– يجب أن نعاونها بأى طريقة .

وأحست وهى تتحدث بشىء يشبه الغثيان ، وكأن هناك ما يجذبها الى الأرض ، وأمسكت بذراعه تتحامل عليه ، ثم أسندت رأسها على صدره ، وعادت تتحدث بصعوبة :

– ان المكان جميل .. رائع .. لم تريد أن نعود .. لم لا نمكث هنا .. انى متعبة .. وأحس بأطرافى تجمد وتتثاقل .. انى أخاف الأغماء .

وأحست به يضمها الى صدره .. وسمعت صوته يهمس فى أذنها :

– لابد ان تعودى يا حبيبتى ، يجب ان تتمالكى ، تعالى معى الآن .. حاولى .

– انى بخير .. ليس بى شىء .

ولكنها مع ذلك أحست بنفسها تتهاوى الى الرمال .. وعاد هو يهتف بها :

– انهضى يا حبيبتى ..

وحاول أن يرفعها بين يديه .. ولكنها قاومته قائلة :

- لا أستطيع .. ثم أنه ليس هناك داع لهذه العجلة .

وجلس بجوارها وأمسك وجهها يتحسسه برفق وأردفت هى قائلة :

- ان الرمال والموج تبعث فى ذاكرتى أول لقاء .. هل تتذكره . فى الصيف الماضى على شاطىء البحر .. وقد أخذنا نسبح معا تجاه الصخرة ! ..

- أجل .. أجل .. انى أتذكره .. ولكن لابد لنا من العودة .

- انى متعبة .. لاأستطيع .

وأحست فجأة بدمعه الساخن يمس صفحة وجهها فنظرت اليه فى دهش ، وهمت بأن تسأله عما يبكيه ولكنها لمحت شبح المرأة الشقراء الحزينة يمر من بعيد ، وأحست برغبة شديدة فى اللحاق بها كأن هناك شيئا خفيا يدفعها اليها وأخذت تتحامل على نفسها محاولة النهوض قائلة لصاحبها :

- لابد أن أساعدها .. انها مريضة .. انها لاتعرف الى اين هى ذاهبة .. أجل .. دعنى ألحق بها .

ثم أخذت تعدو تجاه المرأة ، وهو يناديها ، حتى وصلت اليها وهى تسمع ٢٠أهه يتردد بين الربى مليئا بالألم والحزن .

ومست ذراع المرأة ، وقالت لها فى حنان ورفق :

- لقد عدوت وراءك . انك لاتبدين بخير .. يجب أن تستريحى حتى أبحث لك عن زوجك .

- ما دمت أنا لم أستطع العثور عليه بعد أن بحثت طويلا .. فلن تستطيعى أنت ! ..

- ولكنه لابد أن يكون هنا ما دمت قد أتيت معه .

- انى لم آت معه .

وتملكها الدهش .. ولم تعرف ماذا تستطيع أن تفعل للمرأة وأحست بحاجتها الى معونة صاحبها وتلفتت حولها فاذا به على مقربة منها ، ولكنها لم تستطع ان تتميزه بوضوح وعادت تقول للمرأة :

- اذن فقد لا يكون هنا .. لم لا تعودين معنا .. انى أخشى تثاقل السحب والضباب مرة أخرى .. فلا تعودين تبصرين طريقك ! .

- وما فائدة العودة .. اذا لم أستطع العثور عليه ؟ .

- أرجوك .. أنت مريضة ، يجب أن تعودى معنا .

- لا .. لا .. انك لاتعرفين جلية الأمر .. كم وددت لو أكون مثلك .

- مثلى انا ؟ انى لاشىء .. أنا لا أملك من حطام الدنيا .. الا هو .. وحبه .

- وذلك هو ما أحسدك عليه .. هل هناك فى حياتنا أثمن من الحب .. انى لم أحس ما يعنيه زوجى بالنسبة الى حتى حدث ما حدث .. لقد كنت الليلة أوشك أن أفر مع رجل آخر ولقد فقدته فى ذلك الضباب المخيم ، وأحسست بفرط الوحدة والوحشة ، والحنين الى زوجى المحبوب .. ولكنى لا أستطيع أن أجده .

وأصابها عجب زائد من قول المرأة .

اذن فهذا هو سر المرأة الحزينة التعسة .. مسكينة .. لقد أضلها الشيطان فأضاعت زوجها .. وفكرت برهة ثم وجهت الحديث اليها قائلة :

- ياسيدتى انى أرثى لك ، يجب أن تعودى معنا سريعا فقد تهيىء لك العودة فرصة استرجاع زوجك ؟

- لا فائدة .. ما دام لم يعد لى .. فلا أظننى قد أصبحت أعنى شيئا لديه .. لقد تبدد حبى من قلبه .. انى استحق كل ما حدث .. لقد كنت انانية حمقاء .. ما حاولت قط أن احتفظ بحبه لى .

وأخفت المرأة وجهها فى راحتيها الرقيقتين .. واستغرقت فى البكاء .. وأخذت هى تهدىء من روعها .. قائلة فى رقة واستعطاف :

- لاتبكى .. انه سيعود اليك .. ما دمت تحبينه .. وتؤمنين بحبه .

وأحست برغبة جارفة فى أن تغرس فى نفسها بذور الاخلاص وتبث الوفاء ، وادركت ان ذلك هو الدافع الخفى الذى دفعها الى أن تتبع المرأة التعسة .. ولكنها أحست ، وهى تمسك بذراعها وتحاول أن تجد كلمات التشجيع التى تعينها بها ، ان ذلك الاحساس بالغثيان قد عاودها وبدا لها - وهى تتلهف على معونة المرأة - كأن هناك تيارا خفيا يوشك أن يجرفها معا فينزعها عن صاحبها .

واستطاعت ان تتمالك وتوجه الحديث للمرأة قائلة :

- قولى له انك تحبينه .. قوليها من قلبك .. حتى تصل الى قلبه .. وأجزم لك انه سيسمعك ويعود اليك .

وساد الصمت .. وأحست كأن التيار قد جرفها فعلا ولم تعد تستطيع السيطرة على حواسها ، وتملكتها رجفة سرت من قمة رأسها الى أخمص قدميها واحست انها تتهاوى .. لا الى الأرض .. بل الى أعماق بعيدة الغور .. لا قرار لها .. وخيل لها كأنها تسمع طرقات تدوى من بعيد ، وأخيرا استطاعت أن تميز صوت صاحبها يناديها فى خفوت .

وأجابت بصوت مبحوح متحشرج :

- انى آتية .. انى آتية .

ثم ساد سكون عميق . ولم تعد تشعر بما حولها .. لقد فقدته تماما . كما فقدت المرأة زوجها .

★ ★ ★

وعندما أفاقت وجدت رأسها تستند على صدره ووجدته يتحسس جبينها بحنان .. ثم تلفتت حولها فلمحت وجه امرأة عجوز تبتسم لها فى رفق وتقول :

- انت الآن أحسن .. قليل من الجهد .. ونستطيع أن نعود بك الى شاطىء النجاة .

واختفت العجوز .. وسارت هى متكئة على ذراعه حتى وصلا الى قارب يرسو على الشاطىء .. وكان أول ما لفت نظرها ذلك الرجل العجوز ، ذا المنظار المذهب ، وقد وقف فوق الربوة يحمل على ظهره كيسا ضخما يثقل كاهله ، ويكاد ينوء تحت حمله .

ولوحت له بيدها ، مشيرة له أن يهبط ليعود معهما فى القارب وصاحت به :

– أين صاحبك الذى كان يحمل الكيس ؟

– لم أجده .. ولكنى وجدت الكيس !

– ألا تريد أن ترحل معنا ؟

– لابد أن أصطحب الكيس معى .

– ولكننا لانستطيع أخذه .. أنه قد يغرق القارب ويغرقنا معه .

– لا أستطيع الرحيل بدونه .. انه حياتى .. انه أموالى التى انفقت فى جمعها عمرى .

وكان قد وصل اليهما فى تلك اللحظة ، وقد تساقط عرقه وتلاحقت انفاسه تحت وطأة الكيس .. ونظرت هى اليه باسمه ، وقالت فى صوتها الحالم :

– حياتك أفضل من الكيس .. ان على الأرض من الجمال والحب ما يعوضك عن كل ما فيه .. انه ينقض ظهرك ويشقى حياتك .. تعالى معنا .. وإلق به اليم ، أو بعثره على الربى أنك لن تستطيع أن تبتاع به شروق شمس ، أو حب قلب .

ولم يتردد الرجل لحظة واحدة .. بل سار الى اليم بخطى ثابتة ، فألقى فيه بالكيس ، وقفز الى القارب فى خفة الشباب وهو يقول لها :

– شكرا .. لقد اتحت لى فرصة النجاة .. كنت فى صباى أعبث فى مكان جميل كهذه الجزيرة .. كنت أحب الطبيعة ، وأحب الشعر .. ولكنى

غادرتها فى يوم ولم أعد اليها .. لقد شلغتنى عنها الحياة وجمع المال .. خمس وعشرون عاما .. وأنا أشبه بحمار فى ساقية أدور فيها معصوب العينين لا أبصر مما حولى شيئا .

لقد أزلت الغشاوة عن عينى . انى الآن أستطيع أن أرى الكثير مما لم أبصره من قبل .. أرى الجمال والحب والحياة .

وصمت الرجل ، وفجأة لاح شبح يقبل من فوق الربوة واستطاعت أن تتبين فيه المرأة الشقراء وهى تتحرك كالهائمة الضالة .. فهتفت بها من أعماق قلبها . وسمعت المرأة نداء ، وأخذت تقترب من القارب رويدا رويدا حتى وقفت بجواره شاردة الذهن .. فصاحت بها :

– هيا .. أقسم لك أنك ستجدينه .. ما دمت تحبينه .. ان العثور عليه لايحتاج الا لحب وايمان .

وقفزت المرأة الى القارب .

★ ★ ★

وسار القارب فى هدوء ، وأسندت رأسها الى صدره .

ولاحت أمامها بارقة مضيئة فى وسط الظلمة بدت فى أول الأمر كأنها فنار فى وسط البحر .. ثم أخذت تحدق فيها فاذا بها مصباح كهربائى .. وتلفتت حولها فاذا بها ترقد على فراش فى حجرة وقد أمسك صاحبها يدها فاحتواها بين كفيه وسألته فى دهشة :

– أين القارب الذى كنا به ؟

واجابها فى بسمة رقيقة :

– لقد رسا بنا على شاطىء النجاة .

وحاولت ان تتقلب على جانبها فأحست بوخز فى ظهرها جعلها تتأوه .

ثم أبصرت ممرضة قد اتشحت بلباسها الأبيض تقبل عليها فتضع يدها على رأسها وتقول لها :

– أرجوك .. لاتتحركى .. ان الصدمة لاشك تؤلم ظهرك .. ولكن الحمى قد زالت والحمد لله .

وهزت رأسها ونظرت اليه متسائلة فى دهش :

– أية صدمة ؟ انى لا أذكر شيئا مما حدث .

– الا تذكرين ان الليلة موعد زواجنا ؟ لقد كنا نتنزه فى عربتى فى الجزيرة قبل أن نذهب الى البيت حيث أعدوا العدة لعقد قراننا ، ولكن العربة تصادمت مع عربة أخرى فى منحنى الطريق بجوار النادى الأهلى . الحمد لله لقد زال الخطر .

– ولكنى أذكر اننا كنا فى قارب .

– لاشك أنه كان حلما .

– ولكنك كنت معى دائما فى كل لحظة من لحظات الحلم .

– أحقا كنت معك ؟ . لقد جاهدت لكى أكون معك فعلا حتى أعيدك الى .

– انى لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونك . انك حياتى .

وتسللت الممرضة الى الخارج ووقفت تتحدث مع ممرضة أخرى خرجت من الحجرة المجاورة . فسألتها الأخيرة :

– كيف حال مريضتك ؟

– لقد نجت .. ان الفضل له .. فهو لم يتركها لحظة واحدة يبدو لى انه هو الذى استطاع بفرط ايمانه واخلاصه أن يعيد اليها الحياة .. وأنت كيف حال مريضتك ؟

– لقد مضت عليها بضع ساعات وهى مستغرقة فى هذيانها لاتكف عن مناداة زوجها حتى حضر أخيرا . وقد تحسنت بعد ذلك كثيرا .

– أحقا أنها كانت فى العربة الأخرى مع الرجل المليونير ؟

– من يدرى ؟ قد تكون أصيبت هى وسائرة فى الطريق .. ان بعض الظن اثم ، وليس هناك من شاهد الحادث حتى يستطيع أن يجزم أين كانت .

– والرجل كيف حاله ؟

– كالجن الأزرق .. ان اصابته خفيفة .. وهو يضحك فى مرح ويتحدث عن الحب والجمال ، وقد وهب المستشفى بضعة آلاف من الجنيهات .. ويقول ان الغشاوة قد أزيلت عن عينيه .. وأنه يستطيع ان يرى الكثير مما لم يبصره من قبل .

★ ★ ★

شبح في فراشي

خير للانسان أن يحب يوما ويموت بعده ، من أن يعيش دهرا دون أن يطرق الحب قلبه .

الساعة التاسعة مساء .. وقد صفت العربات الفخمة صفا طويلا أمام قصر المرحوم على باشا عبد الرحيم بضاحية الزيتون .. كانت ليلة حافلة .. والقصر الكبير قد أخذ يزخر بما فيه .. وبدأ كأنه قد بعث من العدم .. وأنيرت أو جاؤه بعد طول ظلمة .. فقد رغبت الأم العجوز في أن تختفى بـ «سناء» خطيبة ابنها «يحيى» التى اختارتها له ، والتى كانت تفضلها على غيرها من الفتيات .. لكمال عقلها ، ورقة خلقها .

وكان البيت أحد تلك القصور الشامخة العتيقة الواسعة الأرجاء ، الكثيرة السراديب ، الفسيحة الحجرات ، التى يحوى كل ركن فيها آية من آيات الفن ، ومثلا من أمثلة الغنى والثراء .

وكأن صوت الموسيقى يصل خافتا الى اذن الفتى الذى اضطجع فى عزلة عن الجمع فوق أحد المقاعد الطويلة وقد بدأ يحتسى الكأس الثانى من «الشيرى» وأخذ خياله يسبح بعيدا فى ظلمات الماضى وآمال المستقبل .

وأخذ يتمطى في كسل .. عندما هبت عليه رائحة عطر نفاذة ، من ذلك النوع الذى يخترق الأنف ، ثم يسرى منه الى بقية الجسد فاذا بالانسان قد اصابته نشوة وعرته هزة .

وتلفت حوله ليرى صاحبة العطر .. لأنه لم يشك فى أنها أنثى .. لأن العطر يكاد ينطق ليفسر عن نوع صاحبته . نعم كان يكاد يصيح : أفسحوا الطريق .. لامرأة رقيقة كنسيم الليل .. جميلة كأوهام الشاعر ، وأحلام الفنان .

ولكنه .. لدهشته .. لم ير ما يتبع الرائحة .. لقد نفذ العطر الى نفسه .. ولكن صاحبة العطر لم يكن لها وجود بعد .

ونهض من مقعده ، وتوجه الى أقصى الغرفة الفسيحة كأنها ملعب كرة ، فاذا بفتاة قد توكأت بذراعها على مكتبه الذى رصت فوقه بعض الكتب . وأخذت تقرأ فى أحدها .

أخذ الفتى بمنظر الفتاة ، فقد كانت غريبة عن البيت .. غريبة عن تلك الجماعة التى اكتظت بهم الحجرات . وتعجب الفتى ، فهو لم يرها فى خلال يومه الا الآن .. بل لم يرها فى حياته قط الا هذه اللحظة .

ومما زاد فى دهشته ان الفتاة على رشاقتها وجمالها ، وصغر سنها ، كانت ترتدى من الملابس ما لم يره الفتى من قبل الا فى تلك الصور الزيتية التى تملأ جدران البيت ، والتى تمثل آباءه وأجداده من قرون مضت .

وابتسمت الفتاة ، وقد ظهرت على وجهها سيماء الهدوء والسكينة ، ولم تكن تبدو عليها أى علامة للدهشة كما بدا على صاحبنا . وكان مظهرها مظهر من تتجول فى عقر دارها . وكأنها رأت الفتى قبل ذلك مئات المرات .

وخيل للفتى .. انها احدى صديقات ضيوفه . وأن بعقلها بعض الشذوذ . ولكنه ما كاد يحقق فى جسمها حتى صعق .

لقد كانت الفتاة شفافة .

لقد كان يرى كل شىء خلفها بوضوح .. كأن جسمها قد صنع من الزجاج . فقد رأى خلال جسمها الكتب التى رصت على المكتب ، ورأى المكتب نفسه وقد بدت تفاصيله واضحة جلية .

وسقط من يده الكأس ، وصدرت منه صرخة خافتة .

لقد سمع قبل ذلك اشاعات من أشباح تجوس خلال الدار . ولكنه لم يصدقها قط . وسخر منها أشد السخرية . وحتى لو كان قد تخيل أحيانا أن هناك أشباحا ، فانه قد تخيل أنها تجوس خلال الأقبية الرطبة المظلمة ، والسراديب الضيقة فى أسفل المنزل التى ملأتها العفونة . أما أن تظهر هذه الأشباح فى حجرة المطالعة . والبيت قد غص بالزوار . والموسيقى ترسل انغامها فى أرجائه . فذلك ما لم يخطر له قط على بال .

وفوق ذلك لم يكن صاحبنا يتخيل.هذه الأشباح والعفاريت الا فى صور بشعة لسفاكى الدماء الغلاظ الأكباد ، القساة القلوب أما أن تظهر تلك الأشباح فى صورة فتاة ، فتانة فتاكة فى عينيها سحر ، وفى شفتيها خمر .. فذلك هو ما لم يتصوره من قبل .

وكأنما سر الفتاة ارتباك الفتى ، فرنت بضحكة كموسيقى عذبة حلوة .. وأفاق الفتى لنفسه ، واسترد شجاعته ، وساءه أن يكون موضع سخرية من الفتاة حتى ولو كانت شبحا أو عفريتا .. ووجد أن الفتاة عزلاء ، كما تتراءى له ، لن تملك له ضرا ، حتى ولو كانت جنية . فهو جدير بسحقها بين اصابعه كفتات العيش ، لو حاولت أن تناله بأذى .

وأمكن للفتى بعد أن طمأن نفسه وتمالك أعصابه .. أن يرد على ضحكة الفتاة بضحكة ملؤها السخرية سائلا اياها :

- من تكون الزائرة الكريمة ؟ . وما سبب تشريفنا بهذه الزيارة .
- تقصد الزيارات ؟ . فما كانت هذه أول زيارة ولن تكون آخرها .
- سيان عندى : كانت زيارة أم زيارات .. إنما يهمنى هو أن أعرف من تكونين : وماذا تبغين ؟

- أما سؤالك عمن أكون ، فهو اتهام صريح لذكائك وفطنتك ، وتأكيد لضعف ذاكرتك ، لأنك لاشك قد رأيتنى مرارا فى عدة صور من تلك الصور المعلقة فى صالة الاستقبال ، فقد ظهرت فى بعضها وحيدة ، وفى البعض الآخر مع بقية العائلة . وعلى أية حال يمكننا أن نعتبر أنفسنا «أولاد عم» . أما سؤالك عما أريد : فذاك سؤال فى موضعه ، والواقع أنى جئت لأحذرك .

وسأل الفتى فى دهشة :

– تحذرينى ؟ أنا . وممن تحذرينى ؟

– من الفتاة التى ستتزوجها .. انى أود أن أنصحك ألا تتزوجها وأصر على نصيحتى .

– ولكن ما السبب والحب بيننا متبادل والفتاة جميلة الخلق والخلق ، ولاعيب بها ، الا اذا كنت تودين الوقيعة بيننا ، وتنوين افتراء الأكاذيب واختلاق الأراجيف . وعلى أية حال قولى فيها ما شئت ، فلن يضيرها ذلك شيئا ، لأنى أحبها وسأتزوجها بالرغم من كل شىء .

فضحكت الفتاة ضحكة ناعمة ثم أجابت :

– لا أكاذيب هنالك ، ولا أراجيف . لاتكن أبله . أنى أحذرك من الزواج بالفتاة . لا لشىء الا لأنك لا تحبها .

ولم يتمالك نفسه من القهقهة فى سخرية .

هذه الفتاة الصغيرة .. بل هذا الشبح الزجاجى العتيق .. تنبئه عن دخائل قلبه كأنها تعرفه أكثر مما يعرفه .. هذه الفتاة تدعى أنها تعرف اذا كان يحب أو لايحب أكثر مما يعرف هو عن نفسه .

– خير لك يابنية أن تكفى نفسك مشقة التدخل فى شئون الغير .. وأن تضيعى وقتك فى شىء أفضل من التنبؤ بما اذا ما كنت أحب أو لا أحب .

ونظرت الفتاة اليه نظرة شملته من أخمص قدميه الى أم رأسه وقالت بلهجة من ينصح طفلا غريرا بالكف عن لعبة ضارة :

– هذه الفتاة الباردة التافهة .. ماذا يحببك فيها ؟ هذه الفتاة الشبيهة بالتماثيل الجبس التى يصنعها مثال مبتدىء .

وبدأ الغضب يلوح على وجه الفتى .. فحاول تهدئة نفسه باشعال سيجارة .. وحاول أن يظهر للفتاة قلة اكتراثه بأحاديثها :

– هل تسمحين لى بالتدخين ؟

– لاشك فى أننى أسمح .. فاننى أحب التدخين .

وصمتت برهة ثم أردفت :

– كم كنت اتمنى أن يكون التدخين مباحا للسيدات فى عصرنا ، كما هو مباح فى عصركم .. انى ما زلت أذكر كيف حرمت من الطعام يوما بأكمله عقابا لى على محاولتى التدخين وأنا فى الثامنة من عمرى .. ولكننا خرجنا عن حديثنا الأصلى .. لعلك مقتنع الآن بأن الخطأ كل الخطأ فى زواجك بتلك الفتاة الجوفاء ، الخالية من كل شعور ، العاطلة من كل احساس .. انى لأتخيل صاحبتك وقد تسللت بها الى ركن بالحديقة ساكن ، الا من انفاس الهوى الصادرة من الأوراق الرقيقة الخضراء يحركها النسيم الهادىء ، فكأن كل منها قلب صب مدله : وضوء القمر قد تحرر من وراء الغيم .

وأنت قد ملأ الهوى قلبك وترنحت من العشق أعطافك وبدأت تطارحها الغرام . وهى .. هى .. آه منها .

ووجد الفتى نفسه قد جذبت الى حديث الفتاة ، وشعر كأنه فعلا فى ذلك الموقف الشاعرى الجميل .. وإذا به يسألها دون قصد :

– هى ؟ .. ما لها ؟

– هى أمامك كقطعة من اللحم البارد الذى تسمونه «البلوبيف» لايحرك قلبها ساكنا ، بل أغلب ظنى أنها لا تحمل فى صدرها قلبا البتة ، وقد تطلعت اليك بوجهها اللاشعورى ، فاذا بقصورك الشم قد انهارت من عليائها .. واذا بالموقف قد فقد سحره ، واذا بك تهبط من السماء الزرقاء الجميلة لتصدم بالأرض الصخرية السوداء ، فتتحطم أمانيك ، وتذهب أحلامك أدراج الرياح .

وشعر الفتى كأنما قد سقط فعلا .. وأحنقه أن الفتاة تتلاعب به مثل هذا التلاعب فصاح بها غاضبا :

– لقد أضعت وقتى فى الاستماع الى ترهاتك .. فأرجو أن تكفى عن زيارتى بعد الآن ، فنصيحتك لن تجد معى نفعا وأفضل لك أن تكفى نفسك مؤونة تحذيرى .

وهزت الفتاة رأسها آسفة وقالت :

- أنت وشأنك ، ولكن ثق أننى لن أتركك تتردى فى هاوية زواج بلا حب .. أنت أبله .. لأنك لم تذق طعم الحب .. هذا الذى تدعيه حبا .. لايمت للحب بصلة .

واختفت من أمامه فجأة كما ظهرت .. تاركة له عبق اريجها يملأ خياشيمه .

وغادر الفتى الغرفة الى حيث القوم قد جلسوا للمسامرة والرقص . وفى العشاء جلس الفتى فى مكانه ساهما واجما .. ورأسه ملىء بالتفكير فى هذا الشبح الرقيق الجميل .. وفيما قالت له الفتاة من نصح وتحذير .. وشعر أنه فى حاجة الى أن يفضى الى امرىء ما بدخيلة قلبه .. ويقص عليه القصة من اولها الى آخرها ، ولكنه خشى أن يسخر منه القوم ويظنونه قد ثمل .. وظل يستعرض فى مخيلته الأشخاص الذين يثق بهم ، فلم يجد هناك من يفضى اليه بالأمر خيرا من أمه .

وانتهى العشاء .. وصاحبنا مازال فى وجومه وقلقه ، وأخذ يتذكر ما قالته له الفتاة حرفا حرفا .. وعندما تذكر تشبيهها خطيبته «بالبلوبيف» لم يتمالك نفسه من الضحك .

ونظرت اليه خطيبته فى دهشة وقالت :

- هذه أول ضحكة تضحكها الليلة .. فلعل ما طاف برأسك يبقيك على مرحك بقية الليلة .. فلا تعود الى وجومك السابق .

وفجأة نهض الفتى وتوجه الى الفتاة وجذبها من ذراعها ، وقال للجميع :

- عن اذنكم .. سأسر لها حديثا يهمها بعض الشىء .

ودهشت الفتاة ، كما دهش القوم ، ولكن الفتى لم يأبه لهم .. بل اندفع الى الحديقة كمن انتوى أمر جللا .. .

وفى ركن تشابكت فيه الأغصان .. ركن أشبه بذلك الركن الذى وصفه الشبح فى حديثه .. وقف الاثنان وقد غمرهما ضوء القمر وتشبع جو المكان بالسحر والفتنة .. ونظر الفتى فى وجه صاحبته وقد تملكه الحب .. وسرت فى جسمه النشوة .. ثم قال هامسا :

– مارأيك فى أن نهرب سويا فى عربتى الى الاسكندرية حيث يتم زواجنا ، ونرشف معا كؤوس الحب فى مكان يملؤه الشعر والخيال .

ومد يده فلف الفتاة وجذبها نحو صدره وقبلها فى شوق .

ولكن الفتاة دفعته بيديها ، وتخلصت من ذراعيه ، وردت عليه غاضبة :

– أى جنون قد أصابك .. وأى سخافات تلك التى تحدثنى عنها .. أى هرب هذا الذى تريده .. وماذا يقول الناس عنا .. بل ماذا يقول أبى وأنت أدرى الناس .. أى نوع من الرجال هو .. ثم تخيل أن العربة تقف منا فى الطريق .. فأى مشكلة تكون قد ألقينا بأنفسنا فيها .. وهل هذا هو الأمر الهام الذى جذبتنى من وسط القوم وتركتهم يتحدثون عنا فى سخرية .

ووجد الفتى أن السحر قد ذهب ، والفتنة قد زالت .. وخبا لهيب قلبه ، ونظر الى صاحبته فاذا هى جافة باردة .

وفجأة تذكر «البلوبيف» .. وشعر لشدة الحنق على الفتاة الزجاجية الشفافة .. وأحس كأنه يرمى بآخر سهم فى جعبته ، فبدأ يرجو صاحبته :

– اذا كنت تعتقدين ان الفرار جنون .. فدعينا منه .. ولكن هل لديك مانع فى التعجيل بالزواج .. وليكن فى الأسبوع القادم مثلا ؟ . أرجوك ألا ترفضى .

– لا أدرى ماذا أصابك الليلة ؟ .. من المستحيل أن يتم الزواج فى الأسبوع القادم .. ولا حتى فى الشهر القادم .. فأنت تعلم أن الملابس .. و «الجهاز» لن يتم صنعهما الا بعد شهرين أو أكثر .. ولن يقبل أبى التعجيل بالزواج قط قبل أن تتم هذه الأشياء .. خصوصا أنه لا سبب للتعجيل .

وعاد الاثنان من الحديقة وافترقا وسط الجموع الراقصة .

وشعر الفتى بميل يدفعه الى الذهاب الى حجرة المكتبة مرة أخرى ، وجلس فى نفس المقعد ، وتمنى لو ظهر الشبح الجميل ثانية .

ولم تمض لحظة .. حتى هبت عليه رائحة العطر اياه .. واذا بالفتاة الشفافة أمامه وقد بدت آية فى الرشاقة والجمال .. واستندت بمرفقها الى المنضدة ثم ضحكت فى لين .. وقالت :

لقد فشلت التجربة .. وكنت أعلم سلفا انها فاشلة .. ياصاحبى ان الحياة هى الحب .. ولاشىء غير ذلك .. فان فقدت الحب فانك قد فقدت الحياة .. واذا عشت بغير حب فكأنك لم تعيش .. وخير للانسان أن يحب يوما ويموت بعده ، من أن يعيش دهرا دون أن يطرق الحب قلبه .. أنا أدرى بالحب منك .. فلقد مسنى الحب وأنا فى الخامسة عشرة وكان يد ساحر قد مستنى .. واذا بحياتى قد انقلبت من قطعة فحم سوداء .. الى جمرة حمراء ملتهبة .. فى جوفها ضوء وحولها ضوء .. وكان الذى احببت لم يزد على أن يكون كاتبا بسيطا فى دائرة أبى .. ولكنى كنت اذ أراه كأنى قد ملكت الدنيا والآخرة وفررت معه ولكنهم أمسكونى ووضعونى حبيسة فى الدار .. وعوملت ، كما يعامل أشد الناس اجراما .. ثم انتقوا لى زوجا .. ظنا منهم أن ذلك سيذهب عنى ما ظنوه طيشا ونزقا .. وفى ليلة الزفاف كنت أشعر كأنى أزف الى القبر .. لقد كنت حزينة يائسة .. كنت اتمنى الموت ولكنى لا أستطيعه ، فقد كنت أعامل كأننى أسيرة حرب ، ولكنى أخيرا استطعت أن أخلو لنفسى بضع لحظات تناولت فيها سما .. وفررت من الزفاف ومن الحياة .

وصمتت لحظة ، ثم أردفت فى صوت ملؤه الاحتقار والازدراء :

– أنت تتزوج هذه الفتاة .. يا للسخافة .. اياك أن تقدم على ذلك الزواج .. اياك أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. مع الفتاة التافهة السخيفة .

وقاطعها الفتى غاضبا :

–كفى عن هذا السب .. فسأتزوجها بالرغم من كل هذا .. ولن تزيدنى اهانتك لهاالا تعلقا بها .

ولم تأبه الفتاة لمقاطعته :

– أنت الفتى الأمثل .. الفتى الجميل النبيل .. تتزوج هذه الأضحوكة .. كم يسوؤنى اننا لم نلتق في عصر واحد .. كم كنت أود لو خلقنا سويا .. بدلا من أن يكون بين أحدنا والآخر هذه الحقبة الطويلة من الزمن .. كم كنت أتمنى ان نلتقى جسدا بجسد لا جسدا بروح .. أو شبح .

وشعر الفتى ان الفتاة تقترب منه .. ثم أحس شيئا خفيفا قد مس شفتيه .. كأنه جناح فراش .. ثم اختفت الفتاة .

وانتهى القوم من سهرتهم وآب كل منهم الى فراشه ، ودخل الفتى مضجعه .. وشبح الفتاة لايفارق ذاكرته .. وخيل اليه أنه قد يراها فى مضجعه ..ولكنه لم ير أحدا .

وما كاد الفتى يغمض عينيه حتى سمع على الباب طرقا خفيفا .. فقفز من فراشه وفتح الباب وهو لايشك لحظة فى أن الطارق هو الفتاة العاشقة .. الساخرة الفاتنة .

ولكن الطارق لم يكن سوى خطيبته تسأله اذا كان لديه قرص من «الاسبرين» تذهب به عن رأسها صداعا أصابها .

وأجابها الفتى بالايجاب .. ولكنه وجد وجهها قد تغير فجأة وكساه احمرار الغضب .. فذهل وسألها عما بها فأجابته صارخة .

– تسألنى عما بى .. وفى فراشك امرأة .. هل رأى أحد أوقح منك مخلوقا .. انى لا أكاد أصدق عينى .

وكانت الفتاة تتكلم وهى تهتز من الغضب .. وصعق الفتى وأجاب فى دهشة :

– امرأة .. ماذا تعنين ؟

وتلفت حوله فاذا بالفتاة الجميلة الشفافة قد استلقت فى فراشه فى نوم عميق هادىء وبدت كأنها عروس فى ليلة زفافها . وتعجب الفتى ، فانه عندما قام من فراشه ليفتح الباب كان فراشه خاليا .

وأدرك الفتى ان الفتاة العابثة الماجنة قد أوقعته فى مشكلة كبرى .

وتلفت الى خطيبته وهو يكاد يجن وقال :

– انها ليست امرأة ؟ .. انها ليست بحقيقة ؟ هى لا تزيد عن أن تكون شبحا .. تقدمى وأمسكيها بيديك ان كنت تستطيعين انها لاشىء ..

ولكن الفتاة كان قد غلبها البكاء .. فنظرت اليه نظرة بغض ويأس وقالت ساخرة :

– وماذا يمكنك أن تعتذر به غير ذلك .. نعم .. انها شبح .

وعاد الفتى الى الفراش وهجم على الفتاة المستلقية به .. يود لو يمزقها اربا .. ولكنها كانت قد اختفت .

وعلم الفتى ان من المحال أن ينتظر من القوم أن يصدقوا الحقيقة .

وفى الصباح تسلل من البيت قبل ان تهب عليه الزوبعة .. وقبل أن يغادر الدار طرق أذنه صوت بكاء خطيبته وبكاء أمه .

★ ★ ★

وغاب الفتى عن بيته ثلاثة شهور .. علم خلالها ان خطيبته قد تزوجت .. وتوسلت له أمه أن يعود الى البيت فعاد .

ومرت الأيام ومحا الزمن القصة شيئا فشيئا .. فنساها القوم .. ولكن الفتى لم ينس قط شبح الفتاة الساخرة ..

وفى يوم من الأيام زارهم أحد أقاربهم البعيدين ، وكانت معه ابنته ، ورجا من الأم ان تنزل فتاته عندها حتى تتم دراستها فى أحد معاهد الفنون ، فأنزلتها الأم على الرحب والسعة .

ولم يمض أسبوعان على مجىء الفتاة حتى كان الزواج قد تم بينها وبين صاحبنا .. فقد جرفه حبها فلم يستطع عليها صبرا .. لقد قلب حياته من فحمة الى جمرة كما قال الشبح .

وأعجب ما فى الأمر ان الفتاة كانت كثيرة الميل الى ارتداء ذلك النوع من الملابس الذى كانت ترتديه الفتيات منذ قرون مضت .. ذلك النوع الذى كان الشبح يرتديه .

وما نظر اليها الفتى قط الا وتعجب من شدة شبهها بالفتاة الشفافة .. حتى أنه كان كثيرا ما يحتضنها لا لشيء الا ليتأكد من أنها حقيقة .

وفي ذات يوم كان والد الفتاة يشاهد الصور الزيتية المعلقة فى صالة الاستقبال ، فاستوقفت نظره احدى الصور .. ثم نادى الفتى وقال له ضاحكا وهو يشير الى الصورة :

– هذه هى صورة جدتى .. الا ترى أنها شديدة الشبه بزوجتك ؟

وحملق الفتى فى الصورة فقد كانت لنفس الشبح الجميل الذى زاره مرات عديدة والذى منعه من الزواج من خطيبته الأولى ..

★ ★ ★

صورة وروح

بدا لى أنها قد عزمت على شىء .. فقد أشارت الى بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملؤه الثقة والحزم : اياك أن تعدل عن البناء وأذكر جيدا أننا عندما نلتقى فى الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

حدثنى صاحبى قال :

كان ذلك على ما أذكر فى سنة ١٩٣٦ .. وكنت أقطن حينذاك فى احدى الضواحى .. وكنت أهوى التصوير .. وخرجت ذات يوم لالتقط بعض الصور .. فساقتنى قدماى الى جهة نائية على شاطىء النهر ، وجدت بها بضعة رجال يحفرون فى بقعة من الأرض قد خططت كان هناك شروعا فى اقامة بناء عليها .. ووجدت كهلا قد انتحى ناحية من المكان جلس على حجر وهو يرقب الرجال الذين أخذت معاولهم فى الارتفاع والهبوط .

وألقيت التحية .. فألقى الرجال معاولهم وردوا بأحسن منها .. ولكن الكهل لم يجب بكلمة .. بل لم يبد عليه انه قد أحس وجودى .. وأعجب من ذاك أننى أبصرت شفتيه تغلقان وتفتحان وسمعت منه همسا خفيفا .

وعلمت من أحد الرجال ان الكهل هو صاحب قطعة الأرض التى يحفرون فيها أساسا لبيت .. وأنه دائم التحدث الى نفسه وأن حديثه الى نفسه يشغله كثيرا عن الالتفات الى غيره . وأنه يقضى يومه جالسا على الحجر يرقبهم ، وقد شرد ذهنه وأخذ يتمتم لنفسه بين حين وآخر بكلمات غير مفهومة .

ونظرت الى الرجل فوجدته اقرب مايكون الى اولئك الذين تراهم يحملون المجامر أمام الجنازات .. بتلك البذلة الحائلة اللون ، البالية النسيج .. التى ضمت فى حناياها جسدا ضامرا ذاويا .. من ذلك النوع الذى قيل فيه «لو توكأت عليه لانهدم» أما طربوشه فقد انزلق من على رأسه وارتكز على أذنيه .. اذ لم يعترف برأسه كقاعدة فجاوزها الى أقرب مستقر .. وبدت عيناه غائرتين ذابلتين استبدل فيهما بالبياض صفرة مشوبة بحمرة .. وتهدل شاربه الأشيب فغطى تجاعيد فمه .

وعدت الى الدار وكدت انسى الرجل حتى حملتنى قدماى مرة أخرى بعد بضعة أيام الى نفس المكان ، فوجدت الرجال قد بدأوا فى البناء .. وبحثت عن الرجل فى الموضع الذى رأيته فيه فى المرة السابقة ، فلم أجده .. فيممت وجهى شطر الشاطىء ووقفت أرقب النهر وقد انعكست عليه أشعة الشمس فبدا منه بريق ذهبى عجيب .. وأغرتنى الوحدة والسكون باطالة التأمل .. حتى سمعت فجأة صوتا يتحدث .. فأخذت من الصوت اذ كنت أظن أنى وحيد فى ذلك المكان وتلفت يمنة ويسرة ، فاذا بى ألمح الرجل الكهل وقد اتكأ بظهره على شجرة ضخمة أخفت جسده الضامر عن عينى .. وسبح هو الآخر ببصره فى النهر وبدأ يحدث نفسه كما كان يفعل فى المرة السابقة .. ولكن صوته فى هذه المرة كان جليا واضحا ، وكان يبدو كأنه قد اشتبك فى جدال .. واستطعت أن أميز صوته بسهولة وهو يقول فى شىء من الحدة :

– ولكننى قلت لك انى لايمكننى الاستمرار فى هذا العمل المضنى !

وران السكون برهة كأن هناك شخصا خفيا يحاوره .. ثم سمعته يقول :

– أجل .. ولكن استمعى الى .

ثم خافت الرجل من صوته حتى لم أعد أسمعه ، وبدا لى من حركاته أنه يحاول اقناع من لاتريد أن تقتنع .. وشعرت بغيظ شديد .. ووجدتنى أهم بأن أصيح بالرجل أن يرفع صوته لولا اننى رأيته وقد شاع فى وجهه الغضب وأبصرته يدفع رقبته المعرورقة الى الأمام ويقول حانقا :

- لن استمع اليك بعد الآن .. كفانى ما مضى .

ومضت فترة صمت قصيرة .. ورأيت غضب الرجل ينفثىء فجأة ، وأبصرت رأسه يسقط على صدره كأنه طفل نادم مستغفر ثم سمعته يغمغم بصوت ملؤه الرفق والحنان :

- آسف يا عزيزتى .. سأفعل كل ما تريدين .

وهنا كان قد بلغ بى حب الاستطلاع أشده .. فعزمت على أن أستطلع سر الرجل بأية وسيلة .. وأخذت أقترب منه ثم حييته فى أدب ورقة .

وفزع الرجل فى بادىء الأمر اذ لم يتوقع أن يبصر أحدا بجواره ، ولكنى كسوت وجهى كل ما استطعت من مظاهر المودة والصداقة حتى أبعث الطمأنينة فى نفسه وقلت له مترفقا :

- هل يسمح سيدى أن التقط له صورة وهو يتأمل النهر ؟ .

ولم أكن أقصد بسؤالى أن أصوره فعلا . لأننى - أولا - لم أتوقع من رجل فى مثل هذا الشذوذ أن يقبل التصوير بسهولة .. وثانيا - لأنه لم يكن به من المزايا ما يجعلنى أتلهف على تصويره .. ولكنى أردت بسؤالى أن أجعل لى منفذا الى نفس الرجل حتى أستطيع استدراجه للحديث .

ولشدة دهشى رأيت الرجل - بعد أن تردد برهة قصيرة ، يبتسم فى سرور ، ثم أخذ يتحسس رباط رقبته ويصلح طربوشه فيثبته على احدى أذنيه ، ويمر بأصابعه على شاربه المتهدل ، ثم يشد سترته الى أسفل . ويقف وقفة المتأهب للتصوير قائلا أيعجبك هذا ؟

- جدا ..

وسرعان ما التقطت الصورة ، ثم أقبلت على الرجل أجاذبه أطراف الحديث ، ولم تكن هناك مشقة فى استدراج الرجل للحديث .. بل على النقيض .. لقد بدا لى أن الرجل قد اختزن فى صدره أحاديث أعوام ، وأن الفرصة قد سنحت له بمستمع طيب ليفرغ له كل ما فى جعبته .

وعلمت منه أنه كان موظفا بوزارة الأوقاف .. وانه قضى حياته قانعا بوظيفته المتواضعة بين أكداس الملفات ، وانه لم يطمع قط فى أكثر منها .. فقد كان مرتبها الضئيل يهيىء له الحياة الهادئة البسيطة التى تعود أن يحياها فى شقته المتواضعة بحى البغالة .

ولكن امرأته – كما بدا لى من حديثه – لم تكن مثله من ذلك النوع القانع الراضى ، بل كان بنفسها طموح ، وبروحها لهفة على حياة أفضل ، وعلى الخروج من تلك الشقة الرطبة المظلمة فى هذا الحى الخامل .

وأخيرا سنحت لها الفرصة التى تستطيع بها تحقيق أمنيتها وارضاء نفسها الطموح .. وبدا لها شعاع من نور يضىء حياتها القاتمة ، عندما علمت أن قريبا لها قد توفى فأورثها قطعة أرض فى احدى الضواحى .

أحست المرأة وقتذاك أن آمالها قد هبطت عن محيط الأوهام والأحلام .. وأنها قد باتت فى عداد الرغبات التى لا يصعب تحقيقها .

منذ ذلك اليوم صممت فى نفسها على أن توفر كل دانق يمكنها ادخاره حتى تستطيع فى النهاية أن تجمع مبلغا تشيد به بيتا على قطعة الأرض التى ورثتها .

ووصف لى الرجل تلك السنين الطويلة التى مرت به بعد ذلك ، ومبلغ ما كان يصيبه من ضيق وتبرم من ذلك الاقتصاد الذى أمعنت فيه المرأة ما وكيف كانت تمر بهما الأسابيع ، فلا يذوقون الا «الجبن» أو «الفول» كى تستطيع أن تجمع القروش من هنا ومن هناك .. وكيف حرمت عليه الذهاب الى المقهى الذى تعود أن يقضى فيه أوقات فراغه ، حتى تدخر الدريهمات التى يصرفها هناك .. وذكر لى كيف قاطعت صاحباتها حتى لا تظهر أمامهن بتلك الثياب الباهتة البالية التى لم تحاول أن تجددها منذ أن بدأت التوفير .

ثم رأيته يدفع يده فى جيبه ويخرج من محفظته الجلد صورة صغيرة قدمها الى قائلا :

– هاك صورتها .

وتأملت الصورة فوجدتها لامرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال .. اتشحت بشال أسود من الحرير ، ولم يكن بها كثير من فتنة أو أنوثة .. ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء ، وقوة العزيمة ، وأعدت الصورة الى الرجل وبعد برهة عاود حديثه قائلا :

– ولم يطل بنا الأمر كثيرا .. فقد استطعنا بعد بضع سنوات أن نجمع مبلغا من المال يكفى لأن نبدأ البناء على أن ندفع الباقى على عدة سنين .

وعثرنا أخيرا على المقاول الذى قبل أن يقوم بعملية البناء وتم بيننا الاتفاق .

وذات يوم ذهبنا فى صحبة الرجل لنريه الأرض ، وأصرت هى على الحضور معنا رغم ذلك التوعك الذى أصابها نتيجة برد خفيف ، وعرضت عليها أن تؤجر عربة تحملنا من محطة السكة الحديد الى قطعة الأرض ولكنها نظرت الى نظرتها الى مجنون وأصرت على أن نسير على الأقدام .

وعندما عدنا الى البيت .. كان التوعك الذى بها قد اشتد وانقلب ذلك البرد الخفيف فى يوم وليلة الى التهاب رئوى . ولا أطيل عليك الحديث فقد ماتت بعد بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة ثم أردف هامسا فى اهتمام :

– لقد كانت تقاوم الموت مقاومة شديدة لأنها لم تكن تريد أن تموت ، وظلت فى نضالها حتى لفظت آخر أنفاسها . وكنت أسمعها تردد من حين لآخر : «يا الهى .. اننى أريد البقاء» . ثم رأيتها تصمت فجأة ويبدو فى عينيها بريق عجيب .

وخيل الى انها قد أدركت وقتئذ أن لا فائدة من الاصرار على البقاء ، وأنها أحست أن الله قد اختارها بجواره ، وبدا لى أنها قد عزمت على شىء ..

فقد أشارت الى بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملوه الثقة والحزم : اياك أن تعدل عن البناء ، وأذكر جيدا أننا عندما نلتقى فى الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

وصمت الرجل ، ثم رأيته يربت على ساقى برفق ويرفع حاجبيه ويهز رأسه هزات خفيفة كأن فيه شيئا يربكه ، ويقول متعجبا :

– ولكن الشيء الذى لم تذكره لى وقتئذ ، هو أنها سترافقنى طيلة عملية البناء !

ونظرت الى الرجل في دهشة ، ولم أدر بالضبط ما يقصد بقوله .. ترى هل دفن المرأة فى قطعة الأرض .. أم هو يقصد أنها ترافقه بروحها ؟

واستمر الرجل فى حديثه قائلا :

– فى كل دقيقة .. بل فى كل ثانية.. أجدها بجوارى لاتفارقنى لحظة واحدة .. حتى الآن أراها قد وقفت خلفنا تنصت لحديثنا .

ووددت لو أدرت رأسي بسرعة الى الخلف لأتأكد من أنه ليس هناك من يقف وراءنا .. لكنى كنت أحس بشيء من الخوف جعلنى لا أحول بصرى عن الرجل الذى استطرد يقول :

– انا أعرف فيم تفكر .. فلا مراء فى انك تتهمنى بالجنون ، أو تظننى أتوهم رؤية الأشباح .

– أبدا .. أبدا .. كل ما فى الأمر أن لديك قوة تخيل عجيبة !

– قوة تخيل ؟ موظف يقضى أربعين سنة فى ظلمات وزارة الأوقاف تكون لديه قوة تخيل ؟ لا .. لا ياسيدى أنى أراها تماما كما كنت أراها فى الدار ، وأخاطبها وتخاطبنى .

لقد ضقت ذرعا بالبناء .. حتى لقد فقدت أعصابى منذ لحظات عندما انتابتنى نوبة من الغضب ، فأنبأتها أنى لن أستمر فى هذه العملية المرهقة ، وانى قانع بحى البغالة ، ولكنى رأيتها تبكي .. فندمت على ما فرط منى ، واعتذرت لها عن حماقتى .

والتفت خلفه قائلا :

- لا أظنك غاضبة على الآن يا حبيبتى ؟

وهنا أحسست أنى لم أعد أحتمل .. فقد شملنى خوف شديد من الرجل المعتوه وامرأته الموهومة .

وسادت بيننا فترة صمت كنت خلالها أحدق البصر فيما حولى .. وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع .

وغادرت الرجل دون ان التفت خلفى ، فقد كان بى خوف شديد .

وعدت الى الدار ولم أحاول بعد ذلك أن أطرق المكان أو أقابل الرجل .

والى هنا انتهت قصة الرجل .. أو على الأصح كادت تنتهى .. فقد بقى منها جزء قصير .. يتعلق بالصورة التى التقطتها له . فعندما انتهيت من تحميض (الفيلم) وطبعه .. رأيت شيئا عجيبا .

ان الرجل لم يكن وحيدا فى الصورة ، فقد كان بجواره امرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال ، قد اتشحت بشال من الحرير الأسود ، ولم يكن بالمرأة كثير من فتنة أو أنوثة ، ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء وقوة العزيمة !

★ ★ ★

معجزة كبرى

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد (سد خانة) ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره ، باحثا عنه فى الصيدليات التى وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم أجد له أثرا .

سيدى العزيز ترددت كثيرا ، قبل أن أكتب اليك . أولا لأنك لاتعرفنى ، وثانيا لأنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط مطلبى منك ، ورجائى من الكتابة اليك ، لأننى لست فى حاجة الى شىء .. حتى هذا العزاء الذى تعودت أن تهبه لقرائك المحزونين .. لست أرانى فى حاجة اليه ، فقد انصرم العمر ، فشفت الأيام قرحى وبرأت جرحى .. اللهم الا أثرا لا أظنه بزائل حتى أزول أنا وتزول الحياة .

ولكن شيئا واحدا هو الذى اتلهف عليه .. وهو تفسير لأمر أعيانى تفسيره .. تفسير عملى لايتعارض مع اعتقاداتنا فى هذه الحياة .. ولا يجعلها تتطاير من رؤوسنا فتذهب مع الريح .. وتتركنا حائرين بين الشك واليقين .. تفسير يقنع كهلا مثلى قد اشرف على الهزيع الأخير من عمره ، ولم تعد لديه القدرة على تعلم طرق جديدة للتفكير .. هل فهمت ياسيدى ؟

لنعد القهقرى الى أيام خلت وزمن ولى .. عندما كنت فى مقتبل العمر وفى أول عهده بالزواج .. أن مجرد الذكرى تبعث فى رأسى نشوة ، وفى جسدى هزة كأنها أغنية تطوف بأذنى فيخفق لها القلب ، أو شذى عطر ينفذ الى أنفى فيهفو له الفؤاد .. عندما أنجبنا طفلتنا الأولى .. «نادية» .. وعندما ظننا أن أخا سيتبعها أو أختا .. ولكن السنة مرت تلو السنة دون أن نرزق سواها ، ويخيل الى أن ذلك قد دفعنا الى الشغف بالطفلة وتدليلها الى حد «الاتلاف» .. أو هذا على الأقل ما يتهم به أبوان ملأتهما اللهفة على ابنة وحيدة .. ولكنى لم أك أفهم قط معنى أن «يتلف» الطفل أو كيف «يتلف» ، لأننى من نوع مرهف الحس .. لا أعتقد أن تلف الطفل يمكن أن يتأتى الا بضربة أو نهره أو ايلام نفسه أو تحطيم روحه أو حرمانه ، أو أرهابه .. أما بحبه ، أو الاسراف فى حبه .. فلا أظن .. بل اننى لا أفهم معنى أن يقال «اسراف فى الحب» .. بينما الحب لايمكن أن يكون الا اسرافا .. والا ما كان حبا .

اننا فعلا أحببناها أكثر مما نحب أى شىء آخر فى الحياة .. أكثر من نفسينا .. ولن أحاول أن أصفها لك .. فلا أظننى أستطيع أن أرسم فى ذهنك صورة صادقة عن عذوبتها وحلاوتها .. ولكن ثق ياسيدى بأنها كانت مخلوقا محبوبا ، ببراءتها ، وطهارتها وبتفكيرها الساذج ، ومطالبها التافهة .. بضحكاتها وبكائها .. ومرحها ولهوها .. بعينيها الخضراوين ، وشعرها الأصفر الملتف فى حلقات ذهبية .. بأنفها القصير الدقيق ، وشفتيها الرقيقتين .. كل شىء فيها كان جميلا محببا .

وأضحت الطفلة محور حياتنا .. وكنت اذ ذاك موظفا فى السكة الحديدية فى احدى بلدان الوجه البحرى ، وكنا نقطن بيتا صغيرا ذا حديقة غناء فياحة . وكانت حياتنا هادئة ناعمة . فلا أكاد أنتهى من العمل حتى أعود الى الدار .. وبى شوق الى كل ما فيها .. ويمر بنا الوقت وقد غمر ثلاثتنا فيض من السعادة .. نلهو بالطفلة وتلهو بنا .. أقص عليها قصصا عن «الفيل أبو زلومة» وعن «أبو طرطور» .. وتصحح هى أخطائى ان أخطأت .. وتذكرنى ان نسيت .. وتستفسر عن أشياء لم تفهمها بعد .. ثم تمتطى كتفى .. ونذهب

الى اللعب في الحديقة .. أية حياة هانئة كنت أحياها وقتذاك ! ما ذكرت سحابة واحدة خيمت في سمائنا .. ولا شاب صفونا كدر ولا شائبة .

كنت وقتذاك موظفا صغيرا .. ولكن مرتبي كان يفي بكل حاجاتنا .. بل كان يزيد حتى يفي بالكثير من الكماليات . ففي يوم الميلاد الرابع للطفلة أقبلت على الدار وفي يدى لفافة كبيرة .. وكانت قد تعودت ان تلقاني بلهفة وفرح .. وبسؤال يقفز على شفتيها «جبت لي ايه ؟» . ولذا فقد كنت دائما احضر شيئا .. أى شيء .. قطعة من «الشيكولاته» «لبان انجليزى» .. «مصاصة» .. أى شيء كان يرضيها .. ما دمت قد تذكرتها وأحضرته .. وفى ذلك اليوم أردت أن أفاجئها مفاجأة سارة .. فابتعت لها «عروسة» كبيرة تغمض عينيها حينما ترقد .. وابتعت لها فراشا كاملا مزركشا ، وكلفنى ذلك ما يقرب من الثلاثة جنيهات كنت قد استطعت أن أوفرها منذ بضعة أشهر استعدادا لهذا اليوم . ولاشك أنك تعرف ياسيدى قيمة الثلاثة جنيهات فى ذلك الزمن .. وقيمتها بالنسبة لمرتب موظف صغير مثلى .

كانت فرحة الطفلة «بالعروسة والفراش» فرحة أشعرتنى بأن الجنيهات الثلاثة لم تذهب سدى .. ثلاثة جنيهات ؟ .. ما أتفهها ! ان العالم كله لايساوى عندى فرحتها حينذاك .. لقد أمسكتها برفق . ثم ربتت عليها بحنان .. ووضعت فوقها الغطاء .. ثم قالت لى هامسة : «لندعها الآن تستريح .. فهى لاشك متعبة» .

ولم أكن أظن قط أن «العروسة» الجديدة - أو «سوسو» كما سمتها - ستشغلها الى هذا الحد .. وتكلفها كل هذا الاهتمام الجدى .. فقد اعتبرتها مخلوقا حيا .. فى حاجة الى كل ما تحتاجه هى .. وكانت ترقدها فى الليل بجوارها .. وكم كان يطربنى أن أرقبها .. وهى تتصرف مع اللعبة .. تماما كما تتصرف أمها معها .. مقلدة اياها فى كل شيء .. وفى كل كلمة .. تحملها على كتفها ، وتمثل كأنها تغسل لها وجهها ، وتغير ملابسها وتطعمها ، وعندما آوى فى الظهيرة الى الفراش كنت أبصرها وهى تشير اليها بسبابتها محذرة : «سوسو بابا نام .. اياك والبكاء» .

وفى ذات يوم سألتنى «نادية» أن أحضر لها فراشا آخر صغيرا .. فسألتها مداعبا : «فراشا وعروسه ؟» .. ولكنها هزت رأسها قائلة :

- لا .. لا .. فراشا فقط .

ثم اقتربت منى وهمست فى أذنى انها تريد الفراش للطفل الجديد «ابن سوسو» .

ولم أتمالك من الضحك .. وفى اليوم التالى أحضرت لها فراشا صغيرا .. فوضعته بجوار الأول .. وفى الصباح وجدتها تضع أصبعها على شفتيها لكيلا أحدث حركة توقظ «النونو» ثم سحبتنى من يدى حتى وقفنا أمام الفراش الصغير ورفعت الغطاء عنه بخفة ثم قالت بصوت خفيض : «انه بنت» وبعد أن ابديت اعجابى سألتها عن اسمها فأجابت انها ليست بحاجة الى اسم فهى مجرد «نونو» .

وكنا نظن أنها سرعان ماتنسى ذلك المخلوق الوهمى وتطالب باحضار طفلة صغيرة لتضعها فى الفراش الصغير بجوار «سوسو» ، ولكنها لم تفعل ، بل استمرت تعامله على أنه شىء ملموس توقظه وتدلله وتحميه تماما كما تفعل بأمه .

وفى ذات يوم - أظنه فى شهر سبتمبر - خيم علينا الظلام ونحن نلهو فى الحديقة ، وأحسسنا بالجو شيئا من الرطوبة ، فدخلنا الدار .. وفى الصباح التالى شكت الطفلة ألما خفيفا فى حلقها .. وبدت عليها تلك «الدعبلة» التى تبدو على الأطفال اذا غشيهم مرض أوهم .. واستمرت مستلقية فى الفراش . وبدا لى أن الأمر لايزيد على برد خفيف لايبعث على القلق ، اذ لم يكن بها أى ارتفاع فى درجة الحرارة .

ولم يدر بخلدنا قط أن الطفلة مريضة .. أو أن المسألة تستوجب استدعاء طبيب ، خاصة وأن التحسن بدا عليها فى نهاية اليوم عندما أخذت تستمع الى القصص التى أخذت أقصها عليها ، وتشاهد الرسوم التى رسمتها لها ، ولكن عندما أقبل المساء بدا عليها شىء من التعب وارتفعت حرارتها قليلا وتقايأت كوب اللبن الذى أعطيناها اياه ، وبدأت تشكو من ألم فى الصدر .

وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يدعو الى الفزع ، فقد كانت فى تمام صحتها ، وكانت تضحك عندما أحاول أضحاكها . ولولا ذلك الألم البسيط ، الذى كان يذهب ويجىء لما كان هناك ما تشكو منه . ولكن لم تمض فترة من الوقت حتى بدأت أحس تغييرا طرأ عليها ، ورأيت جفنيها يتثاقلان وخبا بريق عينيها .

وأصابنا الفزع .. وخيل الى أن قلبى يهوى فى جوفى .. وقلت لزوجتى : «ان نظراتها لا تعجبنى ، وسأذهب لاحضار الطبيب» ، وحتى حينذاك لم أكن أحس بعد أن المسألة قد بلغت دور الخطورة .

★ ★ ★

تصور ياسيدى بعد كل تلك السنين التى انصرمت والتى كانت كفيلة بأن تضع بيننا وبين الماضى جدارا سميكة من النسيان .. وبعد أربعين عاما تغير فيها كل شىء .. ما زلت أحس بقلبى يعصره الألم .. وبدمع عينى يراودها على الانهمار كلما تذكرت تلك الساعات القلائل التى قضيناها بعد أن حضر الطبيب .. وعندما تبينا من نظراته مدى ما فى المسألة من خطورة .

لا أكثر عليك القول ياسيدى .. لأنى ما قصدت بكتابتى اليك أن أحملك آلاما ، أدعو الله من قلبى الا يصاب بها انسان .. لقد ماتت الطفلة قبيل الفجر .. ولم أصدق أنها ماتت فى بادىء الأمر .. اذ كان يبدو لى موتها بعيدا .. ولم يستطع ذهنى المرهق المكدود أن يسلم بأنها ذهبت الى غير رجعة .. فهذا شىء لايمكن أن يكون حقيقة ، وحتى بعد أن رقدت فى جدثها وعدنا الى الدار الموحشة الصامتة لم نكن نصدق انها ماتت .. وقع اقدامها .. صوتها .. ضحكاتها .. مازلت أحس بكل ذلك يملأ الدار الخرساء .. ومازلت أتوقع بين آن وآخر أن أراها مقبلة على بلهفة واشتياق ، وعلى شفتيها سؤالها التقليدى الطريف : «جبت لى أيه ؟» .

وحتى يومنا هذا ما زالت تطاردنى مرارة الأسابيع والأشهر التى أعقبت موتها .. ماذا تستطيع أن تفعل كلمات العزاء بقلوب كليمة مجروحة .. وأنى لقطرات الدمع أن تطفىء نارا تستعر فى الجوانح وتتأجج بين الضلوع .

وبعد فترة نقلت الى القاهرة .. ثم مضى العام تلو العام ولم أعد بعد موظفا صغيرًا .. بل أصبحت ذا مرتب محترم .. وبعد أربع سنوات رزقت بابنتى الثانية «سامية» .. وسرعان ما نمت حتى أضحت طفلة جميلة كأختها الراحلة .. وان كان جمالها من نوع آخر .. نوع رقيق الجسد ، دقيق التقاطيع ، أسود العينين ، حالك الشعر .

وقد اتفقت وأمها على الا نذكر لها شيئا عن «نادية» ، معتقدين أن من الخير أن نبعد عنها أمثال تلك الحقائق الكريهة ، ولاشك أننا كنا مخطئين فان الموت ليس أكثر من نتيجة .. نتيجة طبيعية محتومة .. قد تكون آجلة أو عاجلة .. ولكنها لابد واقعة .. فلم نرتاع منها ومن التفكير فيها ؟ لاتؤاخذنى ياسيدى .. هذه فلسفة عقيمة .. لايمكن وضعها الا على أطراف الألسن .. أما فى قرارات النفوس فلا موضع لها .

وهكذا مرت الأيام والطفلة لاتشعر الا أنها أول من أنجبنا .. وعندما بلغت الرابعة وأقبل عيد ميلادها سألتنى أن أحضر لها عروسا تغمض عينيها وفراشا ترقدها فيه ، فأحضرت لها ما طلبت .. وخيل الى أن الأيام تعيد نفسها .. فقد أقبلت «سامية» على العروس تنومها وتدللها وتغنى لها .. تماما كما كانت تفعل أختها .. من قبل .

وبعد بضعة أيام وجدتها تسألنى أن أحضر لها عروسا أخرى .. ولست أدرى ما الذى جعلنى أسألها عما اذا كانت تقصد فراشا آخر ، ولكنها هزت رأسها وأفهمتنى أنها تريد عروسا وفراشها حتى تؤنس عروستها الأولى .

ولم أكن أستطيع أن أرفض لها طلبا فأحضرت عروسا وفراشا آخرين وضعتهما بجانب الأولين .. ولم تمض بضعة أيام حتى لاحظت أنها بدأت تضع دميتيها فى فراش واحد وتترك الفراش الآخر خاليا .. وتكرر منها ذلك .. فسألتها ضاحكا عما يدعوها لذلك الأمر ، فأوضحت لى أنها تعد الفراش للطفل الذى يوشك أن يولد .. وفى الصباح التالى وجدتها تضع سبابتها على شفتيها آمرة اياى الا أحدث ضجة لئلا أوقظ «النونو» ، ثم سحبتنى من يدى وأوقفتنى أمام الفراش الصغير الخالى وأزاحت الستار هامسة : «انه بنت» .

أية ذكريات هاجعة أيقظتها الطفلة فى قلبى ، وأى أحساس بالخوف سرى وقتذاك فى نفسى .. لقد صمت برهة ثم قلت لها فى رفق : «جميلة جدا يا حبيبتى .. ما اسمها ؟» . واجابتنى الطفلة بسرعة دون كثير تفكير : «نادية .. اليس اسما جميلا» ولم أجب ، فقد كنت فى حال لاتسمح لى بالكلام .. لقد قلت لك انى رجل مرهف الحس .. وكان الأمر أكثر مما أتوقع ومما أحتمل .

ومضت بضعة أشهر ثم مرضت الطفلة .. وبعد دقائق معدودات كان الطبيب بجوارها .. وقد أمرنا بألا نتركها تغادر الفراش وأن نعطيها من اللبن قدر ما تستطيع أن تشرب وأخبرنا أنه سينبئنا بالنتيجة بعد التحليل ، وفى المساء أخبرنا أنها مصابة بالدفتريا .

وسأمر عابرا بالأيام الثقيلة التى تلت ذلك .. فلست أنكر الكثير عما حدث بها .. اذ كان يخيل لى أنى كنت أعيش وسط ضباب كثيف اشاهد تلك المعركة التى كانت تدور بين ابنتى وبين الموت .. وأنا مكتوف اليدين لا أملك سوى الصبر والانتظار .. حتى كان ذات يوم بدا لى فيه أن الطفلة العزيزة على وشك أن تخسر المعركة .. وحضر الطبيب فى ذلك المساء .. وبعد أن مكث ربع ساعة انتحى بى جانبا وأنبأنى أنه لم يعد فى وسعه شىء .. وأننى يجب أن أتوقع الأسوأ . ثم كتب لى اسم دواء وطلب منى احضاره قائلا : «انه مجرد محاولة قد تعيد الينا بعض الأمل» . وانصرف على أن يعود الينا قبل منتصف الليل .. وأدركت وقتئذ أن الطفلة قد حانت نهايتها .

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد «سد خانة» ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره .. باحثا عنه فى الصيدليات التى وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم أجد له أثرا .

وأخيرا عدت أدراجى الى الدار وجلست وزوجتى فى صمت هنيهة وأخرى كنا نتسلل على أطراف أصابعنا لنرقب طفلتنا فى معركتها الخاسرة .

وعندما دقت العاشرة تسللنا الى الحجرة ، ونظرنا الى الفراش وكانت الصغيرة تبدو نائمة على جنبها الأيمن وقد ثنت ركبتيها قليلا .. وفجأة رأينا شيئا ! لم أكن وحدى الذى رأيته .. ولا كانت زوجتى وحدها التى رأته .. لقد رأيناه كلانا .. رأيناه بأعيننا كما تبصر أصابعك فى وضح النهار .. لا وهما .. ولا شبحا .. لقد رأينا بجوار الطفلة الراقدة طفلة أخرى قد أحاطتها بذراعها كأنما تحاول أن تقيها الشر ، وتدرأ عنها غائلة السوء . وكانت الطفلة هى نادية ! أجل لقد كانت نادية ترقد بجوار سامية وكلتاهما واضحة وضوح الأخرى .. وكانتا تبدوان كالنائمتين .. ووقفنا نحملق فيهما وكأننا فى حلم .. وأخيرا اختفت نادية فجأة كما ظهرت .. ونقدمنا بخطى وئيدة ونحسسنا «سامية» فاذا بها نائمة .

ونظرت الى المنضدة فوجدت عليها زجاجة لم تكن موجودة من قبل .. ورفعتها فى يدى فاذا بها الدواء الذى أشار به الطبيب .

قد تتهمنى ياسيدى بأننى لم أر فى الفراش سوى شبح صورته لى الأوهام .. ولكن ما رأيك فى زجاجة الدواء ؟

وعندما حضر الطبيب مرة أخرى قبيل منتصف الليل وانحنى عليها أبصرت فى وجهه دهشة شديدة .

وبعد أن فحصها برهة استدار وقال فى هدوء وهو يحاول أن يخفى شيئا من حيرته : «هذه معجزة من السماء .. انها الآن بخير .. أعتقد أن الخطر قد زال» .

وكان ذلك منذ زمن بعيد وقد ماتت زوجتى منذ بضع سنين ، وتزوجت سامية ، وأنجبت طفلة خضراء العينين ، ذهبية الشعر ، هى حفيدتى «نادية» لشد ما أراها تشبه نادية الأولى !

هل عندك ياسيدى تفسير لكل هذه الأمور ؟ تفسير يقبله عقلى الكهل .. لا أظن ! فأغلب ظنى أن هناك اشياء فى هذه الحياة لانستطيع تفسيرها .. وليس علينا الا أن نقبلها على علاتها .

الحاج على

خيل الى انه لم يكن هناك من سمع الصوت سواى ، وبدأت أشعر بالخوف والحرج وتناولت «مبسم الشيشة» أشد منها نفسا استعين به على تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لانسان أن يراه

الحاج «على أبو سريع» أو «الحاجعلى» كما تعودنا أن نسميه مدغمين الكلمتين ببعضهما كأنهما كلمة واحدة . هو حاج رسمى .. حصل على لقبه بتأدية فريضة الحج فعلا ، وما زلت أذكر كيف استقبل عند عودته من «حجه المبرور» .. استقبال الغزاة الفاتحين .. «بالطبل والمزمار والنقرزان» وقد اضطجع بجسمه الهائل الضخم فى عربة «حنطور» زينت بالورود وسعف النخل كأنه «مطاهر» .. وعلى باب داره علقت الاعلام الخضر ، وفرشت الأرض بالرمل الأصفر .

ولم أر هناك فارقا كبيرا بين «الحاج على» قبل الحج وبعده .. فمن ناحية اللقب لم يزد عليه شيئا .. فقد تعودنا أن نخلعه عليه قبل أن يحج .. فهو حاصل عليه «من منازلهم» أو هو حاج «عرفى» .. أما من ناحية المظهر ، فكل ما زاد عليه من «سبحة» يحرك حباتها بين أصابعه .. «ودبلة» فضية حشرها فى

بنصره السمين .. أما من ناحية المخبر أو الجوهر ، فلم يتغير منه شيء البتة . فهو هو .. نصاب ، محتال ، كذاب ، خداع .

وهو لاينسى «الفرض» ! ولكن الفرض عنده لايتعدى ركوع وسجود وتحريك شفاه بكلام تعود اللسان نطقه دون أن يعيه الذهن أو يفهمه .. ولانعنى بذلك أنه يؤدى الصلاة تظاهرا ، بل عن يقين واعتقاد واقتناع بأن هذا هو واجبه نحو الله .. وماذا يطلب منه أكثر من الصلاة والصوم وحج البيت ؟

هذا هو واجبه نحو الله ، ولقد قام به خير قيام .. أما واجبه نحو عباد الله ، فهو يعتقد أنه شيء آخر لا صلة له البتة بواجبه نحو الله ، ولذلك يحرص على الا يخلط بينهما .. وفلسفته فى هذا أن «الشغل شغل» ، وأن «أكل العيش يحب الحداقة» . ! وأكل العيش يعنى لديه ابتزاز أقصى ما يمكن ابتزازه من أموال عباد الله .. أما «الحداقة» فهى عنده وسيلة واسعة مطاطة ، تستطيع أن تحوى كل ما يخطر على البال من ضروب المكر والدهاء والنصب ، والاحتيال .

كان هذا هو مذهب «الحاجعلى» قبل الحج لايخلط أبدا بين الله وعباد الله .. ! ويعتقد اعتقادا راسخا .. أن الله راض عنه كل الرضا .. أما عباد الله .. فبينه وبينهم حساب ، ليس لأمور الدين به شأن ، فهى مسألة «شطارة وحداقة» .

ولقد ظل مذهبه كما هو ، لم يغير فيه الحج شيئا .. بل لقد زاده تمسكا به خاصة وأنه يعتقد أن حجة لبيت الله قد رفع شأنه عند الله وزاد من رضى الله عليه ، وغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر ، ولذلك فهو مقبل على عباد الله ولديه من الغفران رصيد كبير ، ويستطيع اعتمادا على هذا الرصيد أن يفعل بهم ما يشاء وأن يغشهم ، ويحتال عليهم ، دون أن يخشى غضب الله . هذا هو رأى الحاج فى واجبه نحو الله وواجبه نحو عباد الله . أما رأيه فى الواجب الثالث ، واجبه نحو نفسه .. فقد كان لايحب أن يناقشه فيه أحد .. فقد كان لابد له أن يعطى نفسه حقها .. من الحشيش .. ومن النساء .

و «الحاجعلى» رجل خفيف الدم كغيره من «السمان» الذين يعوضهم الله عن الثقل فى أجسامهم خفة فى دمهم .. فهو سريع النكتة .. حاضر البديهة .. حلو الفكاهة .. ولست أشك فى أن هذا هو السبب الذى جعل عباد الله يغفرون له ما يرتكبه معهم من غش ونصب ، وفى الوقت نفسه يقبلون عليه وعلى بضائعه ، حتى ازدحم بهم حانوته ، رغم تأكدهم أنه «مغلوانى» وأنه من الغشاشين المخادعين .. «المطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون» .

كان الرجل تاجر (ياميش) بشارع بين الصورين .. يزخر دكانه بغرارات الجوز واللوز والبندق .. ولفات قمر الدين وصناديق التين .. وزجاجات الشربات ، وعلب الحلاوة الطحينية والملبن .. وصفائح الملبس ، وكان يتخذ مركزه فى وسط الحانوت على مسطبة مكونة من أربعة صناديق متجاورة غطى سطحها بحصير وتربع فوقه بجسده السمين المنتفخ وقد تدلى «كرشه» أمامه كأنه شىء منفصل عنه .. وانبسط على جسده قفطان حريرى مخطط كشف ذيله عن جزء من ساقيه الضخمتين ، كأن بهما داء الفيل .. وقد التف حول سمانتيهما «حمالة الشراب» وبدأ طرف حذائه الأصفر ذى الرقبة الطويلة واللاستك يطل من تحت أكداس اللحم المحملة فوقه ، فاذا صعدنا البصر الى أعلى وجدنا ، الحزام الكشميرى وقد لف حول محيط الكرة الأرضية .. لا تكاد تبدو له بداية ولا نهاية . فاذا تجاوزنا الحزام صادفنا صدر الرجل «المتختخ» كأنه صدر امرأة بدينة وقد تهدل فوقه شىء يبدو كأنه كرش آخر .

فاذا أمعنا البصر فى ذلك الشىء الذى ظنناه كرشا .. اتضح لنا أنه بداية ذقن أو «لغد» تعلوه ذقن الرجل الأصلية وقد توسطها طابع الحسن ، أو قل طابع القبح ، وفوق الذقنين : الذقن السفلى والذقن العليا شفتيه الغليظتين ، وقد وضع بينهما مبسم الشيشة تندفع خلالها أنفاس الرجل كأنها أنفاس الوابور فتحدث فى الشيشة (كركبة) و (بقللة) .

فاذا تجاوزنا الفم صادفنا أنفا يبدو صغيرا نسبيا .. بجوار كتلتى اللحم اللتين يتكون منهما خدا الرجل ، أمّا العينان فلست ادرى كيف كان الرجل

يبصر بهما من فرط ضيقهما ، فهما تبدو أن فى وجهه كأنهما ثقبان .

وأخيرا تبدو رأس الرجل صلعاء جرداء .. تمتد اليها يده بين آونه وأخرى بالمنديل المحلاوى لتجفف قطرات العرق التى لاتفتأ تتصبب منها ، بصرف النظر عن حرارة الجو أو برودته !

و «الحاجعلى» فى جلسته هذه يفعل كل شىء .. يبيع ويشترى ويشرب الشيشة ، ويلقى النكات والمغازلات .. فلسانه لايكف عن الحركة بين شدقيه .. وسيل الحديث لاينقطع عن التدفق .. ولو حاولنا أن نسجل له حديثه فى لحظة من اللحظات على سبيل (العينة) لما وجدنا فيها أكثر مما يلى :

«ياميت حلاوة» .. «ياميت ندامة على اللى حب ولا طالشى» «أبوك .. قول اشمعنى .. يمسكوه بورقة» .. «يانور العيون آنست» .. «انتى يابت يا اللى زى القشطة» ..

وقد تأخذه الحماسة فيصفق بيده ، وقد يتملكه الطرب فيندفع فى الرقص وهو جالس على مصطبته يحرك كرشه ويهز كتفيه ويتمايل ذات اليمين وذات اليسار .

فاذا ما أذن المؤذن بالصلاة هبط من على مصطبته صائحا بقوله المأثور «ساعة لقلبك وساعة لربك» ، ثم يعطى لربه نصيبه من الركعات والسجدات .

هذا هو «الحاج على» ، المرح المهزار .. رجل زبائنه من غواة الضحك .. يضحكهم ويضحك عليهم ، ويغتفرون له غشه وخداعه من أجل خفة دمه .. !

وكنت للرجل صديقا حميما .. فقد كان يقطن بجوارنا فى درب الجماميز ، وكنا كثيرا ما نقضى سهرتنا سويا فى مقهى «عكاشه» على ناصية الشارع نلهو بلعب الطاولة والتدخين والسمر وحيث يتناول هو «فصا» أو «فصين» يزن بهما رأسه ..

ومرت بى فترة من الوقت شغلت خلالها عن رؤية الرجل حتى كانت ذات ليلة ذهبت الى المقهى لأقضى السهرة معه ، فلم أجده وسألت عنه فعلمت أن به وعكة ، وأنه راقد فى داره .. ورأيت الواجب يحتم على أن أزور الحاج ، وأطمئن عليه ، ولم يكن الأمر يكلفنى كثير مشقة ، فقد كانت دار الرجل على قيد خطوات من المقهى .

وتوجهت الى الدار ، وقرعت الباب «بالسقاطه» الحديدية المدلاة عليه ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى فتح الباب ، ووجدت أمامى خادما يسألنى عما أريد ..

ولفت نظرى فى الخادم جلبابه .. فقد وجدته من قماش مخطط خطوطا حمراء وخضراء .. كأنه احدى فانلات «كرة القدم» .

ولم آبه كثيرا لجلباب الخادم .. رغم غرابة منظره ، لأنه خادم ولا حرج عليه فى أن يلبس ما يشاء ، وأجبته على سؤاله بأننى أريد الحاجعلى . فعاد يسأل :

– نقول له مين ؟

وذكرت له اسمى فاختفى ، وعاد بعد برهة ليقول :

– اتفضل ..

وتفضلت ، ودخلت الى الصالة ، فوجدت ما يقرب من السبعة أطفال ، ما بين بنين وبنات ، تتراوح أعمارهم بين الثانية والثانية عشرة وقفوا فى الصالة يتطلعون بأبصارهم الى .

وتملكتنى من رؤيتهم الدهشة ، لا لكثرة عددهم ، فقد كنت أعلم أن لدى الحاجعلى من الأولاد ما يربو على هذا العدد ولكن الذى أدهشنى هو أنى وجدتهم جميعا البنات منهم والبنين قد ارتدوا جلابيب من نفس القماش الأحمر والأخضر المخطط الذى يرتديه الخادم .

وسرت فى طريقى متجاوزا «تيم الكرة» الذى يتطلع ببصره الى .. واتجهت الى حجرة الاستقبال حيث قادنى الخادم .

لا .. هذا كثير ! .. لابد أن أهل الدار قد أصيبوا بلوثة !

من يصدق أننى وجدت بياضات الأرائك والكراسى من نفس القماش ؟

ودخلت على «الحاجعلى» ، فاذا بى أجده مستلقيا على الفراش وقد تكور كرشه وبدا كأنه قبة جامع .. لا فرق بينهما سوى أن قبة الجامع بيضاء ، أما كرش «الحاجعلى» فقد كان مخططا بخطوط حمراء وخضراء .

أجل ، فقد كان الرجل نفسه يرتدى جلبابا من القماش اياه !

وقلت للحاج :

- لابأس عليك يا حاج ، انت انكسرت من الماتش ؟ !

وفهم الرجل ما أعنيه ، وأنى أقصد «التريقه» على جلبابه فأجاب مبتسما :

- اجلس .. أنك لم تر البقية بعد ..

- هل ما زالت هناك بقية ! ؟

وهز رأسه ببساطة وأجاب بالايجاب ..

ثم رفع ذيل جلبابه قليلا وكشف عن صدره فوجدته يرتدى قميصا وسروالا من نفس القماش .. !

واندفعت أقهقه ، والرجل ينظر الى فى استكانة ، حتى تمالكت نفسى وسألته :

- ايه الحكاية .. ؟ عليكو عفريت اسمه «التيتش» ؟

وهز الرجل رأسه بالنفى فعدت أسأله فى دهش :

- أمال ايه ؟

فأجابنى :

- عسى أن يكون الآن مستريحا فى قبره ! .

- من هو ؟

- صاحب القماش ..

وازدادت حيرتى ، وعدت اتساءل عن حقيقة المسألة هل هو «ندر» من «الحاجعلى» أن يلبس هذا القماش اذا ما توفى صاحبه ؟ أم أن هناك «أسياد» يركبون الرجل وأن «الكودية» قد أشارت عليه بلبس هذه الثياب لمحاولة ارضائهم ؟

ولكن «الحاج» عاد يهز رأسه بالنفى ، ثم صمت برهة وبدا يقص على حقيقة الأمر قائلا :

– ياسيدى .. المسألة بسيطة .. ذهبت منذ بضعة أيام لأقضى سهرتى فى المقهى ، واتخذت مجلسى على «الدكة اياها» التى تعودت أن أجلس عليها ، وطلبت من «دقدق» الشيشة ، ووضعت فيها الدخان «والذى منه» ولم أكد أشد منها نفسا أو نفسين حتى حضر المعلم «بطنجها» كعادته .. ثم قال : «السلام عليكم» .. «السلام عليكم» .. «اتفضل يامعلم» .. قعد المعلم .. «تلعب عشرة .. يا حاجعلى» .. «ألعب .. ما ألعبش ليه .. هو انت صغير !» .. وصفق المعلم «بطنجها» وطلب من «دقدق» أن يحضر للطاولة .

وبدأنا اللعب .. «شيش جهار» .. «شيش ياك» .. «معلهش يا زهر» .

وحمى اللعب ، فتركت الشيشة جانبا .. وأقبلت على الزهر .

وهنا حدث أمر عجيب .. فرغم أننى كنت أجلس وحدى على «الدكة» .. ورغم انهما كى الشديد فى اللعب .. فقد بدأت أحس أن هناك شخصا يجلس بجوارى .. شخصا أستطيع أن أراه بطرف عينى ، وأنا منصرف الى الطاولة .

وحولت بصرى فجأة لأرى هذا الشخص الذى جلس بجوارى ولكنى لم أجد أحدا ، فعدت الى الانهماك فى اللعب ، ومع ذلك فقد استمر بى الاحساس بأن هناك شخصا يجلس بجوارى وأنى أستطيع أن المحه بطرف عينى .. واستمر هذا الاحساس متسلطا على حتى حضر المعلم «رجب» واقترب ليجلس بجانبى ، وهممت بأن أصيح به محذرا حتى لايجلس على الرجل الذى أراه بجوارى ، ولكنى خشيت أن أكون واهما .. فيتهموننى بالجنون .

وعدت الى اللعب وأنا أحس قلقا ، فقد اعتقدت اعتقادا جازما بأن المعلم «رجب» يجلس على حجر الرجل الذى جلس على «الدكة» بجوارى ، وأن الرجل لاشك فى ضيق شديد .

وقذفت بالزهر ، وقلت : «شيش ياك» .. وتمهلت برهة افكر فى كيفية تحريك الحجارة . ثم هممت بأن أرفع حجرا من احدى الخانات عندما سمعت صوتا يقول لى : «سيب ده واحبس فى الياك يا غبى» .

وتملكنى الدهش فقد كان الصوت غريبا عنى ، لم يكن صوت «بطنجها» ولا «رجب» ، بل صوتا آخر ، وأحسست بالغضب وهم دمى بأن يفور ، لولا أننى وجدت أن اللعبة التى أشار بها على الصوت هى اللعبة «الصح» فلم أجد بدا من احتمال الاهانة وتنفيذ اللعبة .

وخيل الى أنه لم يكن هناك من سمع الصوت سواى ، وبدأت أشعر بالخوف ، والحرج ، وتناولت «مبسم الشيشة» أشد منها نفسا استعين به على تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لانسان أن يراه .

لقد نفثت الدخان من فمى فلم يتصاعد فى الهواء ، بل أخذ يتكتل ويتجسد حتى ظهر من خلاله صاحب الصوت .

أجل لقد رأيت أخيرا ذلك الرجل الذى كان يجلس بجوارى وقد وقف ينظر الى الطاولة مرتديا جلبابا طويلا وطربوشا .. والتفت حولى خلسة أرقب وجوه الموجودين وأرى أثر ظهور الرجل عليهم ، فاتضح لى أنهم لم يميزوه ، وأنى أنا وحدى الذى رأيته .

وبدأ الرجل ، أو قل الشبح ، يرشدنى فى كل لعبة ، «فك الجوهار باحمار» .. «أحبس فى الدو ياتيس» «سيب الحجر ده يا طور» . لقد كان الشبح قليل الأدب بعض الشىء ولكنى احتملته فى سبيل نصائحه .

وكيف لا أحتمله ! وقد انتهى بى الأمر الى أن أغلب المعلم «بطنجها» أربع عشرات ، وأنا الذى لم أغلبه فى حياتى مرة واحدة .. حتى كاد الرجل أن يصاب «بنقطة» .

وأخذ الناس ينصرفون من المقهى الواحد تلو الآخر حتى «صفصفت» على وعلى صاحبى الشبح .

وجلس الشبح بجوارى وهممت بأن اطلب له شايا أو قهوة ولكنه أفهمنى أن الأرواح لاتستطيع الأكل أو الشرب .. وبدأنا فى «الدردشة» والحديث عن هزيمة «بطنجها» التى لم يسمح التاريخ بمثلها .

ولاحظت على الشبح دلائل هم وعلامات ضيق وقلق ، فسألته عما به فهز رأسه قائلا : «لاشىء» ، ولكنى الححت عليه فراح الشبح يسرد حكايته قائلا :

— ان مصيبتى كبرى لأن روحى معلقة بين السماء والأرض فلا أنا حى أسعى وأعيش مع الأحياء ، ولا أنا ميت فتصعد روحى الى السماء مع بقية الأرواح !

ونظرت اليه فى دهش وسألته كيف يمكن أن يحدث هذا ! فأجاب :

-- ان قصتى تبدأ منذ عشرين عاما عندما كنت أعمل مع أبى فى تجارته فى الغورية ، وكنا نتجر فى الأقمشة ، وفى يوم نحس اصابنا سوء الحظ فضاعت علينا صفقة كبيرة ، واتهمنى أبى بأنى أنا الذى أضعتها ، وانى خائب لا أصلح للتجارة ، وأنى سأعيش طول عمرى عالة عليه .

وأثارنى قوله ، واشتد بيننا النقاش وقلت له أنه هو الخائب وانه يفسد بتدخله معظم الصفقات ، وأنى لو كنت وحدى لأريته كيف تكون التجارة .

واندفعت فى ثورتى الى بعض أثواب من القماش فحملتها على كتفى وقلت له انى سأسرح بالأثواب وسأريه كيف يكون البيع ، وأقسمت ايمانا مغلظة انى لن أعود حتى أبيعها .. وأن تحل لعنة الله على فلا يهدأ جسدى فى أرض أو تستقر روحى فى سماء حتى أبيع آخر قطعة منها .

ولكنى لم أكد أغادر الحانوت وأسير فى الطريق بضع خطوات وأنا أحمل الأثواب حتى دهمتنى عربة فقتلت لساعتى .

وحملني رفاقي الى القبر وسط النحيب والبكاء وانتظرت أن تصعد روحي الى السماء ، ولكنها لم تصعد ! فلقد حلت لي اللعنة ووجدت نفسي أتجول في الطرقات وأنا أحمل الأثواب أحاول بيعها فلا يراني أحد ولا يحس بي انسان .. عشرون عاما وأنا أهيم على وجهي في الطرقات محاولا بيع الأقمشة دون جدوى . وأخيرا عثرت على أول شخص استطاع سماعي ورؤيتي وهو انت .. ان في يدك خلاصي ، وكل ما أريده منك هو أن تبتاع مني الأقمشة ان سعرها رخيص جدا بالنسبة لاسعار هذه الأيام .. فهي «بالتراب» .. ان الثوب لايزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات .

وأخذت أفكر في قول الشبح فرأيت أني استطيع أن أصيب عصفورين بحجر . اذ أستطيع بشراء الأثواب أن أنقذ روح الرجل .. ثم ان الصفقة نفسها صفقة هائلة فمن ذا الذي يستطيع أن يشترى الآن قماشا بأسعار ما قبل الحرب .

ولم أتردد كثيرا ودسست النقود في يد الشبح وسرعان ما سلمني «الأثواب» الثلاثة .

لاتقل أنني كنت واهما ، وأن ما رأيته لم يكن سوى أضغاث أحلام .. فلا أظن هناك دليلا على أن الأمر كان حقيقة واضحة اكثر من هاته الجلاليب التي يرتديها كل من في الدار .

وانتهى «الحاجعلي» من قصته ، وأخذت أفكر جيدا .. وتذكرت رجلا عرض على ذات ليلة عينة من قماش لديه منه بضعة أثواب بسعر رخيص وتذكرت أن عينة القماش لم تكن تختلف كثيرا عن هذا القماش .. ولم أشك وقتذاك ان القماش الذي لدى الرجل مسروق ، وأنه يبيعه خفية ولذلك أعرضت عنه .

ترى هل كان الرجل شبحا ، أم أن «الحاجعلي» الذي خدع الناس جميعا قد استطاع الرجل أن يخدعه أخيرا فجعله «يطب» ويبتاع الثلاثة أثواب المسروقة ! .

علم ذلك عند ربي ، وعند «التعميرة» التي كان «الحاج» يشد منها نفسا بعد نفس .

حياة مزدوجة

... فنظرت أمامى فتملكنى دهش شديد لقد وجدت تغييرا كاملا فى كل ما يحيط بى ، وتبدل ما كنت أبصره أمامى تبديلا تاما .. انى لم أجد نفسى فى مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

ما الروح وما الحياة .. وما الموت .. وما الدنيا .. وما الآخرة .. وما الزمن ؟ أهو ذلك الشيء الذى يبدو لنا كسيل دائم التدفق ينبع من المستقبل المجهول ، ويجرى فى وهاد الحاضر الذى نعيش فيه .. ثم يصب فى الماضى الخفى ليذهب الى غير عودة أو أن أقسام الزمن الثلاثة : المستقبل والحاضر والماضى يمكن تشبيهها بأشياء مجسدة ، ويمكنها التحرك فى أى اتجاه كما يتحرك أى كائن ملموس .. فأى حدث من أحداث الحياة بأوضاعه الثلاث : مستقبله ، وماضيه ، وحاضره .. يمكن أن يتحرك فى أى اتجاه فى محيط الزمن .

أواضح قولى .. أم ترانى لا أحسن التعبير ؟

لكى أوضح أكثر .. هل يمكن للماضى أن يصبح حاضر وللحاضر أن يصبح مستقبلا ؟ .. لاتتعجلوا الرد فتقولون : لا .. لانى أستطيع أن أؤكد أن ذلك شيء دائم الحدوث .

وفيما لا تعللون الاحلام .. بم تعللون الفترة التى يحياها النائم فى ماضيه ؟ وبم تعللون تلك الاحلام التي تنبئنا عن المستقبل والتى تعرض علينا في نومنا .. وهو حاضر .. أحداث لن تتخذ مكانها فى ميدان الزمن الا بعد أيام أو أشهر .

اليس هذا هو تحرك عكسى للأحداث فى محيط الزمن من المستقبل الى الحاضر ، ومن الحاضر الى الماضى .

هذا شيء دائم الحدوث فى الأحلام .. ليس فيه ما يثير الدهشة ، ولكن مارأيكم اذا ما حدث هذا فى اليقظة ، فعاش الانسان فترة من الماضى وهو يقظان .

أمر عجيب .. أعيانى تفسيره ! .. فقد حدث لصاحب لى كان يحيا حياتين : حياة حاضرة ، وحياة ماضية .

اليكم قصته ، سأسردها كما هى .. ان ذهنى البشرى اعجز من أن يكشف غوامضها أو يجد لها تعليلا .

وقع النبأ على وقع الصاعقة .. فما خطر لى على بال قط أن صاحبى «توفيق المهندس» يمكن أن يقدم على جريمة قتل ! . ولست أشك – اذا ما وصفته لكم كما عرفته منذ عشرات السنين – أن الدهشة ستتملككم ، كما تملكتنى ، وأنكم ستتساءلون معى .. كيف أقدم على ارتكابها ؟ وتحت أية ظروف ؟

هو انسان عاقل متزن ، أميل إلى الصمت ، مسالم بطبيعته يصعب عليك أن تثيره ، أو قل يستحيل اثارته أو اغضابه .. فما رأيته قط غاضبا أو ثائرا .. بل يوافقك على كل ما تقول نجنبا منه للنقاش والحديث .. اذا سألته أجابك بقدر ما يمكن من الاختصار .. ان لم يكن بهزة من رأسه .

عرفته خلال الطفولة والصبا والشباب .. فلم أجده مرة واحدة يخرج من حلمه وهدوئه وصمته .. فقد كانت تلك هى طريقة خلقه وتكوينه .. ولم تكن شيئا مكتسبا من السن أو التجربة .. أو نتيجة لصدمة من صدمات الحياة .

عشرون سنة .. لم أفارقه خلالها ، وهو هو ، ما أغضبته غباوة خادم .. أو اهانة رئيس ، ولا ضاق بمزحة ثقيل أو ثرثرة ماجن .. بل تعينه سعة صدره على أن يلقى الحياة وسخافاتها بابتسامة هادئة ونفس قريرة .

تصوروا بعد كل ما أعرفه عنه .. أسمع فجأة أنه قد ارتكب جريمة قتل ! وقتل من ؟ خادمه العجوز «عم محمد» الرجل الطيب الهادىء .. المخلص الأمين .. الذى اصطحبه منذ أن حضر من بلدته الى القاهرة للدراسة ، والذى أمضى السنين الطويلة فى خدمته دون أن أسمعه يشكو منه قط .. بل كان أشبه بالأب ، والأم ، والزوجة ، وكان يقوم له بكل ما يلزمه ويقضى كل حوائجه .

لقد كان القتل آخر ما يمكن أن ينتظر من صاحبى .. ومع ذلك فقد تجبر الظروف أى انسان مهما بلغ من الهدوء والاتزان على أن يقدم على القتل .. قتل لص هاجمه فى الليل وارغمه على أن يرد العدوان عن نفسه بقتله .. أو قتل فى ثورة غضب لشرف مثلوم .. أو أى ظرف من الظروف الطارئة التى قد تؤدى بنا جميعا الى ارتكاب القتل .

أقول ان العذر قد يلتمس لصاحبى المتزن العاقل لو انه أقدم على جريمة قتل من هذا النوع .. الذى لاتجدى فى دفعه حكمة ولا عقل .. ولكن أى عذر هناك .. فى أن يقدم على قتل الخادم العجوز المسكين .

ولقد بدا لى فى أول الأمر .. أن الحادث قد يكون فيه سوء لهم أو التباس . وأن صاحبى قد يكون بريئا من كل ما اتهم به . ولكنى عندما عرفت تفاصيل الحادث أدركت أن الأدلة كلها تكاد تجزم بأنه القاتل .

كانت الواقعة تتلخص فى أن بواب البيت الذى يقطن فيه صاحبى أقلقه قبيل الظهر الا يجد أثرا للخادم العجوز وهو الذى تعود أن يهبط اليه كل صباح ليبتاع الفول والفطار لسيده ، ثم يخرج بعد ذلك للسوق لشراء الخضروات واللحم لتجهيز الغذاء .. وقد يجد من وقته فسحة للدردشة معه وشرب فنجان من القهوة ما بين الفطار والغذاء .

وتذكر البواب أنه قد شاهد «توفيق افندى» يهبط الدرج مسرعا فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء عندما كان يوشك أن يستلقي في فراشه فى غرفته الخشبية الكائنة أسفل السلم . ولم يذكر بعد ذلك أنه أحس بعودته .

واستنتج أن «توفيق افندى» ربما قد قضى الليل خارج الدار ، وأن «عم محمد» قد طال نومه فلم يجد بدا من أن يطرق الباب ليوقظه .

وطرق الرجل الباب فلم يسمع الا صدى طرقاته . واشتد الطرق بلا جدوى . فتملكه القلق .. وأحس بأن شيئا غير عادى لابد أن يكون قد حدث وأوجس فى نفسه خيفة .

ونظر من ثقب الباب فسرت في جسده رجفة . اذ بدا له كأن هناك جسدا مسجى بجوار الحائط فى أقصى الغرفة .. وتراجع فى ذعر ثم انطلق من الدار صائحا وأبلغ أول من صادفه من سكان الدور المجاورة وأصحاب الحواليت . وبعد برهة كانت الشرطة والناس قد تكأكأوا حول البيت .

وفتح باب الدار ، فاذا بالخادم ملقى على الأرض جثة هامدة ، وقد هشمت رأسه بضربة من عصا غليظة ملقاة بجواره بدت عليها آثار دماء .

وكانت ملامح القتيل بدا عليها دهش شديد .

واستطاع البواب أن يجزم أن العصا هى عصا «توفيق افندى» وأدلى بشهادته التى تتلخص فى أنه لم يشاهد من السيد والخادم الا كل ما تعود أن يشاهد يوميا ، وأن كليهما آوى الى الدار قبيل العشاء ، وأنه شاهد السيد بعد ساعتين ، أو ثلاثة يهبط الدرج وقد اندفع من الباب فى عجلة شديدة ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن هناك جريمة قتل قد ارتكبت .. فما حدث ما يثير ريبته أو يوقظ شكوكه وهو لايعرف هناك سببا يستدعي أن يقتل السيد خادمه ، فقد كان الرجل طيبا وكانت العلاقات بين الاثنين على خير ما يرام .

وقرر الطبيب الشرعى أن القتل حدث قبيل الحادية عشر اى فى الساعة التى شوهد فيها «توفيق» يندفع من الدار ، ولم يستطع المحقق أن يستدل على أن أحدا دخل البيت غير الرجل والخادم .. وهكذا ثبتت التهمة على «توفيق»

ولم يبق هناك مجال للشك فى أحد غيره ، خاصة وأنه قد ولى فرارا ولم يظهر له أثر بعد ارتكاب الجريمة ! ..

أمر عجيب !!

ان التحقيق قد أثبت أن «توفيق» هو القاتل . وأنه ضرب الخادم بعصاه ضربة أفضت الى موته ثم فر هاربا .

ولكن لم يقتله ؟ .. أين هو الآن ؟ ..

أن المسألة رغم أن التحقيق استطاع اثباتها بسهولة .. تبدو عويصة محيرة . فأنا أدرى الناس بصاحبى . انه لايستطيع أن يقدم على قتل حشرة ، وهو ليس بالانسان الأحمق الذى يثيره خطأ خادم الى حد أن يتهور فى ضربه ضربة ترديه صريعا .

لا .. لا .. انى اقسم ان «توفيق» لايمكن أن يكون القاتل .. فلابد أن تكون هناك ظروفا خفية احاطت بالجريمة .. ظروفا يعرفها هو ، ويستطيع لو أظهرها أن يبرىء نفسه مما اتهموه به .

ولكن أين هو ؟ ولم اختفى ؟ . وماذا يخشى اذا كان لم يرتكب الجريمة ؟ انى موقن لو التقيت به لاعترف لى بكل ما حدث . فهو يثق بى ثقة عمياء ، ولا يركن الى أحد سواى ، ولايستطيع أن يخفى عنى شيئا .

ونشر الحادث فى الصحف تحت عنوان «مهندس يقتل خادمه ويفر هاربا» وأعلن أن البوليس جاد فى البحث عن القاتل الهارب .

وعدت الى البيت ورأسى يصطخب بتلك المسألة المحيرة . ومضى اليوم وأنا أحاول عبثا أن أجد تعليلا منطقيا معقولا لشىء مما حدث .

انى أجزم أن «توفيق» ليس القاتل ؟ من هو القاتل اذا ؟ .. ولم لاذ «توفيق» بالهرب ؟ واى انسان على وجه الأرض يمكن أن يكون له مصلحة فى قتل العجوز المسكين ؟

وبتلك الأفكار الحائرة والأسئلة التى لاتجد جوابا شافيا . آويت الى مضجعى .. ولم أك أتوقع بالطبع أن يتسلل النوم الى عينى بسهولة ولكنى فقط كنت اريد أن أريح جسدى .. وهكذا رقدت على الفراش وقد انتابنى أرق شديد وتنبهت كل حواسى . عندما سمعت فجأة طرقا على الباب .

وكان الطرق من الخفة بحيث تخيلت اننى واهم فيما سمعت .

ومضت برهة ليست بالقصيرة دون أن أسمع شيئا حتى كدت أجزم أن الطرقات لم تكن سوى خداع سمع .

ولكن .. مرة ثانية ، عادت الطرقات . خفيفة مترددة .. كأن صاحبها يسترق الطرق .. أو كأنه يخشى أن يسمعه احد سواى .

ونهضت فى حذر ، واقتربت من الباب ببطء ووقفت وراءه لحظة وحاولت جهدى أن أتغلب على تلك الرجفة التى أصابتنى . فقد كانت أعصابى متعبة مكدودة . وتساءلت فى صوت لايخلو من الفزع :

- من ؟

وأجابنى صوت خفيض :

- أنا .. افتح ..

انه هو ! هو بعينه ! . صوت توفيق . الهادى الأجش العميق وأنصت برهة .. وتلفت حولى .. فلم أجد احدا فى الدار قد استيقظ على صوت الطرقات سواى .. وتقدمت خطوة الى الباب ومددت يدى الى المزلاج فرفعته وفتحت الباب وهمست :

- ادخل .

ودخل صاحبى . واستطعت أن أميز وجهه على ضوء المصباح «السهارى» الباهت . فهالنى ما وجدت به من شحوب وانهاك ووجدته يترنح فى مشيته كأن ساقيه لاتستطيعان حمله ، فأمسكت بذراعه وقدته الى حجرتى .. فارتمى فى اعياء على احدى الأرائك .

وأغلقت باب الحجرة بهدوء . ووقفت أتأمله وقد أغمض عينيه وتلاحقت أنفاسه وأخذ صدره يعلو ويهبط ، وأمسكت بيده وسألته :

– ما بك .. بماذا تشعر ؟

– لاشيء .. فقط متعب وجائع .. ومحطم الأعصاب .

وتركته وذهبت الى المطبخ لآتى له بشيء يسد رمقه .. وتواترت الأفكار على رأسي فى سرعة البرق .

انى واثق انه برىء مما اتهم به . ولقد أتى الى لأنى ملجأه الوحيد .. ولأنه ليس له صديق يعتمد عليه سواى .. ولاشك أنى يجب أن أعاونه على اثبات براءته .. ولكن هب أنه ليس بريئا ؟ .. وأنه القاتل فعلا ، وأنه أتى الى فارا من وجه العدالة .. وأنه يطلب منى أن أخفيه عن أعين البوليس .. ماذا يكون موقفى حياله ؟

هل من العقل أن نعاون قاتلا على الهرب من وجه العدالة ؟ ثم الى متى أستطيع اخفائه ؟ . وماذا يكون موقفى اذا ما ضبط وثبت أنى عاونته على الأختباء ؟

ولكنى كيف تطاوعنى نفسي على أن أبلغ عنه ؟ .. وكيف أستطيع أن أتخلى عنه وقد ركن الى وطلب معاونتى ؟

ولكن لم كل هذه الفروض ، وأنا أكاد أجزم أنه برىء .

وعدت اليه ببعض الطعام وكوب من الماء .. فتناول الماء منى بلهفة وجرع الكوب مرة واحدة ، وكان قد هدأ بعض الشيء .. وجلست أرقبه فى صمت وهو يزدرد الطعام حتى انتهى منه ، وسألته فى قلق :

– قص على ما حدث .. انك بالطبع لم تقتل الرجل .

وأطرق برأسه .. ومضت برهة طويلة وقد بدت عليه الحيرة والتردد ، ووجدته يجيبنى ، وهو يهز رأسه فى يأس شديد :

– لاأستطيع أن أجيبك بمثل هذه السهولة .. ان المسألة ليست من البساطة كما يمكن أن تتصور .. أنا لا أستطيع أن أجيب بأنى قتلت أو لم أقتل . ولا أكاد أعرف أنا نفسى اذا كنت بريئا أم مذنبا .. انها مسألة معقدة ملتوية ، وقبل أن أجيب عن سؤالك عما اذا كنت قتلت الرجل أم لا ، يلزم أن أوضح لك جلية الأمر .. وأروى لك الظروف الملابسة له ، ثم أسألك عما اذا كنت قاتلا أم لا . أنت تعرف مبلغ ثقتى بك ، وأنى أعتبرك كنفسى .. سأروى لك كل شيء بالتفصيل . وكل ما أرجوه منك أن تصدقنى .. ولاتتهمنى أننى واهم أو مجنون .. لقد كنت أود أن أقص عليك الأمر عند بدء حدوثه ، ولكنى خشيت الا تصدقنى .. وفضلت أن أطويه فى صدرى ما دام ليس هناك ضرر فى ذلك . فقد كنت أجد فيه شيئا خاصا لن يتعدى دائرة نفسى .. ولا مبرر لأن أفصح عنه لأحد ، خاصة وأنه شيء لايقره العقل .

ولو أنى سمعت هذا القول من انسان آخر غيره فى مثل ظروفه .. لشككت كثيرا فى سلامة عقله .. ولظننت به اضطرابا فى الذهن والأعصاب .. ولوجدت فى قوله تخبطا منشأه ذلك الاجهاد الذى حطم قواه .

أجل لقد كنت أتوقع أن تكون اجابته لى قاطعة جازمة بأنه لم يقتل الرجل .. ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد الظروف المحيطة .. لا أن يقول لى أنه لايدرى هو نفسه أن كان قتل الرجل أم لم يقتله ولايعلم اذا كان بريئا أم مذنبا ، وأنه يسألنى أنا لكى أجيب عنه .

أقول انى لو كنت سمعت هذا القول من اى انسان لاتهمته بالجنون .. ولكن «توفيق» لم يكن الشخص الذى يسهل على اتهامه بالجنون .. فقد ألقى الى قوله بطريقته الهادئة المتزنة التى توحى الى السامع بالثقة فى كل ما يقال له بحيث لايدع له مجالا لريبة أو موضعا لشك .

وقلت له متسائلا :

– عجيب ! انك لاتعرف اذا كنت قتلته أم لا !

- انى فى الواقع قد قتلت .. ولكنى لم أقتله هو .. بل قتلت انسانا لا أعاقب على قتله .. أو على الأقل ، لايمكن أن أعاقب على قتله فى زمننا هذا .. اللهم الا اذا كان الانسان يمكن أن يعاقب على قتل الأموات .. وأى أموات ؟ .. أموات تواروا فى باطن الأرض منذ مئات الأعوام .. ولم يبق منهم الا رماد عظام لا تكاد تميزه من أديم الأرض ؟ ..

وصمت برهة يفكر .. ثم رفع رأسه وسألنى فجأة :

- اسمع .. هل يمكن أن يعاقبك أحد فى أيامنا هذه على أن قتلت كليبر ، أو نابليون بونابرت !

- نابليون بونابرت ؟ .. أنا أعاقب على قتل نابليون بونابرت ؟

- أنت ، أو أنا .. أو أى انسان !

- طبعا لا .. لسبب بسيط ، هو أنه ليس هناك من يستطيع قتل نابليون بونابرت .. ولا أحقر جندى من جنود بونابرت .. لأنهم قد أضحوا شيئا غير كائن .

- انتهينا .. اذا فليس هناك من يستطيع معاقبتى على الجريمة التى ارتكبت .

- ولكن القتيل ليس بونابرت .. وليس كليبر .. بل هو «عم محمد» الخادم الذى كان بالأمس انسانا يتحرك من دم ولحم .. لا عظام فى باطن الأرض ، ولا أديم ولا رماد .

- ولكنى لم أقتل «عم محمد» فليس هناك قط ما يدعونى الى قتله .. انه أكثر الناس نفعا لى .. ولست أتصور كيف يمكن أن تجرى حياتى بدونه .. كيف آكل .. كيف ألبس .. أنا أقتل «عم محمد» .. لما ..

- أنا لم أقل إنك قتلت «عم محمد» .. ولكنى قلت أن القتيل .. الذى أريق دمه .. والذى طرحت جثته مسجاة على الأرض بلا حراك .. هو «عم محمد» .

– القتيل هو «عم محمد» .. هذا هو المصاب .. وتلك هى العقدة .. ان الذى قتلته لم يكن «عم محمد» .. ولكن الذى قتل فعلاً هو «عم محمد» .

وأطرق صاحبى برأسه ، واستغرق فى تفكير عميق .. ثم قال بعد لحظة :

– حسنا .. دعنى أروى لك المسألة من أولها .. خبرنى عن رأيك فى النهاية ، وقل اذا ما كنت بريئا أم مذنبا .

بدأ الأمر ذات يوم قبيل الغروب ، وقد جلست فى شرفة الدار مستلقيا فى أحد المقاعد الطويلة المريحة أرقب قرص الشمس الملتهب يهبط فى الأفق البعيد رويدا رويدا ، وقد خلف وراءه نيول الشفق الأحمر تبعث بأشعتها الأرجوانية متخللة أوراق الأشجار المترامية فى حديقة الدار وفى حدائق الدور المجاورة .

وأخذت أحملق فى رؤوس الأشجار الملتهبة كأنها فوهات براكين .. وبدا لى كأن بصرى قد ثبت فيها لايستطيع عنها حولا .. وأحسست بتبلد فى الذهن ، واسترخاء فى الأعضاء .. وانتابنى شعور الذى يقع تحت تأثير مخدر .. وبدت لى المناظر التى أمامى تتلاشى رويدا رويدا .. وفجأة أحسست بيقظة تماما .. ووضح كل شىء أمامى تماما ، كما يحدث عندما نكون فى ظلمة دامسة ، ثم تضغط زر كهربائى فيغمرنا النور مرة واحدة ، ونظرت أمامى فتملكنى دهش شديد .. لقد وجدت تغيرا كاملا فى كل ما يحيط بى .. وتبدل كل ما كنت أبصره أمامى تبدلا تاما .. انى لم أجد نفسى فى مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

أجل ان ما أبصرته لايمكن أن يكون فى زمننا هذا .

لقد وجدت نفسى أجلس فى «مشربية» ملونة بالزجاج بديعة الزخارف تدلى من سقفها – لامصباح كهربائى – بل قنديل زيتى دقيق الصنع .

وبدت لى الدور المقابلة لايكاد يفصل بينى وبينها الا بضع خطوات وقد ضاق الطريق بيننا ، وأطللت من نافذة «المشربية» فاذا بالطريق يغص بالمارة ، وقد قامت على جانبيه الحوانيت المزدحمة .

هل تعرف تلك الطرقات الضيقة التى تحيط بمدرسة «السنية» فى حى «السيدة» ، أو تلك التى تتفرع من «باب الفتوح» ؟ .. أو «بوابة المتولى» ؟ .

كان المكان يشبه الى حد كبير تلك الطرقات .. مع فارق فى أزياء الناس الذين يعيشون فيه . وأبصرت المارة وأصحاب الحوانيت يرتدون العمائم الضخمة ، «والقفاطين» ذات السراويل والمراكيب الحمراء المدببة .

وأوحى الى ذلك المنظر الذى رأيته - منظر الدور ، والطريق والناس .. ثم منظرى أنا نفسى .. وقد لمحت ساقى تنتعلان «المركوب اياه» و «السروال الفضفاض» بأنى أعيش فى زمن غابر ، غير ذلك الزمن الذى تعودت أن أحيا فيه .

هبطت الدرج الحجرى بعد أن وضعت «العمامة» على رأسى ، وسرت بين الناس فى الطرقات .. فلم أجد أثرا لترام ، أو سيارة .. بل خيل مطهمة . وعربات ، وحمير .

ورأيت الناس يتحدثون : بأن الوالى قد أمر بأن يعلق على كل باب ، مصباح ، ووجدت بينهم حالة من التذمر ، ولا أطيل عليك الحديث . فقد أدركت بسهولة مما أبصرت من مناظر وسمعت من أحاديث أننى أعيش فى عهد «محمد على» الكبير .

وأنى أذكر أن ما كان يشغل الناس يومذاك هو أنباء الحملة التى ينوى الوالى توجيهها الى «الوهابيين» تحت امرة ابنه «طوسون» .. وكان يتحدثون عن السفن التى تم بناؤها والجيوش التى تم حشدها ، وتموينها بالمهمات والأسلحة والذخائر .

وعدت الى الدار عقب جولة فى الطرق المجاورة ، وجلست مرة أخرى فى مقعدى حيث كنت أجلس ، وبعد لحظة أحسست بنفس التبلد ، والاسترخاء ، وأخذت المناظر تتلاشى بالتدريج . ومرة واحدة أضيئت الأنوار ، فاذا بى حيث كنت .

★ ★ ★

وصمت صاحبى برهة .. ووجدته يجيب على نظراتى المتشككة قائلا :

– حسنا .. قد يبدو لك هذا مجرد حلم .. واننى أغفيت اغفاءة طويلة وأنا جالس فى مقعدى .. ولقد كان هذا فعلا هو ما تصورته .. حتى حدث بعد بضعة أيام أن تكرر الأمر مرة ثانية بنفس الطريقة ، واذا بى أجد نفسى مرة أخرى : اعيش فى قرن مضى .

لا أظننى استطيع اقناعك بمجرد أن أطلب منك أن تثق فى صحة قولى .. وأن تصدق ان ما كان يحدث لى هو شىء اكثر من الأحلام .. هو انتقال فعلى من حياة الى حياة .. وأن الحوادث كانت تمر بى فى الحياة الأخرى بنفس الترتيب المنتظم الذى يتبع مرور الأيام .. بمعنى أننى اذا انتقلت اليها اليوم مثلا .. ثم انتقلت اليها بعد ذلك بيومين ، فانى أجد أنه قد حدث بها من الحوادث ما يقع فى يومين ، وذلك يؤكد ان ما كنت أبصره فيها هو حياة مستمرة ، وليست مجرد مناظر متقطعة . قد يداخلك الشك فى صحة قولى ، ولكنى أستطيع أن أذكر لك من التفاصيل ما يثبت لك بوجه قاطع اننى عشت فعلا فى ذلك العصر .. أنت تعلم أننى مهندس ، وأننى لم أدرس من التاريخ الا ما درسناه سويا فى «مدرسة الخديوية» والذى لا يعدو أن يكون سردا سطحيا لتولية «محمد على» الحكم وفتوحاته واصلاحاته ، أما التفاصيل الدقيقة عن الحياة فى ذلك العصر .. والتى قد تعرف انت عنها الشىء الكثير بحكم مهنتك كمدرس للتاريخ ، فانى أجهل الناس بها .

وهززت رأسى بالموافقة ، ووجدت نفسى أنصت اليه فى لهفة .. وأطلب منه أن يذكر لى تلك التفاصيل ، وبدا يصف لى الطرقات والناس ، وذكر لى كيف أبصر شاطىء النيل فى المكان الذى تقوم فيه بولاق ، والمطبعة الأميرية ، وقد تحول الى ترسانة لصنع السفن .. وذكر لى أن أطراف المدينة كانت تقوم عند العباسية وأن المكان المفروض فيه أنه القبة الآن .. كان ميدانا للتعبئة ، وحشد الجنود ، وأخذ يصف لى تفاصيل دقيقة عن الحياة فى ذلك الوقت ، ويصف لى الطرقات ، والميادين ، والدور ، والحوانيت .. وكيف أبصر ميدان السيدة ، والحسين .

ونظرت اليه مشدوها مأخوذا .. فأنا أدرى الناس بصحة كل ما قال .. فلقد درست ذلك العهد جيدا وقرأت الكثير عنه ، وكان كل ما قال صحيحا مائة في المائة .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ وفجأة خطر لى خاطر خلت أنه كشف لى عن جلية الأمر .

وهززت رأسى وقلت لصاحبى كأننى قد حللت اللغز !

– هل قرأت تاريخ الجبرتى ؟

فنظر الى فى غبطة وأجاب متعجبا :

– جبرتى ؟ .. أنا أقرأ تاريخ الجبرتى ؟ .. ألدى وقت لكى أقرأ الجبرتى .

– ولا تاريخ الحركة القومية للرافعى ؟

– لا داعى لهذه الأسئلة .. يجب عليك أن تثق بى ، وتصدق كل ما أقول .

– أنى أثق بك وأصدق ما تقول .. ولكنى أريد أن أجد تعليلا لما حدث لك .. ومبررا لأن تعرف فى غيبوبة كل هذه المعلومات الدقيقة . اذا كنت لم تقرأ شيئا من هذا .. فان المسألة لاشك خارقة للعادة .

وساد الصمت بيننا برهة .. ووجدتنى استغرق فى التفكير .

هذا الرجل الجالس أمامى .. قد أمكنه أن يعيش فى قرن مضى .. ان معلوماته لاشك أدق من الجبرتى ، ومن أى مؤرخ كتب عن عصر «محمد على» .. أنه أبصر «محمد على» ، أو يستطيع ابصاره .

وسألته فى لهفة :

– هل رأيت «محمد على» ؟

– رأيته مرة يمر بعربته من أحد الطرق ولمحت جانب وجهه .

– والنقيب عمر مكرم ؟

– رأيته خارجا من سيدنا الحسين فى جمهرة من الناس .

– ومن رأيت من رجال التاريخ غير هؤلاء .. حدثني بالتفصيل كيف وجدتهم .

ولكنه هز رأسه .. ولم يبد عليه أنه يهتم كثيرا برجال التاريخ وأجاب بعد برهة صمت :

– يجب أن تتذكر أني لم أعش في حياتي تلك كمؤرخ .. ولم أكن أهتم كثيرا بأن أعدو وراء هؤلاء المشاهير لأبصرهم كيف يبدون ، ولا ماذا يرتدون .. لقد كنت فردا عاديا وكانت لي حياتي الخاصة التي أهتم بها .

– ولكن هل كان من حولك يحسون بك ؟

– طبعا .. هل تظنني كنت بينهم شبحا ؟

– وكيف كانت علاقتك بهم ؟ ..

– هذا ما أنوي قصه عليك .. ان تلك العلاقات هي التي أدت الى المشكلة التي أغرقت نفسي فيها .. سأقص عليك كيف بدأت .. لقد تعودت أن اجلس عندما أندفع في حياتي الأخرى على مقهى بجوار «باب الفتوح» وصاحبت من رواد المقهى رجلين من كبار التجار «محسن الخيمي» و «عبد الرؤوف الدخاخني» ، وفي ذات يوم ، وقد اندمجت في حياتي الغابرة ، وجلست على المقهى بينهم دعاني «الخيمي» الى تناول الغذاء معه .. وترددت برهة ولكنه ألح على فقبلت . وذهبت الى داره .. دار فخمة البناء ، فاخرة الرياش ، ومد السماط . فتناولنا من الطعام ما لذ وطاب ثم تمددنا على المراتب نحتسي القهوة .

وانتهينا من القهوة .. وسألني مضيفي ان كنت أود أن أرى مستقبلي في الفنجان .. فأجبته بالموافقة .. فنادى على الساقي وطلب منه أن يرسل عائشة ثم التفت الي قائلا :

ان ابنتي «عائشة» خير من أن يقرأ الفنجان .. لقد علمتها القراءة جارية عجوز تولت تربيتها بعد أن ماتت أمها .

وبعد برهة أقبلت عائشة !

أجل ..أقبلت «عائشة» فأحسست أن قلبى يكاد يقفز من بين أضلعى .

لقد أحببت بضع مرات فى حياتى هذه .. ورأيت كثيرات من أنواع النساء .. ولكنى لا أذكر قط أن مخلوقا استطاع أن يفعل بى كما فعلت عائشة .

لا أريد أن أضيع الوقت فى وصفها لك . فليس هذا مجال غزل وتشبيب ، ولتكن ما تكون .. المهم .. هو ما تركته من أثر فى نفسى .. لقد أحسست أنها سرت فى دمى وأنى قد أصابنى من سحرها نشوة عجيبة .

وقرأت لى الفنجان .. ولم أسمع بالطبع مما قالت شيئا .. وعدت الى الدار وأنا شبه ثمل .

وعندما عدت الى حياتى هذه .. وجدت أن الشىء الوحيد الذى أستطاع أن يعلق فى نفسى من حياتى الآخرى ، هو : عائشة .

وتعودت بعد ذلك أن أراها فى كل مرة أعود فيها الى حياتى الماضية .. بل لقد أخذت أتعجل العودة الى تلك الحياة وأفضلها عن هذه الحياة .

وتطور الأمر الى حب متبادل بيننا .. واستطعت ذات مرة أن أخلو وأياها وأعترف كل منا بحبه للآخر .

وصممت على أن أتقدم لخطبتها . عندما فوجئت ذات يوم بأن «عبد الرءوف الدخاخنى» قد خطبها .

وأحسست كأنما مستنى صاعقة .. وعلمت أن أباها قد رضى به لأنه سينقذه من الافلاس .. ووجدت أن الطير قد أفلت من يدى .. أو هو يوشك أن يفلت .

وتملكنى ما يشبه الجنون ، وصممت على أن أفوز بها بأية طريقة .. حتى ولو كلفنى الحصول عليها .. حياتى .. ما قيمة الحياة بدونها !

والتقيت بها خفية فى حديقة الدار .. فوجدتها قد أذبلها الحزن .. وانبأتنى أنها لن ترضى بمخلوق سواى ، وأنهم لن يزفوها الى خطيبها الآخر

الا جثة هامدة ، وافترقنا فى تلك الليلة بعد أن صممنا على أن نهرب سويا قبل أن يتم الزفاف .

وتركتها وتسللت فى جنح الظلام وهممت بأن أقفز من سور الحديقة عندما أبصرنى الحارس ، وظننى الرجل لصا .. وصرخ يطلب النجدة .. وعدا خلفى بعصاه للحاق بى .. وأخذت أعدو فى الظلمة حتى تعثرت بحجر فوقعت على الأرض ووجدته قد لحق ورفع عصاه ليهوى بها على .. ولكنى نهضت بسرعة ، وأمسكت بالعصا فانتزعتها منه وهويت بها على رأسه فخر على الأرض صريعا .

★ ★ ★

وصمت صاحبى برهة طويلة ، ثم رفع رأسه وقد زاغ بصره ، وقال :

- هذا هو الرجل الذى قتلته .. رجل كان يعيش منذ مائة عام حاول قتلى .. فدافعت عن نفسى بقتله .. ولكنى عندما عدت لحياتى هذه ، وجدت أن القتيل لم يكن سوى «عم محمد» .

ولم يكن أمامى خير من الفرار .. لا لأننى أخشى أن أتهم بقتله .. بل لأنى لاأريد أن يشغلنى شىء عن انقاذها .. أجل .. لقد أضحت المسألة .. مسألة حياتها أو موتها .. فهى مصممة على الا تزف اليه الا وهى جثة هامدة ولابد لى من انقاذها .

ومرة أخرى عاد الى صمته ، ووجدت ذهنى يضطرب بما فيه .

ان صاحبى فى حالة عجيبة لم يسبق لها مثيل .. انه يريد ان ينقذ حياة امرأة ماتت منذ مائة سنة .. ويريد أن ينقذها من زوج لاشك أنها قد تزوجته .. أو تزوجت غيره ، فهو لن يغير فى التاريخ الواقع شيئا .. لأن ما حدث لاشك قد حدث .

لقد حاول أن يعيد الماضى .. وأراد أن يفعل شيئا يستحيل فعله .. وينقذ تلك المرأة مهما بذل من حول وقوة .. ولكن انى له ذلك .

ثم أخذ يهذى كالمحموم الذى تغلبت عليه وطأة المرض ..

وحاولت تهدئته وافهامه أنه مهما كان من صحة قوله فهو يعشق انسانة غير كائنة ، وأن حالته تلك قد سببت له أن يرتكب فى الحياة الأخرى حوادث وهمية .. تظهر نتيجتها الفعلية فى حياته هذه .. وأن القانون لايمكن أن يعفيه من تهمة قتل «عم محمد» الا تحت ظرف .. وهو أنه مجنون .

وطلبت منه أن يكف عن حياته الأخرى ، لأنه فى محاولته انقاذ صاحبته مرة أخرى قد يرتكب جريمة قتل اخرى أو من يدرى .. قد يقتله الحراس فى الحياة الأخرى فماذا تكون النتيجة فى حياته هذه !

وأخيرا طلبت منه أن يهدأ ويستريح .. وأن يترك المسألة للصباح .. فعسى أن يهبنا الله من لدنه رحمة .. ويهيىء لنا من أمرنا رشدا .

★ ★ ★

ولكنى عندما استيقظت فى الصباح لم أجده .. وبعد برهة علمت أنه قد عاد الى داره .. وأنبئت أن البواب لم يشعر به الا وهو يهوى من الشرفة فيهبط الى الطريق جثة هامدة .

وظهرت الصحف، لتروى خاتمة الحادث تحت عنوان :
«المهندس الذى قتل خادمه ولاذ بالفرار ، ينتحر بالقاء نفسه من الشرفة» .

ولم يدر انسان ماذا يمكن أن تحوى تلك الأسطر من حوادث خارقة .. وانطوت بموته حياته المزدوجة .. التى لم يعرف عنها احد سواى وسواه .

ترى كيف كانت خاتمته فى الحياة الأخرى .. هل استطاع انقاذ صاحبته ؟ ..

★ ★ ★

كانت هناك

ولقد عادت لى بعد ذلك ، لتطاردنى
فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى
على وشك الجنون .. ان لم أكن قد
أصبحت بالفعل مجنونا ..

شيخان .. سيد وخادم .. شدهما الزمن برباط من الود متين . والفت الأيام بين نفسيهما فأصبحا لا غنى لأحدهما عن الآخر .. فهما أشبه بانسان وظله ..

أما السيد فهو الأستاذ « الدكتور عبد الله الشنوانى » .. أستاذ علم النفس بالجامعة . عالم من كبار العلماء .. المشهود لهم بالعبقرية والنبوغ ووفرة العلم .. يحيطه عارفوه ومريدوه بهالة من الاجلال والتقدير والاكبار ، ويحيط هو نفسه بهالة من الشهادات ذات الأحرف الأفرنجية المتعددة .. التى قل أن يفكر فى فك رموزها انسان .. وهالة أخرى من المؤلفات والمحاضرات التى غمر بها المكتبات والمعاهد .. وهالة ثالثة من الشذوذ والشرود والذهول الذى يلذ للانسان العادى أن يراه فيمن يتخيلهم أرقى منه .. ولست أظننى مهما حاولت أن أتهكم على الرجل أو أكتب عنه بلهجة ساخرة ، بمستطيع أن أنكر فيه فضلا هو السبب فى كل ما وصل اليه .. وهو فرط الذكاء المقترن بطيب الخلق ، وكرم النفس ، والميل الى فعل الخير .

ويخيل لى أن الرجل قد وجد أن علم النفس اضحى (مودة) هذا الجيل وأن الانسان من فرط ولعه بنفسه قد أقبل عليها يحللها ، ويشرحها ، ويقتلها بحثا وتمحيصا .. فاتجه الى دراسة « علم النفس » وبرع فيه ، كما كان لا شك سيبرع فى أى شىء آخر يوليه نفس الانهماك والاقبال . وقفز الرجل من درجة الى درجة .. ونال الشهادة تلو الشهادة .. وبين عشية وضحاها ، وجد نفسه أستاذا شهيرا ، وعالما جليلا .

فاذا ما غضضنا الطرف عن الرجل كعالم وأستاذ ودكتور وتركنا جانبا مؤلفاته ، ومحاضراته ، وشهاداته ، وتلامذته ، ومقدريه ، وعارفى فضله .. وحاولنا أن نصفه كانسان عادى ... وتعقبناه فى عقر داره .. وجدناه قد جلس فى حجرة نومه لينضو عنه ملابسه .

الساعة الثانية بعد الظهر ، والرجل قد عاد من الخارج .. بعد أن انتهى من حضور أحد المؤتمرات .. التى تعقد وتنفض دون أن يفهم هو منها شيئا .. فهو اما متكلم أو (سرحان) .. ولا تظن بقية الأعضاء خيرا منه ، فكثيرا ما يحتد النقاش بينهم فى أمرهم متفقون عليه .. أو يحاولون اقناع بعضهم بعضا برأى لم يختلف عليه أحد .

ويبدأ الرجل فى خلع ملابسه وقد وقف بباب الحجرة « عم على الليثى » ، خادمه الأمين أو « الفردة الأخرى » كما كان يحلو لبعض الناس أن يطلقوا عليه .. فهو يكاد يكون صنو سيده .. بين أحدهما والآخر شبه عجيب .. ولو حلا لأحدهما مرة أن يلبس ثياب الآخر فخرج « عم على » مثلا من الدار مرتديا بدلة سيده الردنجوت وياقته المنشاة اللتين لا يغيرهما حتى فى هجير بؤونة ، وأمسك بعصاه وتأبط حافظته ، وكبس طربوشه حتى أذنيه .. ووضع على عينيه منظاره السميك .. لما شك أحد فى أن الرجل هو الدكتور « عبد الله » نفسه .. أو لو خطر ببال امرىء ان يجردهما من الثياب ووضع كلا منهما أمام أخيه عاريا لتسبب فى مشكلة كبرى .. اذ يصعب أى نميز الخادم من السيد .. ويزيد المشكلة صعوبة ان الأمر لابد سيختلط عليهما فلا يعرف أحدهما من يكون « الليثى » ، ومن يكون « الشنوانى » .

خلع الأستاذ سترته ، وقذف بها على الفراش ، ثم بدأ يفك أزرار البنطلون وتركه يسقط على الأرض ، ثم خلع القميص ورماه على أحد المقاعد .. ووقف فى أرض الحجرة مرتديا سروالا من الفانلة الصوف غطى ساقيه الرفيعتين حتى القدمين ، وفانلة صوف ذات أكمام طويلة ، ولف وسطه بحزام صوف خمس أو ست مرات ، وعلى رأسه استقر الطربوش ثابتا على أذنيه .

وكان الشهر وقتذاك شهر يونية ، والساعة - كما قلنا - الثانية ظهرا .. ولست أظننى فى حاجة بعد ذلك الى أن أصف النار الموقدة التى كان يستعر أوارها ، ولا « الشرد » الذى كان يهب من النوافذ فيلفح الأجساد .

ووقف « السيد عبد الله » فى وسط الحجرة وبدا عليه التأفف ، فقد كان الصوف يخز جسده ، ومد « عم على » يده بالجلباب الكستور الثقيل ، وسأله الأستاذ مترددا :

- ألست ترى ان الجو قد دفى بعض الشىء .. ما رأيك فى أن أخلع الحزام ؟

ولم يجبه « عم على » ولا ظهر عليه حتى أنه قد سمع سؤاله بل دفع اليه بالجلباب وقال له بلهجة حازمة :

- البس بسرعة .. والا تستهوى .

وأسرع الأستاذ بوضع الجلباب على جسده بسرعة .. فقد خاف فعلا « أن يستهوى » .. فقد كان فى مسائل والبرد والحرارة .. وكل ما يمكن أن يؤثر على الصحة يعتمد اعتمادا كليا على « عم على » .. ويثق فيه كل الثقة .

ولم يكن صاحبنا قد خلع بعد طربوشه .. فقد كان رأسه هو نقطة الضعف فيه .. ولم يكن يجسر أن يتركه عاريا لحظة واحدة .. وظل الطربوش جاثما عليه حتى تعطف « عم على » ومد له يده « بالطاقية الصوف » فنزع الطربوش « وكبسها » بسرعة على رأسه .

وبدأ الخادم الهرم يعلق الثياب على المشجب .. وجلس الأستاذ يفرك أصابع قدميه ، ويدفع عصاه فى قفاه فيحك بها ظهره .. ثم سأل الخادم فجأة :

- عم على .

ورفع الخادم اليه عينيه دون أن يجيبه .. واعتبر السيد هذا بمثابة الرد ، وأردف يتم حديثه :

- ألم تستحم منذ شهرين ؟

- آه .. لقد نسيت .

ولم يكن الرجل قد نسى .. ولكن لم يجد ردا أسلم عاقبة من هذا .. وعاد فسأله بعلا برهة :

- ماذا طبخت اليوم ؟

- قرع .

وبدا الانزعاج الشديد على وجهه .. وقال فى استياء :

- قرع ؟ أنا لا أحب القرع .

ونظر اليه « عم على » نظرة رادعة :

- القرع خفيف على معدتك .. القرع المسلوق .

وازداد انزعاج السيد وعاد يكرر :

- قرع مسلوق ؟ ولكن معدتى بخير .

- ليست بخير .

- ولكنى لا أحس بها ألما .. انها بخير .

- وأنا أعلى أنها ليست بخير ، لقد كنت « تتكرع » كثيرا فى الليلة الماضية .

وهز الاستاذ رأسه وأدرك أنه لا فائدة من المناقشة ، فأتخذا الجانب الآمن .. وأجاب الاجابة التى تقيه الشر :

– آه .. لقد نسيت .. معك حق ، وماذا صنعت حلوا ؟

– بلوظه .

وبدأ الاشمئزاز على وجه السيد .. وقال بلهجة المغلوب على أمره :

– كنت أفضل البطاطا .. بطاطا مغمسة فى العسل النحل .. انها تماما كالمارون جلاسيه .. بل وخير منه .

– هذه أشياء ثقيلة على المعدة .. هذه رمرمة .

– معك حق .. ان شاء الله عندما تصح معدتى سنجرب هذه الأكلة .. عندما تخف معدتى تماما .

ولم يجب « عم على » فقد تحرك خارج الحجرة بعد أن أتم عملية تعليق الملابس وتفريشها .

وجلس الأستاذ يتناول طعامه .. ويدفع بالقرع المسلوق فى جوفه متقززا متأنيا ، وهو يرقب « عم على » الواقف على باب الحجرة بنصف عين .. وقد تملكه منه حنق شديد .. وطافت برأسه صحبتهما القديمة .. وتذكر صباهما وكيف أرسله أبوه معه من البلد لخدمته والعناية بأمره .. كان ذلك منذ أربعين عاما .. وذهب الاثنان الى القاهرة .. فاستقر بهما المقام فى احدى حجرات شارع « ممتاز » بالبغالة .. منذ ذلك اليوم لم يفارق أحدهما الآخر لحظة واحدة .

هل من الانصاف بعد كل هذا ان يوصف « عم على » بأنه كان خادما له ؟

طبعا لا . وهو ليس من الضعة وانكار الجميل بحيث يعتبر الرجل خادما فقد كان له كل شيء : كان الأب ، وكان الأم ، وكان الزوجة .. وكان الشيء الذى لولاه لما كان هو نفسه .. ولما وصل الى ما وصل اليه .. لقد كان المشجع ، وكان النصير .

أربعون عاما .. تقلب كلاهما بين يدى الزمن فى رفع وخفض ، وسراء وضراء .. وهما متلازمان متماسكان .

كم سهر بجواره يعينه على الاستذكار تحت ضوء المصباح الغازى الخافت .. وكم أرق لمرضه ، وجاع ليطعمه .. كم تحمل فى سبيله الأذى والضر .

وبدأت الحياة تبتسم وأخذ يرتقى الدرج شيئا فشيئا وبدأ يسطع نجمه .. وكان « عم على » يعرف واجبه تماما ويعرف كيف يدبر أموره ، ويرتقى بالمسكن والملبس ووسائل العيش حتى يجعلها تتناسب دائما مع مركزه فى الحياة .

ولم يكن هو نفسه له دخل فى هذه الأمور .. بل كان لـ « عم على » سميعا مطيعا .. فهو يعتبر أن الرجل ولى أمره .

وهكذا وجد نفسه ينتقل من « البغالة » الى « جنينة ناميش » الى « جنينة رشيد » الى « المنيرة » .. ولو كان الأمر بيده ، لظل كما كان ، فى حجرته بالبغالة .. ولظل مداوما على الفول والطعمية ، والعسل والطحينة -- وفى حالات اليسر -- البيض والعجوة .

أربعون عاما .. لا يستطيع أن يتصور كيف كانت تمر به لولا « عم على » .

وازدرد الرجل آخر قطعة من القرع المسلوق . وأمسك بالملعقة يدفع بها فى « طبق البالوظة » بمنتهى التبرم والاشمئزاز .

ورفع عينيه الى الرجل الواقف بجوار الباب كأنه تمثال لا يتحرك ورمقه بنظرة حنق وغضب ، وعاد يحدث نفسه :

لقد أضحى الرجل لا يطاق ، وأنه ليكاد يضيق به ذرعا وينسى له فضل الأربعين سنة من فرط ما يسبب له من مضايقات ، ما ضره لو استبدل بالقرع بطاطس أو باذنجان ، ثم ما الداعى لهذا الاصرار منه على الحزام الصرف الذى يثقل به بطنه .

ولكن الذنب ذنبه هو .. فهو المستكين المستسلم ، وهو الجاهل الذى لا يعرف من شؤون الحياة شيئا .. لم لايحضر له طباخا ويحضر له بضعة خدم اخرين .. لقد كبر « عم على » ومن الحمق ان يفرض نفسه عليه مدى الحياة .. انه قد أضحى هو نفسه فى حاجة الى من يخدمه ، لقد أضحى متعبا .. ومتعبا . وزاد الطين بلة هذا الصمم الذى أصيب به أخيرا مما يضطره الى الصياح به بضع مرات حتى يستجيب لندائه .. ولقد تعود الرجل أيضا أن يحدث نفسه ، وأن يرى أشياء لا يراها سواه ، أشباحا أو أرواحا أو شيئا من هذا القبيل .. ربما خيالات وأوهاما .. وهو يسبب له بذلك ازعاجا شديدا .. حتى أنه ليخشى أن ينتهى الأمر بأحدهما الى الجنون .

وسمع « عم على » يتمتم لنفسه ببضع كلمات .. فأصابت الاستاذ رجفة شديدة ، ولم يجد خيرا من أن يكلم الرجل حتى يمنعه من الحديث الى نفسه ، فصاح به :

-- عم على ...

ورفع الرجل بصره ولم يجب .. واستمر الأستاذ :

- سيزورنى اليوم ضيف فى حوالى الخامسة بعد الظهر ، أرجو أن تجهز لنا شايا .

وصمت لحظة ثم أردف :

-- ضيف عزيز ورجل محترم من علية القوم .. فأرجوك أن تخرج الطقم الصينى المذهب .

وأشار الرجل برأسه علامة الموافقة .

وعاد الأستاذ يؤكد :

-- الطقم الصينى المذهب .. سامع ؟ لا أريد أن تخجلنى أمام الرجل بالفناجين الفخار الصفراء .

وقام « الأستاذ » ليغسل يديه ، ثم اتجه الى حجرته ليضطجع ومر بالخادم وهو يزيل بقايا الطعام من فوق المائدة فقال له للمرة الرابعة :

- الطقم الصينى يا « عم على » .. لا تنس .

وأشار الرجل بالموافقة دون أن يصيبه أى ضيق من الحاح سيده ، والواقع أن هذا الالحاح من جانب الأستاذ لم يكن فى غير موضعه .. فقد كانت مسألة « طقم الشاى » من المسائل التى ظلت معلقة بينهما لم يحسمها نقاش أو نزاع .

فـ « عم على » يتخذ من طقمى الشاى معيارا يزن به أقدار الناس . فتراه قد قسم الضيوف والصحاب الى قسمين : قسم مرغوب فيه ، وقسم غير مرغوب فيه .. أو كما يقول هو : الأشرار والأبرار ، وهو يصر على الا يشرب الأشرار الا فى الفخار .. أما الطقم الصينى فهو يحتفظ به للذين يود أن يخصهم برضائه ، ويشعرهم باعزازه واكرامه .. وهو يعتبر نفسه فى هذه المسألة .. مسألة الفخار والصينى دكتاتورا مطلقا .. الذى يقرر أهل الصينى وأهل الفخار .

وكان من المحتمل الا تزعج « الأستاذ » هذه المسألة ، وأن يقبل تحكم الرجل فيها كما قبل تحكمه فى غيرها ، لولا أنه يحس أن « عم على » يخلط بين أقدار الناس ، فيقدم الصينى لم لا يستحقه ويقدم الفخار لم يستحقون الصينى . فلم يجد بدا من أن يحذر « عم على » فى كل مرة ويفهمه عن الطقم الذى يجب أن يقدم ورغم هذا التحذير والتفهيم .. كان « عم على » لا يفعل الا ما فى رأسه .

واليوم سيزوره رجل من كبار الرجال ذوى الشأن والمكانة ليستشيره فى مشكلة ألمت به .. وليسأله العون والنصح باعتباره من كبار علماء النفس .. وهو يخشى جدا أن يخجله « عم على » كعادته ، فيقدم « الشاى » للرجل فى الطقم الفخار .. فلم يجد بدا من تحذيره والالحاح عليه .

ودقت الساعة الخامسة ، ودق معها جرس الباب ، وكان الأستاذ قد انتهى من ارتداء ملابسه ، وسمع « عم على » يفتح الباب ، ويدخل الضيف فى سكون الى حجرة الاستقبال فوضع المنظار على عينيه ، وكبس الطربوش

على رأسه ، وهرول لتحية الرجل ، وصادف « عم على » خارجا من الحجرة ، فعاد يكرر عليه للمرة الأخيرة :

الطقم الصينى يا « عم على » .

وهز « عم على » رأسه موافقا كعادته دون أن ينبس ببنت شفة .

وجلس « الأستاذ » يحيى ضيفه ، ويحيطه بما يليق بمكانته ومركزه من آيات الاحترام والاجلال . وجرت بين الاثنين أحاديث سطحية عابرة .. عن الجو .. وعن السياسة .. والغلاء .

وبعد فترة دق الباب ، ثم دلف « عم على » الى الحجرة متحركا ببطء وتؤدة حاملا صينية رصت عليها الفناجين وبراد الشاى وبقيت الأدوات ، وكان الأستاذ موليا ظهره لباب الحجرة فلم ير الرجل حتى لف حوله ووضع الصينية فوق المنضدة .

ونظر « الأستاذ » الى الصينية ، وأحس بخيبة أمل شديدة ! ان الرجل الغبى اللعين قد ركب رأسه وضرب برجائه عرض الحائط .. فلقد أبصر على المنضدة الثلاثة فناجين الفخار ! . وعلام الفنجان الثالث ؟ .. ترى هل ينوى الأحمق أن يجلس فيشاركهما الشاى ؟ من يدرى ؟ قد يفعلها .. فقد تطور فى السنوات الأخيرة فأضحى لا يستبعد عليه أى شىء .

ورفع السيد بصره الى خادمه الذى وقف فى صمت بجوار المنضدة والتقت الأبصار ، وكان كل منهما يستطيع ان يقرأ ما فى رأس الآخر بسهولة .. ولكن فى هذه المرة لم يجد فى عينى خادمه مايقرأ .. فقد بدا عليه شىء من الشرود .. الشرود الذى يبديه وكأنه يرى أشياء غير مرئية ولا ملموسة .. ولشد ما كان ذلك يزعج « الأستاذ » ، ويخيفه ، فأمر خادمه أن يغادر الحجرة لأنه سيصب الشاى بنفسه .

وأخذ الأستاذ يصب الشاى ، وبدأ صاحبه يقص قصته .

قال الرجل : ان مسألته من المسائل التى يصعب على العقل البشرى

تصديقها ، فهو مصاب بشيء لا يحس به سواه ، وهو يخشى أن يقصه على الناس فيتهموه بالجنون ، ولذا فقد لجأ اليه لأنه يعتقد فيه سعة العقل وهو لا شك سيستطيع أن يفهمه جيدا . كان الرجل يعرف في صباه امرأة من بنات الهوى .. وحملت منه المرأة فحاول اجهاضها عبثا .. وحان وقت ولادتها فنقلها الى احدى المستشفيات ، وكانت ولادتها عسيرة مضنية .. وأخيرا وضعت الجنين .. وماتت هي ، وأوصته بابنها خيرا وهي تلفظ آخر أنفاسها .

ورشف الرجل من فنجانه الأصفر رشفة طويلة وعاد يقول :

– لتتصور يا سيدى موقفي وأنا في السنة النهائية من الدراسة .. وأنا أعيش في بيت والدى الرجل القاسي الصارم .. وقد انجبت ابنا ، لا أم له .. ولا انسان يحمل عنى عبئه .. لقد حملته الى أحد الفنادق .. واستأجرت وإياه غرفة .. آويه فيها .. حتى استطيع ان أدبر أمرى وأمره .

وكانت ليلة عاصفة شديدة البرد ، والريح تعوى في الخارج عواء ذئاب ضارية . وينفذ فحيحها الى الحجرة من خلال النوافذ كأنه فحيح الأفاعى .. وأجهدت رأسي لكي اجد لي مخرجا من مأزقي . وأخيرا مر بذهني خاطر عجيب .. استطعت بواسطته أن أتخلص من حملي الى الأبد .

لقد خطر لي أن هذه الريح العاوية خير من يحمل عنى عبئي .. فلو فتحت لها النافذة وسمحت لها بالدخول لحظة وأطلقت قرها على الطفل .. فانها لا شك ستكون القاضية .. وسيموت الطفل دون أن يكون هناك أى مظهر مظاهر الجريمة .

وبعد لحظة كانت الريح تزأر في الحجرة .. والطفل يرتجف ويرتعد .. وفي الصباح قضى الأمر .. وذهبت الى الدار بعد أن القيت عنى ما أثقل كاهلي !

وصمت الرجل برهة شرد فيها ذهنه وعاد يتمتم :

– لقد ظننت أنني تخلصت من العبء نهائيا .. فلقد ذهبت الأم .. وذهب الطفل ، وأصبحت حرا طليقا من كل قيد .. ومرت بي الأيام وأنا أغترف من

ملذات الحياة حتى شبعت وارتويت .. ثم شعرت اخيرا بحنين الى الاستقرار والى أن يكون لى زوجة وبيت وأولاد . وفعلا تزوجت .. ووضعت امرأتى أول طفل .

وفى ذات ليلة .. ليلة ليلاء سوداء .. أحسست بالنافذة تفتح على مصراعيها وبالريح تتدفق من النافذة وبعد بضعة أيام مات أبنى .

وقد تقل أن الحادث مجرد صدفة .. وقد كنت أستطيع أن أقنع نفسى بذلك . لو لم أرها بعينى رأسى تعدو منطلقة من الحجرة بعد أن فتحت النافذة .

من هى ؟ .. المرأة القديمة ، التى قتلت ابنها . لقد عدوت خلفها وهى تعدو الى الباب بعد أن فعلت ما فعلت وحاولت أن أهوى على رأسها بعصاى هذه .. وذهلت زوجتى وحاولت أن تمسك بى .. لأنها لم تستطيع أن تبصرها كما أبصرتها .. وظنتنى أتخيل خيالات ..

ولقد عادت لى بعد ذلك . لتطاردنى فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى على وشك الجنون .. ان لم أكن قد أصبحت بالفعل مجنونا .

وصمت الرجل وبدأ الأستاذ يهدىء من روعه ويوهمه أن ما به عقد نفسية ناتجة عما يحسه من تأنيب الضمير على الجرم الذى ارتكبه .. وأنه ليس هناك أية امرأة تطارده .. وأن النافذة قد فتحتها الريح .

وأخيرا خرج الرجل بعد أن هدأت نفسه بعض الشيء وأقبل « عم على » ليحمل صينية الشاى .. وتذكر الأستاذ مسألة الفناجين وكيف أخجله « عم على » مع الرجل بالفناجين الفخار فضغط على أسنانه وصاح به ناهرا لأول مرة فى حياته :

– ألم أقل لك أن تقدم الطقم الصينى .. لقد كررت عليك الرجاء مائة مرة .. ماذا أصنع بك ؟

ونظر « عم على » اليه وقال بهدوء :

– الطقم الصينى ليس به سوى فنجانين ! .

– ومن قال لك أننا نريد أكثر من فنجانين ؟

وصمت « عم على » برهة وهز رأسه وقال وهو يحمل الصينية ويغادر الغرفة ببطء وبثقل ، وفى عينيه النظرات الشاردة التى تظهره كأنه يرى أشياء خفية :

– لم أكن أظن أن المرأة التى تبعت الرجل .. ستنصرف دون أن تحتسى الشاى .

★ ★ ★

صوت مجهول

... ولم استطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من الحديث التيلفوني ؟ من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ .. ولم ؟

كنا صحبة نسمر ذات ليلة .. وتشعب بنا الحديث ذو الشجون ، فاذا به يخوض بنا في العالم المجهول ، عالم الأرواح ذى اللجج العميقة والمجاهل والمضال وألقى كل منا بما يعرف .. وما لايعرف .. وبدا حديثنا أقرب الى الترهات والأباطيل .. والأقاويل والأضاليل .. ولم أجد في كل ما قيل أكثر من خبطات عشواء في غياهب شك ، وظلمات ترجيم .

وتتابع الحديث ، واحتدم الجدال .. كل يسوق الأدلة ويضرب الأمثال .. وكان بيننا زميل طبيب لزم الصمت فما فاه ببنت شفة .. واستمر ينصت ولا يتحدث حتى أفرغنا ما في جعبتنا من هراء ولغو وهذيان .. ثم رأيته يهز رأسه ببطء كأن هناك ما يحيره ويشغل ذهنه مما لايود قوله .. وقلت له متسائلا :

– ما بالك ؟

– لاشيء .. خير لنا أن نكف عن الحديث في الموضوع .. فنحن أعجز من أن نستطيع فهم حقيقته ، أو ادراك كنهه .. وخير لنا أن نقتنع بظواهره من خفاياه والا نحاول كشف غياهبه .. فكلما ازددنا توغلا فيه ازداد

علينا حلكة وتعقيدا .. لندع العالم المجهول .. مجهول كما هو .. ولنق انفسنا خطر علمه .. فلقد صادفتنى حادثة .. لها بهذا العالم صلة . حاولت أن أفحص فيها وابحث وأجد فى التعليل والتفسير .. ولكنى لم أفز بطائل .. ونأيت بذهنى عنها خشية الجنون وقبلتها على علاتها .. وفزت من العلم بسلامة العقل .

وصمت الطبيب برهة استعاد فيها الحوادث الى ذهنه .. ثم قال :

– لست أدرى .. لم كنت أول من لجأ اليه خادمه عندما وجده ميتا فى مقعده .. ولكن أغلب ظنى أن الخادم نفسه لم يخطر على باله أن سيده مات فعلا ، عندما اقتحم عليه غرفته بعد أن وجده قد تأخر فى الاستيقاظ على غير عادته .. ففوجىء بأن يراه قد تمدد على مقعده الضخم بجوار آلة التليفون وهو بكامل ملابسه .. ولم تخطر على بال الرجل فكرة الموت .. بل ظن أن المسألة لاتعدو اغماء بسيطا فأسرع فى استدعائى .

وبدت وفاة الرجل للمسئولين وفاة طبيعية .. لا دخان حولها ولا غبار عليها .. فقد مات الرجل بالسكتة القلبية .. ولم يكن هناك أى أحتمال لأن يقال شىء غير هذا .. ومع ذلك فقد كنت احس فى قرارة نفسى بما ينبئنى أن فى وفاة الرجل شيئا خفيا .. لقد كنت أعلم أكثر من غيرى .. أن الرجل ذو قلب سليم قوى .. فقد كشفت عليه منذ بضعة أيام ، ولم أجد به ما يبعث على القلق ..ثم ما معنى تلك التعابير العجيبة التى ارتسمت على وجهه الميت ؟

كنت أعرف الرجل منذ سنين خلت .. فقد كنا جيرانا فى المعادى .. ولم تكن داره لتبعد عن دارى الا مسيرة دقائق معدودات .. وعرفته فى أول الأمر كرفيق قطار .. تشابهت مواعيدنا .. فتكرر لقاؤنا فى القطار ذهابا وعودة .. حتى كنت لايكاد يمر على يوم دون أن أبصره .. ولم يكن هناك بد .. والأمر كذلك – خاصة وان الرجل لم تكن تبدو عليه سيماء شر .. ولا مخائل سوء – من أن تنشأ بيننا صداقة عابرة لايزيد مظهرها عن ايماء بالرأس ، وتبادل بضع كلمات عن الجو ، والسؤال عن «الصحة» .

كان الرجل اسمر الوجه حليقه .. على شىء من البدانة والترهل وثقل الحركة .. وكان يبدو فى الحلقة الخامسة من عمره أبرز ما فيه مظاهر الطيبة

التى تبدو فى قسماته ، والتى تعززها تلك المسبحة التى لاتفتأ حباتها تنزلق بين أصابعه .. وتلك الهمسات غير المسموعة التى تتمتم بها شفتاه .

وازدادت بيننا أواصر الصداقة .. فعلمت أنه رئيس قلم فى احدى المصالح ، وأنه يملك فوق مرتبه دخلا ثابتا من أرض لزوجته مما يجعلها فى بسطة من العيش .. خاصة وأنهما لم ينجبا أبناء .. وبمر الأيام بدأت أتبادل مع الرجل الزيارات المنزلية فوجدته وزوجته مثلا لزوجين راضيين قانعين ، يجد كل منهما فى قناعته بصاحبه أقصى متعته فى الحياة .

وعندما أقول زوجان راضيان قانعان قد يبدو ذلك الوصف طبيعيا بالنسبة لأى زوجين .. لأن المفروض فى الزوجين قناعة كل منهما بصاحبه .. ولكنى من جانبى أرى أن الوصف على شىء من الغرابة .. لأنى لا أعتقد ان القناعة شىء طبيعى من جانب الرجل - وليعذرنى الرجال على هذه الصراحة ، فكلنا فى الهوى سواء - لأن الرجل خلق بطبعه شديد التعطش الى النساء .. لاتروى غلته أمرأة واحدة .. ولا اثنتان .. ولا عشرة .. ولا مائة .. فهو دائم التطلع الى كل حسناء يقع عليها بصره .. قد يختلف الرجال فى قدرتهم على كبت ذلك التشوق واخفاء تلك اللهفة .. وقد يتفاوتون فى مدى تهافتهم أو السيطرة على نفوسهم .. ولكن ما من شك فى أنهم فى بطونهم رجل واحد يتمنى أن يرتمى فى أحضان أول حسناء تصادفه .. حتى ولو كانت له مائة زوجة .

وعلى ذلك فقد كنت أرى فى قناعة الرجل بزوجته .. وفى رغبته عن سواها وزهده فى غيرها .. حتى ولو بمجرد التطلع أو الحديث شيئا يستدعى منى التقدير والاعجاب .. وكنت أدهش من ذلك الامعان منه فى النأى عن كل ما يتصل بالنساء وبسيرتهن .

وعندما زادتنى الأيام معرفة بالرجل وبزوجته بدأت أسائل نفسى :

ترى أذلك الاخلاص منه والوفاء مبعثهما شعور صادق بالقناعة والرضا .. أم أن مبعثها ليس سوى خشية المرأة والخوف منها ؟ . لقد كانت الاجابة عن ذلك أمرا عسيرا .. فالرجل ممثل جيد .. لا يستطيع الانسان

بسهولة أن يسبر غوره .. ولكنى كنت أميل الى الاعتقاد الأخير -- لا لأنى من أنصار المبدأ القائل بأنه لايوجد فى الدنيا رجل قنوع بامرأته قناعة حقيقية غير مكره عليها - بل لأن المرأة فعلا كانت من نوع شديد السيطرة ، قوى الشكيمة .. تتحكم فى كل شىء ، وتتصرف فى كل تافهة .. وكان هو سميعا مطيعا ، راضيا قانعا .. أو هكذا كان يبدو .. فقد كان كما قلت ممثلا جيدا .

وفى ذات يوم أصيبت المرأة فجأة بنزيف فى الرئة .. وأخذ مرور الأيام ينهش من حياتها حتى تركها جسدا طريح الفراش هزيلا نحيلا .. وعندما ماتت لم يكن فى موتها أية مفاجأة .. فقد كانت نتيجة منتظرة محتومة .. ولا أظن الرجل الا قد حزن عليها ، وان كان قد حاول جهده أن يبدو متمالكا متماسكا وبأن يتذرع بالصبر والايمان وبـ «انا لله وانا اليه راجعون» وبدا عليه هزال شديد فى الفترة التى أعقبت الوفاة .. وكان دائم الوجوم والأطراق .. وخيل الى أنه يقاسى الم الفرقة والوحدة .. حتى وجدته بعد فترة من الوقت يسترد نفسه .. ويعود الى سابق حالته .. لانحول ولا ذبول .. ولا وجوم ولا اطراق .

ولم أجد فى أمر الرجل شيئا من الغرابة .. لأنى أعلم أنه ما من نعمة منّ الله بها على عبيده خير من نعمة النسيان .. وأنه ما من حزن أصاب الانسان الا وكان الزمن كفيلا بمحوه .. كل شىء فى الحياة الى الزوال مصيره .. حتى الأحزان ، والأشجان .

أقول أننى لم أدهش فى أن يعود الرجل الى نفسه .. ولكنى دهشت كثيرا عندما وجدته قد عاد الى أكثر من نفسه .. لقد لمحت به كثير تحول وتبدل .. فما عاد يعرض عن سير النساء أو يتجنب الحديث عنهن كما كان يفعل قبل وفاة زوجته .. وما عاد يخشى أن يبدى اعجابه بهذه أو بتلك .. وذهب عنه قديم زهده ، وسابق تعففه .. وبالطبع لست أقصد بقولى هذا أن الرجل قد تحول فصار زير نساء .. أو أنه قد بات صائد غوان أو مطارد ظباء .. فانه مازال كما هو بطيبته وحيائه .. ولكنى تبينت ذلك التحول من طريقة حديثة .. فقد بدأ يكشف الحجاب عن نفسه ، ووضح لى أنه مخلوق مثلنا يستملح ويتمنى

ويشتهى ، ولم أشك وقتئذ فى أننى كنت على حق عندما ظننت أن مبعث زهده وعفته كان خشية من أمرأته التى كانت شديدة السيطرة عليه .

وصادفت في بضعة مرات أمرأة من أصدقاء زوجته تزوره في داره .. امرأة لا أظن هناك أصدق من وصفها من «بنت حنت» ولم يكن من العسير أن أكتشف أن صاحبنا مفتون بها .. فقد كانت توجد فى نفسه حالة سرور ونشوة ، ولم يكن يتورع من أن يخلع عليها ألفاظ المديح والثناء .

وفى ذات يوم – ولم يمض على وفاة الزوجة الا أشهر معدودات – بدا لى من حديث الرجل أن به رغبة فى زواج المرأة .. لولا أنه يخشى بعض أقاربه الذين سيعارضون فى ذلك .. ولست أدرى أى شيطان جعلنى أتمنى فى ذلك الوقت أن أرى زوجته فى قبرها حتى أخرج لسانى لها ولغيرها من المخدوعات فى مسألة الوفاء الزوجى وفى قناعة الرجل وزهده .

ومرت الأيام ، وأنا أحس أن الفكرة قد اختمرت فى نفسه ، وانه قد يقدم عليها فى أية لحظة رغم معارضة أقربائه حتى وجدته يقبل على ذات مرة فى دارى وقد بدا عليه قلق ظاهر .. وجلس يتحدث الى وهو يحاول أن يبدو طبيعيا الى أن قال فجأة :

– اسمع .. وقع لى اليوم حادث غريب يحيرنى أشد الحيرة .. لقد غادرت مكتبى فى هذا الصباح لفترة قصيرة وعندما عدت أنبأنى حاجب المكتب ان سيدة طلبتنى فى التليفون وطلبت منه بأن يذكرنى بأن أحضر الفستان من «التنتلارى» فقد مضت عليه مدة طويلة .. وأدهشنى قول الرجل دهشا شديدا .. فان زوجتى قبل وفاتها قد أرسلت أحد ثيابها لتنظيفه ، وما زال الثوب هناك حتى الآن .. ولا أظن أن هناك من يعرف أمره الا أنا ، وهى ، وصاحب المحل .

مسألة غريبة ! ولست أنكر أن دهشى لم يكن أقل من دهشه .. ولكنى حاولت أن أجد تفسيرا لأخفف من قلقه فقلت له أن المتحدثة لابد قد أخطأت الرقم ، وأنها قد تكون زوجة موظف آخر لها فستان تريد من زوجها احضاره وأن المسألة قد حدث فيها التباس .

وبدا لى أن الرجل يحاول جهده أن يقنع نفسه بما قلت .

وفى اليوم التالى أقبل على الرجل وهو أشد تجهما وأكثر قلقا وأنبأنى أن المحادثة تكررت .. وأنه لم يجد بدا من الذهاب لاحضار الثوب .. وعندما عاد به الى الدار اقبل عليه الخادم ، وقد بدا عليه الانزعاج وانبأه أن سيدة تحدثت فى التليفون وقالت انها «المرحومة» وطلبت منه عندما يحضر سيده الفستان أن يعلقه فى الدولاب الأوسط .

ولو لا ما كان يبدو على الرجل من ذعر شديد لانطلقت مقهقها فانى لم أشك أن المسألة عبث عابث .. وان ماجنا يحاول أن يهزل مع الرجل هزلا ثقيلا .. واخذت أهدىء روعه وأفهمه أن الأمر لايمكن أن يكون الا مزحة بلهاء ..

وعلمت ان الرجل متعب الأعصاب . وأن تلك المزحة الخبيثة قد صادفت من نفسه مرتعا خصبا للازعاج .. فنصحته أن يأخذ اجازة وأن يخلد الى الراحة التامة .

وصرفتنى عنه ظروف العمل ثم لقيته بعد ذلك بأسبوع .. فهالنى امره .. اذ وجدته قد أصابه هزال شديد وبدا شاحب الوجه غائر العينين .. وسألته فى دهش عما أصابه .. فأجاب لاشىء .. وعدت ألح عليه فى السؤال قائلا :

– لابد أن يكون هناك شىء .. أما زالت تقع تلك المحادثات التليفونية ؟

وتنهد الرجل تنهيدة طويلة كمن يرزح تحت عبء ثقيل ، ثم قال فى ذهول :

– فى كل مكان أذهب اليه .. أجد منها رسالة تليفونية تنتظرنى .. فى المقهى .. وفى النادى .. وفى المكتب .. وفى المنزل .. وأؤكد لك ياسيدى أن المحادثات لايمكن أن تكون مزحة مازح .. ففى معظم الأحيان أجد فيها اشياء عن الماضى لايعرفها الا هى ، وأنا ..

– قد تكون المسألة مجرد توارد خواطر .

– مع من ؟ انها تذكرنى أحيانا بأشياء أكون قد نسيتها تماما .

– ولكن هذه الأشياء لاشك موجودة فى عقلك الباطن .

– ياسيدى ! لاتدعنى اتهمك بالسخف ! من تظن ذلك الذى يظل يطاردنى بين القاهرة والمعادى لينقب عما فى عقلى الباطن لكى ينقله الى فى التليفون بعد ذلك ؟ . ثم هناك أمر آخر ، هل تصدق أننى ذهبت لزيارة بعض الأقارب فوجدتهم فى حالة ذعر مخيف وأخبرونى أنها قد طلبتنى قبل ذلك بلحظات وأن من ردت عليها استطاعت أن تميز صوتها تمام التمييز . انها تعرف كل مكان أذهب اليه ، حتى ولو ذهبت اليه فجأة .

ولم أدر بم أجيب الرجل .. فقد كانت أعصابه محطمة ، ولم يكن هناك فائدة من الحديث معه .. وعندما فحصته طبيا وجدته سليما معافى ليس به الا اجهاد جسمانى ناتج عن الأرق .

وهدأت روعه بعض الشىء وحاولت أن أفحص المسألة معه فى هدوء ... قلت له :

– هب أن ذلك الذى يطلبك حقا زوجتك .. ماذا تظنها تريد منك ؟

قلت ذلك وأنا أتوقع منه أن يجيب بأنها تريده الا يتزوج .. ولكنه هز رأسه قائلا :

– لاشىء .. انها لم تذكر ذلك الشىء الذى قد خطر ببالك .. كل ما تطلبه أشياء بسيطة تافهة كالتى كانت تطلبها فى حياتها .. أو تذكرنى بأن أفعل كذا وكذا .. ولاشىء أكثر من ذلك .. ويخيل لى أنها بذلك تحاول أن تقحم نفسها فى حياتى مرة أخرى وأن تستعيد نفوذها على .

– وماذا يخيفك من ذلك .. فدعها تفعل كما تشاء .. حتى تمل من تلقاء نفسها وتتركك .

– ياسيدى العزيز .. ان أكثر ما أخشاه أمر واحد .. ان محادثاتها تقترب منى شيئا فشيئا .. أعنى أننى لا أكاد أذهب الى مكان حتى يخبرونى

أنها تحدثت منذ دقيقة أو دقيقتين .. ولست أدرى والله ماذا يمكن أن يحدث لى اذا ما رفعت السماعة ذات مرة .. فسمعت صوتها ..

أجل لشد ما يخيفنى ذلك فما أظن أن هناك امرءا قد خاطب الموتى قبل ذلك .. ان ذلك الأمر يسبب لى ذعرا شديدا .

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى أبصره فيها الرجل على قيد الحياة . فقد رأيته بعد ذلك عندما استدعانى الخادم . فوجدته ممددا على مقعد بجوار التليفون وقد تدلت السماعة بجواره .. وارتسمت على وجهه علامات ذعر شديد .. وقال الخادم انه سمع جرس التليفون يدق فى المساء .. ثم سكن الرنين فأدرك أن سيده لابد أن يكون قد أجاب عليه .

وفى الصباح وجده على حاله تلك وقالوا ان الرجل قد مات بالسكتة .. ولم أستطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من الحديث التليفونى ؟ من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ . ولم ؟

★ ★ ★

وصمت الطبيب وارتسمت على وجوهنا علامات دهش شديد .. ورأيتنى أفكر فى كل ما قال .. وأحاول أن أجد له تفسيرا .. انى شخصيا لا أومن بالأرواح ولا بالعالم المجهول .. ولكنى أومن بالبشر ، وبعقل البشر ، ورداءة البشر .. لست أدرى لم ذهب ذهنى .. الى أقارب الرجل الذين كانوا يكرهون زواجه فى المرأة التى كانت على وشك أن يتزوج بها ثانية .. الا يمكن ان يكونوا هم الذين دبروا تلك المحادثات التليفونية لاخافة الرجل حتى حطموا أعصابه .. الا يمكن أن تكون واحدة منهم هى صاحبة المحادثة التى تسببت فى قتله ؟ أم ترى أن الصوت كان حقا من العالم المجهول ؟ . من يدرى ؟

★ ★ ★

هذا البيت لي

كم أود الانطلاق من هذه الدار ..
أن روحي حبيسة فيها . انى أود
الانطلاق الى ماهو أكثر رحابة
وسعة .

استقر بهم المقام أخيرا فى هذه الدار الرحبة الواسعة بحلمية الزيتون .. ولم يكن صاحبنا ليصدق انه يستطيع الحصول فى هذا الوقت الذى استبدت فيه أزمة المساكن وارتفع ايجارها على مثل هذا المسكن بمثل هذا الأجر ..

من يصدق هذا ؟ «فيلا» من بابها .. خمس حجرات متسعة وبدروم وحديقة مترامية الأطراف بخمسة جنيهات وبلا «خلو رجل» .. لقد كانت بلاشك صفقة عجيبة .. أغلب الظن أن أحدا لايعلم بخلو الدار ، والا لما استطاع الحصول عليها بمثل هذه السهولة .. انها مسألة حظ لا أكثر ولا أقل .

ومضت الأيام القلائل الأولى ، والزوجة منهمكة فى تنظيف الدار وتنظيم الأثاث بمساعدة الخدم .. أما هو فقد جعل الحديقة من نصيبه ، فانهمك هو وابنته فى تشذيبها وتهذيبها واصلاحها بعد طول اهمال ..

وانصرم الأسبوع الأول وهم فى حركة دائبة حتى أعادوا الى الدار رونقها وجمال مظهرها فأحسوا بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ومرت بهم الأيام ، قريرين هانئين . وجلس الأربعة ذات مساء فى الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة ، وقد اضطجع الأب على أحد المقاعد المريحة ومد ساقيه على حافة الشرفة ، وجلست الأم وبيديها ابرتين وقطعة من الصوف وبكرة من الخيط تنسج له صديريا ، وبجوارهما ركع الابن والابنة – فى الثانية عشرة والتاسعة من عمرهما – يلهوان باحدى اللعب ..

وندت عن الأب تنهيدة ملؤها الارتياح ، وقال فى لهجة راضية :

– هذا مكان نموذجى للكتابة .. ان حجرة المكتب بذلك المنظر الذى تطل عليه .. والهدوء الذى يسودها .. لاتصلح الا لأن تكون مهبط وحى .. ولشد ما أخشى الا ينسب الفضل بعد ذلك فيما أكتب لى .. بل للمكان الذى اكتب فيه .. اذ يبدو لى أن أى انسان يحل به سينقلب نابغة عبقريا .

ولم يكن صاحبنا بالكاتب المقل أو المرفه الذى لايستطيع أن يكتب الا فى أجواء معينة ، ولكنه مع ذلك كان يصاب فى بعض الأحيان بقحط ذهنى .. يجعله فى حالة ركود تام .. ولم يكن يخشى بذلك أن يموتوا جوعا .. فقد كان له دخل ثابت يقيهم شر العوز .. ومع ذلك فقد كان يكره أن يتوقف عن الكتابة .. اولا : لأنه يجد فيها متعة .. وثانيا .. لأن المزيد من الكتابة يعنى المزيد من النقود .. وما من انسان – كائنا من كان – لايريد مزيدا من نقود .

وضحكت امرأته وقالت :

– أجل .. ان المرء ليحس فيه هدوءا عجيبا ! . بعد هذا الضجيج الذى قاسيناه سنينا فى بيت «العباسية» .. ضجيج الترام وصخب العربات والأوتوبيسات ، وصياح الباعة ، أن ما نحس به لاشك رد فعل لطول ما ملأ آذاننا من ضجة دائمة لاتهدأ .

وصمتت لحظة ثم أردفت وهى تتنهد فى ارتياح عجيب ، ومازالت أصابعها دائبة فى عمل التريكو :

– هذا البيت كان لى أمنية العمر .. كنت أتمنى أن أسكن فى «فيلا» ذات حديقة غناء .. لايشاركنا فيها انسان .. كنت أتوق الى هذه السكينة وهذا الخلاء

وتلك الشمس التى تسطع فى كل مكان من أنحاء الدار .. والهواء الطلق الذى يسرى فى انحائها ، والى تلك الخضرة والنظرة التى تمتد على مدى البصر .. كل هذا كان منتهى أملى ..

ومد الأب يده فتناول سيجارة من علبة على منضدة بجوارها واشعلها ، ثم أخذ منها نفسا طويلا وقال معلقا :

– وأعجب ما فى الدار أنك لاتحسبين بها وحشة أمثالها من الدور العتيقة الواسعة .. أو المنازل الخلوية ، فهذة الحجرات الرحبة والجدران الضخمة والأسقف العالية .. وهذا الفضاء من حولنا .. كان يجب أن يكون له وحشته .. ومع ذلك فما أحسست له وحشه قط .

– هذا نفس ماأحس به .. أمر عجيب ! انه دائما (ونس) ماشعرت بالوحده فيه قط .. وماأحسست وأنا فى حجرتة أن الحجرة خاليه .. واننى وحدى .. رغم انه قد لا يكون بها سواى ان جدرانه السميكة لا تمنع الضوء .. فليس به تلك الأركان المعتمه التى تعودناها فى الدور القديمه ، انى ما أحببت بيتا كهذا وما أحسست بالاستقرار كما أحسست فيه .. انه كأنما قد بنى من اجلنا .. حتى الأثاث يبدو فى الحجرات كأنه قد عمل خصيصا له .. لقد منحنا الله به نعمه كبرى .

وران الصمت ، وسادت السكينة ، لا تقطعهاالا هبات من نسيم الصيف تعبث بأطراف الشجر ، أو صيحات تنبعث من الطفلين الراكعين المنهمكين فى اللعب بين آونه واخرى .

وشردت الام بذهنها .. واستعادت لنفسها قولها :

«ما أحسست وأنا فى حجراته أن الحجرة خالية» .

وكيف يحس انسان بالوحدة فى هذه الدار .. ؟

انها تذكر ذات مرة .. أو مرتين .. وقد وقفت أمام دولاب الفضية تلمع ما به من أوان .. انها أحست أن زوجها أو أحد الأطفال يجلس على

المنضدة .. واستمرت منهمكة فيما تقوم به .. وهى لاتشك أن هناك انسانا معها فى الحجرة حتى التفت فجأة .. فأدهشها الا تجد هناك أحد .

ومرة اخرى وقد هبطت الى الحديقة .. ثم عادت الى الدار فوجدت زوجها يقف بالباب وقد حملق فيها دهشا .. وسألها :

– متى هبطت الى الحديقة ؟ لقد خيل الى أنك تجلسين فى الصالة .. !

وهكذا .. دائما .. لا يكاد الانسان يشعر أنه وحده .. بل يحس دائما أن هناك .. من يجلس هناك .

وتنبهت السيدة من شرودها على صوت الخادمة تقول :

– العشاء جاهز .

وجلس الأربعة على المائدة ، وبدأ الابن والابنة عراكهما الطبيعى على من يجلس على الكرسى ، أو ذاك .. أو على من يأكل هذه القطعة ، أو تلك .

وصاحت بهما الأم بانذارها التقليدى الذى لم يكن لها بد عنه :

– هس .. ويعدين .. ؟

وجرى الحديث خلال العشاء بين الأربعة ناعما لطيفا لايخلو من الضحك والنهر والزجر والشكوى والمطالب حديث نموذجى لعائلة قريرة .

وصاح عمر – الابن – مبلغا احدى شكاواه لابيه :

– «بابا» .. «كوثر» كسرت سن القلم الذى أعطيته لى .

واندفعت كوثر – الابنة – مدافعة عن نفسها :

– أبدا «يابابا» هو الذى كسره .

– كذابه .

وقال الأب مهدئا :

– لا بأس سأحضر لك بدله .

ومضت فترة صمت قصيرة .

بدا «عمر» كأنما قد سرح بذهنه فى مسألة عويصة ، ثم سأل فجأة :

- بابا ..

- نعم .. ؟

- أليس أسوأ من الوحدة .. الا تستطيع الوحدة .. عند ما تريد الوحدة .. ؟

- لا أفهم ما تعنى .. ؟

- ألم تقل «ماما» أن البيت «ونس» وأننا لانحس بالوحدة أبدا .. ؟

- أجل ..

- هذا شيء يضايق .. فأحيانا يريد الانسان أن يكون وحده .. ولكن هذا البيت لانستطيع .. لابد أن يكون هناك أحد معنا ..

- لم تقصد «ماما» أن هناك أحدا معنا فعلا . بل هو مجرد شعور «بالونس» .. مجرد احساس بالراحة لأننا لسنا وحيدين .

- ولكنى أحس بأن هناك أحدا معنا فعلا .

- ماذا تعنى أيها «الحمار الصغير» .. ؟ هذا وهم ..

- ليس وهما .. لقد وضعت بالأمس علبة دودة القز على الدولاب فوجدتها فى الصباح ملقاة من النافذة .. ووجدت العلبة فارغة فى الحديقة ولم أجد الدود .. وأول أمس وجدت كاوتش الدراجة ممزقا .. ووجدت زجاجة الحبر قد سكبت على كراسة الرسم .

ونظر الأب الى «كوثر» بعين الاتهام .. ولكنها قالت بصوت فيه رنة بكاء :

- والله يا «بابا» مانا ..

وقال «عمر» مؤكدا :

- ليست هى .. انى متأكد .

وتدخلت الأم :

- قد يكون أحد من الخدم .. لم لم تخبرنى حتى أعرف من منهم فعل ذلك ؟

- أنا متأكد أن أحدا منهم لم يفعل .. ان الذى فعل .. هو ذلك الذى لايتركنا منفردين .. انه ذلك الذى يسبب لنا «ونساء» ، والذى نحس به أنه دائما هناك .. انها هى لاشك فيها .. فانى أحس أنها تكرهنى .

وصاح به الأب ضاحكا فى سخرية :

- من «هى» هذه التى تتحدث عنها ؟ ثم ماذا يجعلك تظن انها «هى» وليس هو .. ؟ هل تظن أن بالدار عفريتا .. أيها الأبله ؟ هذه أوهام عجائز .. ! ليس هناك شىء اسمه عفاريت .. هل أنبأك أحد من الخدم ان الدار مسكونة ؟

واجابت كوثر :

- لقد سمعنا بائع اللبن ينبىء «أم على» أن البيت به عفريتة .

- الحمار ابن الحمار .. ! لا تصدقا كلمة واحدة مما قال .. هذه كلها خرافات .

وذهب الأطفال للنوم ، ولم ينس الأب أن ينادى «أم على» ويزجرها بشدة ، وينهاها عن أن تخيف الأطفال مرة ثانية بهذه الخزعبلات التى يسمونها عفاريت .. وأجابت الخادمة :

- وانا مالى .. دا بتاع اللبن .

وفى اليوم التالى روعت الأم وهى فى المطبخ بصرخة استغاثة ، وهرولت الأم فاذا بابنها معلق فى فروع احدى الاشجار ، واذا بالسلم الخشبى ملقى على الأرض .

ورفعت له السلم ، وهبط الصبى وجلا خائفا ، وأمسكت الأم بأذنه تعركها فى غيظ قائلة وهى تلهث من فرط الخوف :

- هذه المرة كان عنقك يوشك ان يدق .. ألم أقل لك مائة مرة .. كف عن هذه الشقاوة والشعبطة على الأشجار !

وجرت دمعتان على خد الطفل محدثتين مجريين فى وجهه المترب وقال وهو ينشج :

- لقد قلت لك أنها تكرهنى ، انها هى لاشك التى دفعت السلم من أسفل قدمى .. !

وأحست الأم برجفة تسرى فى جسدها ، وسألت فى ذعر :

- من هى التى تكرهك ؟ لابد أن السلم قد انزلق من تلقاء نفسه .

- أبدا .. جربى .. لقد كان مثبتا فى الأرض جيدا .. انها هى .. دائما تلاحقنى بهذا العبث .

وعندما سمع الأب بما حدث هذه المرة كان أقل سخرية .. ونظرت اليه الأم فى دهشة وهو يتلقى النبأ فى صمت واطراق .

وأخيرا رفع رأسه قائلا :

- لاشك أن هذا بله منا . اننا سعداء جدا .. وان البيت نموذجى .. فكيف نحاول أن نفسده بهذه الأوهام .. مارأيك ؟ هل نترك البيت ؟ هل تعتقدين حقا أنه مسكون ؟ وأن به عفريتة تكره الولد ؟

- لا أستطيع أن أصدق مثل هذا القول .. وان كان ذلك لايمنع من أنه يسبب لنا قلقا ذهنيا .. يجعل راحتنا وهدوءنا موضع الشك .. من ناحيتك أنت ، أريد أن أسألك هل كتبت كما تود ؟ هل أعانك على الكتابة ؟ هذه نقطة هامة يجب الا نغفلها اذا كنا ننوى التفكير فى المسألة جديا .

- حتى الآن .. لا .. لأنى لم انو الكتابة فعلا .. ولم اجرب بعد .. ولكنى سأحاول اليوم الكتابة .

وفى هذا اليوم أغلق الأب على نفسه حجرة المكتب .. ولم يغادرها الا فى منتصف الليل . وعندما فتحت الأم عينيها لتبصره يأوى الى فراشه .. بدا لها متعبا مكدودا .. فلم تشك فى انه استطاع أن يقضى وقتا مفيدا ، وأنه لابد قد انتج شيئا .

وقضى اليوم الثانى بأكمله فى مكتبه .. لم يغادره الا لتناول الطعام . وكان يبدو عليه الارهاق ، وبدا متثاقلا خابى العينين ولم يكن منظرة يبعث كثيرا على الاطمئنان والسعادة .. كان شبه محموم .

وفى اليوم الثالث لم يغادر المكتب حتى الطعام .. ولم يتناول سوى فنجان من القهوة ، وفى المساء ترك الحجرة وسار الى أمراته محطما مهدما كأن على كتفيه ما أنقض ظهره . ومد يده اليها فى سكون بورقه مكتوبة ، وقال فى صوت ضعيف خافت :

- هذا كل ماستطعت كتابته .. الحمد الله .. لقد انزاح العبء .

وبعد لحظات كان يغط فى نومه .

وفحصت المرأة الورقة فى دهشة . كانت مكتوبة بخط يده وكانت الكتابة متناثرة على الورقة يمينا ويسارا ، وكان الخط رديئا كأنما كتبه بيده اليسرى أو كأنه كان يكتبه وهو يرتجف محموما .

وبدأت المرأة فى القراءة :

«هذا البيت لى .. هذا البيت لى .. لى وحدى .. لقد كان دائما لى .. لو استطاع أبى لوهبه لى .. ولما ساء أخى هذا .. فما كان البيت يهمه كثيرا ، فقد قضى حياته بعيدا عنه .. انى لم أكره أخى قط ، رغم أنه ورثه دونى ، فقد سمح لى بالبقاء فيه ، ولقد أسفت على موته .. ولم أحاول أن أكره امرأته كذلك .. اذ كانت امرأة تافهة لاتستحق الكره .. وكانت تنوى أن تغادر الدار بعد موته ، ولكنها بقيت من أجل ابنها الذى آلت اليه الدار بعد موت أخى .. لقد كنت أكرهه .. كان طفلا مقلقا .. مزعجا ، وكنت أتمنى أن أهدأ وحدى فى الدار وأنعم بسكينتها .. وأخذت انتظر وأنتظر حتى آلت الى أخيرا ..

بعد أن سقط الصبى من السلم ودق عنقه .. وبقيت فى الدار وحدى .. كما كنت أتمنى دائما .. ومع ذلك فما أحسست بأية متعة .. انى قلقة حائرة .. انى ضالة شاردة .. انى لم أقصد قتله .. لقد دفعت السلم من أسفله ولكنى لم أقصد قتله .. لقد أخذ الندم يحرقنى بعد ذلك حتى أقدمت على الانتحار .. ولكنى مع ذلك لم أحس راحة ولا استقرار .. كم أود الانطلاق من الدار .. أن روحى حبيسة فيها .. أود الانطلاق الى ما هو أكثر منها رحابة وسعة .. رب خلص روحى من هذا الأسر . هذا السجن الذى طالما تمنيت البقاء فيه .. انى أحس الآن بشىء من الراحة بعد أن اعترفت بجرمى .. وبعد أن لفظت تلك الجمرات التى تحرق نفسى . الرحمة يارب» .

وأحست الأم بيدها تمزق الورقة اربا .. وهبت نسمة ذرتها فى الهواء .. وعندما استيقظ الزوج بدا كأنه قد أبل من مرض طويل وداء عضال .. والتصقت به الأم وهى ترتجف وسألته فى صوت خافت :

- هل نغادر الدار ؟

- لا داعى .. لقد انطلقت هى ..

ومنذ ذلك اليوم لم يعد يحس أحد من أهل الدار بأن هناك دائما من يجلس هناك .

★ ★ ★

خذني معك

فالتفت اليها مشدوها . ووضعت العلبة على المنضدة .. واقتربت من الفتاة وهمست بها «ما بك ؟» فأجابتني «أنقذني . خذني معك» !

دعاني صديق فنان ذات يوم لزيارة احدى الدور القديمة فى حى «طولون» لنشاهد بعض آيات الفن القديم . واتفقنا على أن أمر بداره فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وتناولت الغداء فى ذلك اليوم ثم استلقيت فى غفوة قصيرة استيقظت على أثرها فاذا بالساعة قد بلغت الرابعة .

وارتديت ملابسي على عجل ، وأسرعت الى دار صاحبى . ولكنى أنبئت أنه انتظرنى طويلا فلما طال تأخرى اضطر للخروج .. فلم أشك فى أنه قد سبقنى الى الدار التى نقصدها فأخذت طريقى اليها .

ووصلت الى الدار .. ووقفت على درجها الحجرى المتسع .. أتأمل جدرانها الضخمة الشاهقة المبنية على الطراز العربى القديم .. وقد علت الأتربة حجارتها وكساها القدم لونا داكنا موحشا ، فبدت كأنها احدى القلاع الحصينة .

وصعدت الدرجات المؤدية الى الباب ووقفت برهة مترددا وقد تملكتنى رهبة وخشية ، ثم مددت يدى فطرقت الباب الخشبى الضخم بالمقبض الحديدى

المثبت فيه .. ووصل الى أذنى صدى الطرقات ثم ساد بعد ذلك سكون عميق .. جعلنى أجزم أنه ما من أحد بالدار .. وان صاحبى لاشك لم يصل بعد ، وهممت بأن أعود أدراجى عندما وصل الى أذنى من الداخل صوت أقدام تقترب ، وفتح الباب .. وبدا لى من خلاله عبد أسود .. قد وضع على رأسه عمامة ضخمة بيضاء ، وارتدى سروالا واسعا وسترة مطرزة بالقصب .. وبدا لى كخدم القصور فى العصور الغابرة .

ونظر الى العبد نظرة فاحصة ثم وجدته ينحنى فى احترام بالغ ويطلب منى التفضل ..

دلفت الى الداخل فاذا بى فى صالة رحبة متسعة الأرجاء عالية السقف قد شاعت فيها الظلمة ، لا يكاد يصل اليها الضوء الا من خلال النوافذ العالية ذات الزجاج الملون .

واستطعت أن ألمح على الضوء الباهت النقوش العجيبة والزخارف الرائعة التى نقشت على السقف والجدران . وعبرنا الصالة التى لم يبد لى فيها شىء من الاثاث الى ممر ضيق طويل حيث وجدت عبدا آخر شديد الشبه بالخادم الأول وقد انحنى لى عندما مررت به حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه .

وتملكنى دهش شديد .. فما كنت أتوقع أن أرى فى الدار آثارا حية .. كهؤلاء الخدم الذين يبدون لى كأنهم جزء من الدار بل كنت أتوقع أن أرى أحد موظفى الآثار يتولى ارشادنا والشرح لنا .

وأدهشنى أكثر من ذلك الا أجد فى الدار أى أثاث أو أى مظهر من مظاهر الحياة يستدعى وجود هؤلاء الخدم «الأرستقراطيين» بل كانت الدار خاوية ، حتى بدا لى الخدم كأنهم بعض العمد أو بعض التماثيل .

وانتهيت من هذا الدهليز الى حجرة أخرى.. وجدت فيها أول مظهر من مظاهر الحياة .

وتلفت حولى فى شىء من التردد والخشية .. فوجدت الحجرة قد رص بها أحد تلك الأطقم المذهبة الدقيقة الصنع .. وقد غطيت أرضها بسجاجيد

عجمية فاخرة تغوص القدم فيها . وعلقت على النوافذ والأبواب ستائر فخمة زرقاء .

ووقفت في منتصف الغرفة حائرا لاأدرى ماذا فعل ، فلقد تركنى الخادم الأسود الذى كان يتولى قيادتى .

وبعد فترة أحسست بوقع أقدام تقترب .. وفوجئت بصوت نسائى يهتف من ورائى :

- أهلا .. وسهلا .

وتلفتٌ في دهشة .. فوقع بصرى على امرأة فى منتصف العمر ، وفتاة لاتتجاوز العشرين .

وتملكنى ذهول شديد .. فما كنت أتوقع قط أن أرى فى الدار نساء .. وبدأ الأمر يختلط على .. فلم أشك فى أننى قد أخطأت الدار .

وهممت بأن أقول شيئا للسيدة أوضح به ما يحتمل أن يكون قد حدث من خطأ ، ولكنى وجدتها تقترب منى فتشد على يدى مرحبة ، وتقول باسمة :

-- لم أشك فى أنى سأعرفك لأول وهلة .. فان بك شبها شديدا من أبيك .

ولقد كان بى حقا شديد شبه بوالدى .. ولكن كيف عرفتنى السيدة وكيف عرفت والدى .. لقد أوشكت أن أجن من فرط الدهش .

وجلست السيدة والفتاة واتخذت مجلسى بجوارهما واخذت افحصهما بنظرات سريعة فوجدت السيدة نصفا في العمر وفى الشكل وفى الحجم ، ولكن آثار الارستقراطية تبدو عليها واضحة فى كل حركة لها ولفتة ، أما الفتاة فقد استرعت منى التفاتا أكثر ، اذ كانت جميلة حقا .. وان كان جمالها من نوع حزين صامت ، ففى جسدها نحول ، وفى وجهها شحوب ، وقد تهدل شعرها الحالك على كتفيها ، وبدت عيناها تشعان بسحر عجيب .

ولم تكد تمضى لحظة قصيرة تبادلنا خلالها بضع كلمات ترحيب حتى أقبل خادم يدعونا للشاى ، ووجدت السيدة تنهض وتتقدمنا الى حيث أعد الشاى .

ودلفنا من حجرة الى أخرى حتى وصلنا فى النهاية الى شرفة فسيحة من النوع القديم المسمى «بالمشربية» ، تتكون من خشب دقيق الصنع كأنه الدنتيلا ، وبالشرفة أريكة متسعة قد فرشت بالحشايا والوسائد المغطاة بالأطلس ، وفى وسطها منضدة مستديرة من المرمر ثلبتة القوائم قد وضع عليها غطاء رقيق مشغول «بالبرودريه» وصفت عليها ادوات الشاى من أطباق مذهبة وأكواب فضية منقوشة ، وفناجين رسمت عليها رسوم دقيقة .

وجلسنا حول المنضدة وبدأ الخدم يحضرون الشاى فى ابريق فضى جميل ثم بدأوا يحضرون الفطائر والأطباق الملأى بأنواع الفاكهة الفاخرة .

وخيل الى أن المسألة انما هى أضغاث أحلام .. فقد ذكرنى كل هذا بما سبق أن قرأته فى ألف ليلة وليلة .. وقلت لنفسى ماذا يضيرك أن يكون حلما أو غير حلم أقبل على المتع التى أمامك واذكر قول الخيام «ويلنا أن ضاع يومى من يدى» .

وبدأت السيدة الحديث ففهمت منها أن بين أسرتينا ودا قديما .. وأننا كنا نوشك أن نكون أنسباء ، فقد كان جدى عى وشك الزواج من أمها .. لولا أن حدث سوء تفاهم بين أبويهما أدى الى نزاع شديد ..

وفهمت كذلك أن الفتاة ليست ابنتها ، كما كنت أعتقد ، بل أبنة أخيها وهى تتكفل بها بعد أن مات أبوها وأمها .

وانتهينا من تناول الشاى عندما حضر احد الخدم فانحنى أمام السيدة ثم اقترب منها وهمس فى أذنها بضع كلمات فوجدتها تنهض مستأذنة قائلة أنها ستعود بعد بضع دقائق .

وانصرفت السيدة .. ووجدت نفسى قد خلوت الى الفتاة الحزينة الشاحبة التى تبدو فى رقتها كأنها طيف .. وأحسست بدافع قوى يدفعنى الى الحنو عليها والى أخذها بين ذراعى واسناد رأسها على صدرى .. ولكن الحياء كان يمنعنى .. وبدأ الارتباك يتملكنى .. وأخرجت من جيبى علبة سجائرى محاولا التشاغل بالتدخين .

ولم أكد أفتح العلبة حتى سمعت الفتاة تهتف باسمى هامسة فى لهجة ملؤها المرارة والحزن ، فالتفت اليها مشدوها .. ووضعت العلبة على المنضدة .. واقتربت من الفتاة وهمست بها «ما بك ؟» فأجابتنى «أنقذنى .. خذنى معك» ! .

ومددت يدى فضغطت على يدها .. ووجدتها قد نهضت وسارت بى خارج الشرفة هابطين بضع الدرجات المؤدية الى الحديقة ..

ونفذ الى أنفى عبق الزهور فملأنى نشوة وزاد مشاعرى ارهافا ، وجلست والفتاة على مقعد تحت احدى الخمائل .

وتحدثت الفتاة فأنبأتنى أن عمتها سترغمها على الزواج من عشيق لها – للعمة – تخشى أن يهجرها فهى تود ان تربطه بالفتاة الصغيرة حتى تضمن بقاءه الى جوارها .. وانها تلقى من عمتها عذابا أليما .

وأحسست والفتاة تبثنى شكواها .. كأن هناك مغناطيسا يشدنى اليها ، وبدا لى كأننى لم ألقها منذ لحظات فقط .. بل كأننا أحباء العمر .. ووجدتنى أمسك بيدها فأضعها على شفتى ثم احتويت جسدها الرقيق بين ذراعى .. وضممتها الى فى رفق وأسندت رأسها الى صدرى ، ودفنت وجهى فى شعرها . ومضت لحظة والفتاة هادئة فى صدرى .. ثم رفعت الى عينيها العجيبتين وقد كستهما عبرات تترقرق .. ووجدت شفتى تقتربان من شفتيها فتضغطان عليهما .. ثم أغمض كلانا عينيه ورحنا فى نشوة .

وفجأة سمعت صوت العمة ينادى الفتاة ووجدتها تقف منا على قيد خطوات .

وفزعت الفتاة .. ورأيتها تنظر الى المرأة نظرة متوسلة .. كأنها تسألها شيئا ، ولكن السيدة هزت رأسها فى جمود وقسوة وأجابت فى اقتضاب :

– اذهبى ..

وسارت السيدة ، وسرنا وراءها حتى وصلنا الى الشرفة فسألتنى أن اتبعها لتريني بقية الحجرات .

وعدنا أخيرا الى الشرفة فلم أجد الفتاة ، بل أنبأنى أحد الخدم أنها تعتذر الى لاصابتها بوعكة مفاجئة ، وأنها كلفته أن يحمل الى سلامها .

وأحسست بلوعة شديدة ، وتمنيت لو أدفع نصف عمرى لأرى الفتاة الحزينة الجريحة القلب .. ولكن السيدة مدت الى يدها مودعة سائلة اياى أن أزورهما دائما .

★ ★ ★

وخرجت من الدار .. وسرت فى الطرقات .. وأنا أجد نفسى فى تمام اليقظة فلا حلم ولا وهم .. وكان أول ما فعلته هو أن ذهبت الى بيت صاحبى فقصصت عليه كل ما حدث .

وقهقه صاحبى عاليا وانبأنى أن البيت كانت تسكنه حقا العائلة التى ذكرت اسمها ، ولكن ذلك كان منذ سبعين عاما ، ثم أكد لى أن كل ما رأيت انما كان وهما أو حلما .

وفى اليوم التالى ذهبت واياه الى الدار ، ووجدنا أحد موظفى الآثار فى انتظارنا ودخلنا الدار بعد أن فتح الباب بمفتاح فى جيبه .. وأحدث الباب صريرا وكأنه لم يفتح منذ شهور أو أعوام .

وسرت فى الدار فوجدت بها شبها بالدار التى زرتها بالأمس ولكن الأتربة كانت تعلو الأرض والجدران ولم يكن هناك أى أثر للحياة ، لاخدم ، ولا سكان ، ولا حجرة استقبال ولا شرفة .

ونظر الى صاحبى ضاحكا فى سخرية .. وهززت رأسى فى دهش شديد وأقنعت نفسى أن كل ما رأيت انما كان أوهاما ، وانتهينا من التجول فى الدار .. وهممنا بالخروج .. عندما سألت الدليل عن حديقة الدار .. فأنبأنا أنها حديقة مهملة ليس بها ما يستحق الرؤية .. ثم دلف بنا فى عدة ممرات ليقودنا اليها .. وفجأة وجدت نفسى فى شرفة الأمس ! .

أجل ! . لقد كانت هى نفس الشرفة .. وقد بدأ منها منظر الحديقة والخميلة والمقعد الذى جلسنا عليه .. وبدت فيها الأريكة ولكنها كانت عارية من الحواشى والوسائد ، وأشرت لصاحبى الى آثار الأقدام المزدوجة التى تبدو بالحديقة .. وقلت له : «ما رأيك» .. «فأجابنى» : «هذه حتما هى آثار الجناينى الذى يروى الحديقة» .

وأحسست بشىء من الخذلان .. وتلفت فى الشرفة فاذا بالمنضدة المستديرة المصنوعة من المرمر قد توسطتها خالية من كل شىء . لا مفرش .. ولا أدوات للشاى ولكن شيئا واحدا هو الذى كان عليها وهو علبة السجائر ، علبتى أنا التى نقش عليها اسمى .. والتى أخرجتها بالأمس ثم تركتها على المنضدة .

وتناول صاحبى العلبة فى دهش شديد .. ولم ينبس ببنت شفة .. ماذا حدث ؟ وكيف ؟ من يعلم !

ومر الحادث دون أن أجد له تفسيرا أو تعليلا .. قد يكون وهما أو حلما ، ولكن شيئا واحدا هو الذى يجعلنى أكاد أوقن بأنه حقيقة .. وهو تلك الصور التى أرانى اياها الدليل لأهل الدار .. والتى وجدت واحدة منها صورة طبق الأصل للفتاة الشاحبة الحزينة .. التى احتويتها بين ذراعى فى الخميلة .

★ ★ ★

مات قريرًا

لقد رأيت طفلة ، أو شبح طفلة بيضاء باهتة ، تنحنى على الفتى الراقد باسمة وتمد يدها فتأخذ منه القرط .

بدأت دباباتنا سيرها فى عجلة تجاه الشمال ، فقد أنبأتنا الرئاسة أن العدو احتل ببعض عرباته موقعا يشرف على الطريق وأن علينا اجلاءه بكتيبتنا حتى نطهر الطريق ونعيد المواصلات بيننا وبين القوة الموجودة شمالا .

كان الوقت قبيل الفجر ، ولم نؤخذ بالأمر على غرة ، فقد قضينا الليل فى يقظة دائمة ، اذ كانت المعركة دائرة على أشدها ، وكان الدوى يسمع فى كل مكان ، واللهب يبرق هنا وهناك مبددا حلكة الليل .

كان العدو قد بدأ هجومه الغادر .. واستعر أوار المعركة فى شتى المواقع .. وأخذت مشاتنا ومدفعيتنا تصلياته نيرانهما فتردانه على أعقابه ملوما محسورا .. مخلفا وراءه بساطا ممتدا من جثث القتلى ، تاركا الأرض وقد بدت مكدسة بالأجساد كأنها ورقة الذباب .

وقضينا الليل نرقب وننتظر .. معدين عرباتنا ودباباتنا للانقضاض فى أية لحظة .. حتى وصلنا الأمر قبيل الفجر بالانطلاق لطرد العدو .. فانطلقنا .

وطلبت من اليوزباشى «محسن» قائد ثانى الكتيبة أن يأمر السرية الأولى بأن تتخذ مكانها فى المقدمة لكى تستكشف مواقع العدو وتعجم عوده وتستطلع قوته ، على أن يكون قائدها على اتصال دائم بنا لكى ينبئنا اولا بأول بكل ما يعرف .

وبدا عليه التردد ، ثم تساءل قائلا :

– ان السرية الأولى يقودها «قدرى» وهو كما تعلم مريض ويتولى قيادتها بدله الشاويش «قرشى» .. شاويش السرية .. فهل ندعه يقوم وحده بالاستكشاف ؟ .

وفكرت برهة ثم أجبته :

– دع السرية الثانية تعمل فى المقدمة ، واجعل الأولى فى الاحتياطى .

وهم بالانصراف لتنفيذ الأمر ، ولكنه توقف كأنما قد خطر له خاطر جديد وقال متسائلا :

– ولكن لم لا أتقدم أنا مع السرية الأولى للقيام بالاستكشاف ؟ .. هل لديك ما يمنع ؟

– أبدا .. اذهب اذا شئت .

وبعد لحظة كان قد اتخذ مكانه فى احدى دبابات السرية الأولى متوليا قيادتها ، متقدما بها على رأس الكتيبة لاستطلاع قوة العدو .

ووقفت فى برج دبابتى أرقبه يتباعد بسريته .. وبدت الدبابات على خط الأفق سوداء قاتمة وقد علا حولها الغبار وأخذ ضجيجها يخف رويدا رويدا .. حتى لم نعد نبصر منها الا أشباحا باهتة ، ولا يصل الى آذاننا من صخبها وضجتها الا ما يشبه الهمهمة والهمس .

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. ولاحت لنا الشمس تتسلل من وراء الأفق خلف الربى والآكام .. حمراء الضوء .. أرجوانية الشعاع .. كأن بها جرحا يدمى .. وكأن اشعتها القانية دماء تراق على رمال الصحراء .

اية ياشمس ! .. لقد رأيت شروقك فيما مضى .. فكنت ابصر في حمرته لون الورود ولون الخدود .. لشد ما تنكرت وتغيرت واستبدلت بشعاع الورد شعاع الدماء .

أم ترى التغير قد أصاب العين التي تراك .. فلم تعد تبصر منك الا صورة لما حولها من دماء ولهيب ؟

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. وثارت من حولنا الضجة وعلا الغبار وانتشرت بضع دبابات ذات اليمين وذات اليسار لتحمي القوة في أثناء تقدمها .. وأخذنا نمعن في السير .. وبين لحظة وأخرى تحمل الينا رسالة من سرية المقدمة بأن العدو لم يبد بعد .. حتى وصلتنا الاشارة الايجابية الأولى تحمل في طياتها «أن العدو قد ظهر ببضع عربات عن يميننا» ، ثم رسالة أخرى «بضع عربات عن يسارنا» ورسالة ثالثة تتساءل «هل نشتبك ؟» .

وتناولت سماعة اللاسلكي ،، وطلبت «محسن» على الجهاز واستفهمت منه بشيء من التفصيل ، ثم أمرته بالاشتباك .

ووقفنا منتشرين في أماكننا واتخذت الدبابات بقدر الاستطاعة سترا من ثنيات الأرض .. وحملت الريح الى آذاننا أولى الطلقات تدوى من بعيد .. فعلمنا أن الاشتباك قد بدا .

واستمر الدوى .. يعلو حيناويخفت حينا .. ووصلت الينا الرسالة بعد الرسالة تنبئنا أن الاشتباك مستمر وأن العدو يجاوب نيراننا بما ملكت نيرانه ، وأن المعركة على أشدها متأججة اللهب مستعرة الأوار .

وفجأة وصلت الى رسالة احسست منها بهزة في جسدى كأن هناك مطرقة أصابت مؤخرة رأسي .. ولم يكن ما جاء بها أكثر من «أصيبت دباباتي» .

ولم تمض بضع ثوان حتى تلتها طرقة أخرى .. أو طعنة أخرى .. أصابت حشاي .. ولم تكن سوى «أنى أموت» .

أجل .. أن «محسن» يموت .

وثوان أخرى وتحدث عامل اللاسلكى يقول أنه قد مات .

انى أبكى وأنا أكتب ما أكتب ، رغم أنه لم يكن لدى وقتذاك فرصة لبكاء .. فقد سلبتنى قسوة الموقف كل ما بى من حس وشعور .. وكان يخيل لى أنى لم أعد من دم ولحم ، بل من حديد وحجارة .. وكنت أشبه بانسان ألقى به فى بحر من الجليد فجمدت أطرافه حتى فقد حساسيته .

فى ثوان معدودات قضى صاحبى .

أجل .. لقد انتهى فى كلمتين : انى أموت .. ثم .. مات . وكما قلت لم يكن هناك وقت لحزن أو بكاء .. أو حتى للتفكير فيمن مات .. أيا كان .. حتى ولو كان الميت أنا !

ان كل ماتبقى فينا من حس هو الاحساس بالواجب .

نحن فى عمل .. ولابد لنا من انهائه .. فاذا مات واحد منا أو متنا جميعا .. فذلك أمر ثانوى .. أو قل انه أمر مفروض . هل هناك حرب بلا موتى ؟ .. وما فائدة الطلقات والنيران والأسلحة .. اذا لم يقتل بها بعضنا بعضا .

ذلك هو الشعور الذى كان يخيم علينا وقتذاك .. شعور القسوة والجمود .. أو اللاشعور .. الذى يجعلنا نتجاوز عن الحزن لنستمر فى تأدية واجبنا .. كأننا لم يكن لنا بموتانا أدنى صلة .

وهكذا اندفعت أتمم واجبى ، آمرا احدى السرايا بالتقدم لمعاونة سرية المقدمة فى اشتباكها مع العدو ، متقدما معها .. حتى استجلى الموقف بنفسى .

وبدأنا نقترب من أرض المعركة ، ولاحت لنا دباباتنا وقد تشابكت مع العدو الرابض عن يمينها ويسارها .. وقد بدا لنا أنها قد زجت بنفسها فى مأزق حرج .. وأن العدو يوشك أن يفنيها جميعا بعد أن حاصرها بنيرانه ، ووجدت أن من الأفضل أن أحاول تطويق العدو بها ، وأن آمر بحركة التفاف واسعة النطاق حول أحد جناحيه .

وأمرت السرية بالتوقف قبل ان تتورط فى مرمى نيران العدو .. وطلبت من قائدها وهو الملازم «على يحيى» أن يقوم بحركة الالتفاف المطلوبة .. وافهمته أن لا فائدة من التقدم الى السرية الأولى لأنه سيتردى فى المصير ذاته ، وأن خير طريقة لانقاذ من تبقى منها واجبار العدو على الانسحاب ، هى حركة الالتفاف التى شرحتها له .

ووجدته ينظر الى وقد بدا فى قسماته حزن شديد ولاحت عليه علامات التردد .. كأنه يعترض على ما قلت ، ويود أن يبدى رأيا آخر ، وسألته فى عجلة :

ماذا ؟ ..

ووجدته يضغط على نواجذه كأنه يحبس فى جوفه شعورا يوشك أن ينطلق .. وعدت أسأله :

– ماذا تريد ؟

ورأيت فى عينيه طبقة لامعة من الدمع الحبيس وسألنى فى صوت مكتوم وهو يشير برأسه الى حيث السرية الأولى مازالت تتبادل الطلقات مع العدو .

– ومحسن ؟

– ماله محسن ؟

– جثته ؟ .. هل سنترك جثته للعدو ؟ .. لابد أن نحضرها .

وأحسست بالجمود الذى أصاب مشاعرى يتفتت ويذوب . وقفزت الدموع الى محاجرى وهممت – لولا بقية من تجلد – بأن اندفع فى البكاء .

لقد عدت مرة اخرى انسانا .. وهاج قول صاحبى الصغير حزنى .. وأثار مشاعرى .. وبدا لى أن من الواجب علينا أن نحضر جثة «محسن» .. ولكن كان من الجنون أن نتقدم الى أرض المعركة فى احدى الدبابات .. فقد كان غرضا ظاهرا .. وكان العدو لابد مرديها ومصيبها فى الصميم .

وكأنما ادرك «يحيى» ما يجول بخاطرى .. فقال فى اصرار وتأكيد :

– انى على استعداد أن أتسلل على قدمى وازحف الى هناك .. وأؤكد لك انى سأحضرها فى بضع دقائق .. لن نتأخر .. أؤكد لك ..

ولم يكن به من حاجة لاقناعى .. فقد كنت أنا نفسى متلهفا على احضار الجثة العزيزة .. وفى غمضة عين حزمت أمرى .. وقلت له أنى سأذهب معه .

وبدأنا التسلل والزحف .. منتفعين بسواتر الأرض والأعشاب والثنيات حتى بتنا فى منطقة النيران .

هل يستطيع انسان منكم أن يتصور الجحيم ؟

لقد كنا فيه بلا جدال !

كيف لا .. وقد كدت أوقن أنى لم أعد على قيد الحياة .. وأن ما تبقى منى ليس الا روحا تطوف بجهنم .. وساءلت نفسى فى دهشة .. انى يارب مسلم .. فماذا دفع بى الى هذا الحميم ؟

والتفت الى صاحبى الصغير فسمعته يبسمل .. فلم أشك فى أنه قد خطر على باله ما خطر لى .. وأنه قد تخيل أنه ليس سوى روح يصلى سقر !

ووصلنا أخيرا .. والنار من حولنا ومن فوقنا . ووقع بصرنا على دبابة «محسن» .

ونظرت اليه .. ونظر الى .

هل تعرفون الجمر .. الجمر الأحمر المتأجج الذى لاتبصر فيه سوادا ولا بياضا .. بل قطعة حمراء .. صافية الحمرة .

لقد كانت الدبابة كذلك .

لقد حرقت الدبابة .. ولم يكن بها أثر لدخان .. أو هباب ، بل كانت جمرة حمراء يشع منها الصهد .. وتلفح وجوهنا منها حرارة لاسعة .

ولم نتكلم .. بل بدأنا العودة واجمين فى صمت واطراق .. وقد شرد ذهنانا شرودا شديدا .

وبدأنا العودة متسللين ، كما جئنا ، وسط عاصفة النيران .

ولكن العودة لم تكن سليمة اذ أصيب صاحبى الصغير بشظية فى جنبه أردته على الأرض .. وهو يئن أنينا خافتا .

ووجدت الفتى قد راح ضحية رقة مشاعره ومشاعرى وأنه كان من الواجب على الا ألين .. وأن أترك الموتى لرحمة ربهم .. وأستمر فى واجبى حتى لا أضيف الى الموتى ، ضحايا جديدة .

وبهذه المشاعر المتحجرة تركت الفتى ملقى على الأرض منه تنزف الدماء ، واندفعت الى السرية الواقفة تنتظر فأمرت أحد ضباط الصف أن يحمل بعض الضمادات الى الجريح ويقوم بعمل الاسعافات الأولية حتى ننتهى من مهمتنا .

وبدأت أدفع السرية حول ميمنة العدو ، آمرا سرية اخرى بتطويق ميسرته .

وأحطنا بالعدو .. ودارت بيننا وبينه معركة كبرى .. انتقمنا منه لأنفسنا شر انتقام ، ودمرنا عددا كبيرا من مصفحاته وأكرهناه على الانسحاب .. تاركا حطامه وقتلاه ، راضيا من الغنيمة بالاياب .

انتهت المعركة وقد قارب اليوم على الانتهاء ، وأحسست بتعب النهار وسهر الليل يحط على جسدى .. وبدأنا نلم شعثنا ونعود أدراجنا للتجمع والرحيل .

وكان أول ما فعلت هو السؤال عن الصاحب الجريح .. فوجدته قد تمدد بجوار احدى العربات .. وهو يلفظ آخر انفاسه .

ركعت بجواره وانا أحس بأحشائى تتمزق كأن فى جوفى من الشظايا أضعاف ما بجنبه ، وتمنيت لو استطعت أن أفعل له شيئا .. أى شىء !

لم لاتقوى أماني الأحياء على احياء الموتى ؟ .. لقد كانت بنفسى من الرغبة فى اعادته الى الحياة ما أستطيع به أن أحيى جيلا من الموتى ، فلم لم يبعث حيا ؟ .

لقد جلست بجواره .. وأمسكت بيده بين كفى .. وأحس بى ففتح عينيه .. ولاح على شفتيه شبح ابتسامة . ثم قال فى صوت خافت :

– كيف الحال ؟

– انتصرنا وطردناهم من مواقعهم .

– الحمد لله .

وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أجلس فيها الى انسان يموت .. وأى انسان ! .. انسان جاد بروحه فى سبيل جثة صاحبه !

وسمعته يتمتم بصوت خافت :

– انى سعيد .

ولم أدرى ماذا أقول له .. وخفت أن ينطلق دمعى .. فجاهدت حتى كبته ، وقلت له فى رفق وحنان :

– ألا تريد شيئا .. الا أستطيع أن أؤدى لك أى شىء ؟

– كنت أريد شيئا واحدا لا أظن هناك من يستطيعه ! كنت اريد أن أرى ابنتى مرة واحدة ! مرة واحدة فقط .. لقد أوصتنى بأن أحضر لها هدية عند عودتى .. ولقد ابتعت لها قرطا عندما ذهبت الى «بيت لحم» .

ومد يده الى جيبه فأخرج قرطا صغيرا ، وأردف قائلا :

– اعطها هذا القرط .. وقبلها لى .. كم كنت أريد أن اعطيها اياه بنفسى .. فليس هناك أحب الى من أن أحمل لها الهدايا .

وصمت لحظة تمالك فيها أنفاسه وعاد يتمتم فى صوت خافت :

– أريد أن أراها .. مرة واحدة .

وأغمضت عيني .. فقد كان قوله اقسى على نفسي وأشد ايلاما من أقسى وسائل التعذيب والايلام .. كيف لا .. وهذا الانسان الجميل النفس والقلب ، لا يطلب أمنية قبل موته الا أن يعطي ابنته الطفلة هديتها الصغيرة !

وفتحت عيني .. فأصابتني رعدة .. اذ أبصرت أمامي أمرا عجيبا .

لقد رأيت طفلة .. أو شبح طفلة بيضاء باهتة .. تنحنى على الفتى الراقد باسمة ، وتمد يدها فتأخذ منه القرط ، ورأيت وجهه يتهلل بشرا . ومد ذراعيه فاحتواها بينهما وقبلها في عطف وحنان . وفى لمح البصر تلاشت فى الهواء .. ولم أعد أبصر سوى الفتى وقد أغمض عينيه وبدت على وجهه أبلغ آيات السعادة والهناء .. وأحسست ببرودة تسرى فى جسدى .

لقد .. مات .. انتهى .

كيف حضرت الطفلة ؟ .. كيف ذهبت ؟ .. لقد كانت لاشك من بنات الأوهام .

ان ما رأيت لم يكن الا من فعل الخيال المجهد المكدود .

وبحثت عن القرط فى يده .. أو فى يدى .. فلم أجده .

أجل لقد كانت المسألة كلها من صنع وهمى وخيالى .

وثوى صاحبى فى باطن الأرض .. وغاب فيها .. كما غاب أصحابه من قبله وكما سنغيب من بعده .

وعدت الى القاهرة بعد ذاك .. وحملتنى قدماى لأؤدى الرسالة .. ولقيت زوجته .. ولقيت ابنته .

ياالله ! .. لقد كانت نفس الطفلة .. لا تفترق عن الشبح الذى رأيت ، سوى أنها نموذج حى .

وفى أذنها وجدت القرط ..

كيف وصل اليها ؟ .. لم أجسر على السؤال !

صفقة عجيبة

هذا الرجل العاقل الرزين .. قد باع عربته لشبح من عصر محمد على .. وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة .. ماذا أقول له ؟ .

منذ بضعة أيام ساقتنى الصدف الى لقاء «متولى افندى عبد الرحيم» مدرس الرسم فى مدرسة شبرا الثانوية . فأقبلت عليه أحييه فى شوق ولهفة ، اذ كان أحب المدرسين الى نفسى وأقربهم الى قلبى .. أولا لأننى كنت أجيد الرسم فكنت أعتبر حصصه أوقاتا للترفيه والتسلية ، وثانيا ، وهو الأهم ، لأنه كان مخلوقا ما عرفه انسان الا أحبه لطيبة قلبه ووداعة نفسه ، ولما فى أطواره من غرابة وطرافة .

كان الرجل فنانا أكثر منه أى شىء آخر . ولم يكن ذا كفاءة ظاهرة فى مهنة التدريس . وهى مهنة تحتاج قبل كل شىء الى «قرداتى» يعرف كيف يعامل هؤلاء «القرود» الذين يسمونهم «التلاميذ» . أما هذا الرجل الفنان بجسده الرقيق ، وذهنه الشارد ، فقد كان أبعد الناس عن أن يكون مدرسا .

كنا نحبه جميعا بلا استثناء .. وكيف لانحب مدرسا لانكاد نحس وجوده ولايكاد هو يحس وجودنا رغم ذلك الضجيج الذى كنا نحدثه فيوقظ أهل الكهف ؟

أقول اننى لقيت الرجل منذ بضعة أيام .. لأول مرة منذ سنوات طوال .. وكان اللقاء فى قصر الجوهرة بالقلعة حيث انتدب لاعادة رسم بعض الزخارف ، ولم أره قد تغير كثيرا عما كان .. بياقته المنشأة ذات الأطراف المثنية وقد خرج منها عنقه المعروق الرفيع يحمل فى نهايته رأسه الصغير ذا الشعر الأشعث ، وقد أسند منظاره السميك على أرنبة أنفه ، وأغرق جسده فى بذلته «الأسموكن» السوداء .

وأقبلت عليه أحييه .. وأستطاع هو أن يميزنى بنظرة من وراء منظاره ، فرد على تحيتى بنفس الشوق واللهفة .. ودار بيننا حديث لم يكف خلاله عن الانهماك فيما يرسم .. ونظرت الى تلك الزخارف البديعة ، وهو يحرك عليها فرشاته فى مهارة وحذق ، وقلت بصوت ملؤه الاعجاب :

– رائعة .. ان عملك فى منتهى الدقة والبراعة .

فهز الرجل رأسه فى شىء من الاستخفاف ثم أجابنى قائلا :

– اننى لا أفعل أكثر من أن أعيد رسمها .. فاذا كنت ترانى بارعا لمجرد النقل .. فماذا تقول اذا فيمن خلقها وأوجدها ؟

وصمت الرجل برهة ثم عاد يقول :

– يخيل الى أن الذهن البشرى سائر فى طريق العجز .. فنحن فى كل ما نفعل اليوم لسنا الا ناقلين عمن سبقونا من العباقرة ، ولم نزل الى الآن نستوحى أفكارهم ومبتكرات عقولهم .

ونظرت اليه وقد انهمك فى عمله ، وقلت أناقشه فى شىء من الدهش :

– الذهن البشرى سائر فى طريق العجز ؟ . لا . لا ياسيدى قد يكون حقا اننا ننقل عن اسلافنا بعض أفكارهم ومبتكراتهم لنستعين بها .. ولكن هذا ليس دليل عجز .. أن الذهن البشرى قد يأتى الآن بأشياء لو رآها اسلافنا لصرعهم الدهش .. وانى لا أتصور ماذا يمكن أن يكون حال صاحبنا الذى رسم هذه الزخارف أول مرة لو بعث الآن من مرقده ليرى ما صنعه الذهن البشرى .. دعك من الذرة .. أو اللاسلكى .. أره فقط عربة تجرى فى الطريق .

وهنا رأيت الرجل قد وضع «فرشاته» فجأة ونظر الى بحدة واستغراب ، ثم قال :

– عجيب هذا الذى تقوله عن الرجل ، وعن العربة التى تجرى فى الطريق .. !

– وأى عجب فيه ؟

وأطرق الرجل ، وساد الصمت برهة ، ثم تكلم أخيرا كأنه يحدث نفسه :

– لو رويت لك الحقيقة لقلت ثمل أو مخبول .. هل يمكن أن تصدق أن الرجل الذى تعنيه قد حضر الى فعلا .. وأننا تحدثنا عن العربات ؟

ويستطيع القارىء طبعا أن يدرك كيف وقع قول الرجل فى نفسى .. ويستطيع طبعا أن يدرك مبلغ الجهد الذى بذلته لكى أكسو وجهى مظهر الجد ، وأن أكتم تلك الضحكة التى كانت تصطخب فى صدرى .. لقد كان الرجل جادا فى قوله .. ولم يبد عليه أنه ثمل أو مخبول .. بل كان يتكلم بلهجة ملؤها الصدق والاخلاص .. ثم هو فوق ذلك مدرس ومازلت أشعر نحوه باحترام التلميذ .. فقلت وقد بدت على أبلغ آيات الدهش :

– شىء عجيب ! ..

– انه لكذلك .. وقد حدث .. رأيته أمامى كما أراك الآن ! ..

– وكيف أتى ؟ .. ومتى ؟ ..

وصمت الرجل برهة استجمع فيها شوارد أفكاره ثم استطرد قائلا :

– كان ذلك منذ بضعة أيام قبيل الغروب .. وقد انهمكت فى الرسم .. عندما خيل الى أن شخصا يرقبنى ولم أكن قد سمعت أحدا يدخل .. ولا كنت انتظر زيارة أحد .. والتفت فجأة فاذا بى أجده أمامى تماما كما تقف أنت .. وقد أخذ يرقبنى بهدوء .. مرتديا سرواله الفضفاض وعمامته وصديريته ومركوبه .. ثم رأيته يهز رأسه باعجاب قائلا :

- شيء بديع .. هل تعلم أن هذا من صنعى ؟ لاأظن أن عندكم الآن من يستطيع أن يفعل مثله .

ولست أدرى ما الذى جعلنى لا أولى من الرجل - أو من الشبح - فرارا ولا أصرع منه رعبا .. ولكن الله أنزل السكينة فى قلبى فوقفت أتحدث اليه كما أتحدث اليك .. بغير خوف أو وجل .. ووجدتنى أقول له مجاملا :

- الواقع أنها شيء رائع .

ورأيته يتلفت حوله ثم يتساءل :

- لقد وجدت على القلعة أعلاما وزينات .. ما سرها ؟

- اننا نحتفل بتسلمها .

- تسلمها ؟ .. ماهى ؟

- القلعة .

- تسلمها ممن ؟

- من المحتلين .

- أو قد عاد اليكم نابليون مرة أخرى ؟

- لا .. ليس نابليون .. انهم الانجليز هذه المرة !

وبدا عليه الدهش .. ووجدت أنه شخص متعصب ، وأننى لو أطعت رغبته فى الاستقصاء على هذا النمط لاضطرنى الى أن أسرد عليه تاريخ مصر منذ أن شيدت القلعة الى يومنا هذا .

وكانت الظلمة قد بدأت تنتشر فلم أجد خيرا من التخلص منه بالانصراف . فبدأت أجمع أدوات الرسم فى حقيبتى وأتهيأ للخروج . ونظر الى متسائلا :

- الى أين ؟

- سأنصرف .. فقد أقبل الليل .

- ولم لاتوقد الشموع ؟

وهممت بأن أجيبه بأننا لانستعمل الشموع بل نضىء بالكهرباء .. ولكنى تصورت أى مأزق يمكن أن أضع فيه نفسى اذا سألنى عن الكهرباء فلم يكن خيرا من أن أوفر على نفسى الشرح .. فقلت له ببساطة :

- لقد نفذت الشموع .

ونظر الى نظرة رثاء لهذا الفقر الذى صرنا اليه ، ثم عاد يسأل من جديد أسئلته التافهة :

- ولم ترك الانجليز القلعة .. هل هجمتم عليهم ؟

- لا .. لا .. لم تحتج المسألة الى هجوم أو غيره . لقد استيقظ الوعى القومى وطالب بالجلاء .. فجلوا .

- لا .. لاأظن .. أغلب ظنى أنهم جلوا عنها لأنها قد أضحت قديمة غير ذات قيمة .. وأن الفضل فى جلائهم عنها يرجع الى انتشار «البق» فيها .

- أنت لاتعرف شيئا . لقد قلت أن الوعى القومى قد استيقظ ، وأن الأمة كلها قد هبت تطالب بالجلاء ووحدة وادى النيل .

- وحدة وادى النيل ؟ ماذا تقصد .. وممن تطلبون هذه الوحدة ؟

- من الانجليز .

- وما دخلهم ؟

- انهم يسيطرون على السودان ، ويحاولون فصله .

- ولم لاتطردونهم بجيشكم ؟

وهنا وجدتنى أوشك أن أنزلق الى مسألة أشد وعورة من شرح الكهرباء ، وهى مسألة شرح حالة الجيش المصرى .

فقلت له :

- ان المسألة لاتحتاج الى جيش ، فالسودانيون اخواننا ونحن وهم شعب واحد ، وهم يرغبون فى الوحدة كما نرغب فيها .

- اذا فهم الذين سيثورون ويطردون الانجليز ليتحدوا معكم ؟

وأقول الحق أن صبرى كان قد بدا ينفذ من الأسئلة التى أخذ ينهال على بها .

ولم أجد بدا من أن أنبئه أنى فى عجلة لأننى على موعد ولابد لى من الانصراف ، ومددت يدى اليه محييا ، ولكنه أنبأنى أنه سيسير معى ، فقلت له أننى لن أسير بل سأركب ، فسألنى : أعندك حمار ؟

فهززت رأسى : كلا ..

- لاشك أن عندك عربة .

- أجل عندى عربة بعشرة خيول .

ورفع الى الرجل رأسه فى ذهول ، وظننى أمزح .. ولكن لم يكن فى قولى شىء من المزاح فقد كانت عربتى فعلا عربة «فورد ١٠ خيول» . ووصلنا الى العربة ، ووقف الرجل أمامها حائرا .. لايجد أثرا لحصان واحد .. ونظر الى بشىء من الاحتقار ، ولكنى قفزت بسرعة داخل العربة حتى أزيل ما بدا عليه من احتقار وأدرت «المارش» ، وبدأت العربة تحدث صوتا عاليا ، فقد كانت ما سورة (الشاكمان) مكسورة .. فوجدت الرجل قد قفز من مكانه مرتاعا وأخذ ينظر الى العربة فى حذر واحترس .. وطلبت منه الصعود فاخذ يدور حول العربة فى حذر ، ثم تجرأ على لمسها فلما لم تلحق به أذى أخذ يتحسسها بيديه كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء .. وعلت البشاشة وجهه وبدت عليه فرحة طفل يلهو بدمية .

وجلس بجانبى وانهال على بسيل جارف من الاسئلة حاولت أن أجيب عنها فى حدود معرفتى بالعربات وعلى الأصح جهلى بها . على أى حال ، لقد كانت أسئلته معقولة حتى وجدته يسألنى فجأة أن أبيعه العربة فان لديه من الذهب ما يكفى لشرائها .

ونظرت الى الرجل الأحمق فى دهش وقلت :

– ولكنها لن تكون ذات فائدة لك .. حقيقة انه ليست لدى فكرة واضحة عن المكان الذى أتيت منه . ولكنى أعرف أنهم لاينتقلون هناك فى عربات .

– من أنبأك ؟ .. لا تحاول أن تستدرجنى لأشرح كيف يعيشون .. فالواجب علي أن ألزم الصمت .. على أنه ليس من شأنك أن تكون ذات فائدة لى أم غير ذات فائدة .. المهم هل تبيع ؟

وهنا أخرج من سرواله كيسا مملوءا بالقطع الذهبية وأفرغ جانبا منها فى حجرة فراعنى بريقها ، وعاد يسأل فى شىء من العظمة :

– كم تريد ثمنا لها ؟

وترددت برهة فقد كنت أعلم قبل كل شىء انه لا يعدو أن يكون شبحا ولم أجد ضيرا من أن أسير فى المزحة الى نهايتها . فقلت له :

– خمسين قطعة .

بدا الرجل يعد القطع .

وأخيرا جمعت النقود فى الكيس ووضعته بجوارى .

★ ★ ★

وصمت الرجل .. وأخذت أحملق فيه دهشا ذاهلا .. هذا الرجل العاقل الرزين .. قد باع عربته لشبح من عصر «محمد على» .. وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة .. ماذا أقول له ؟ .. لقد قلت متهكما :

– ثم ماذا .. ماذا حدث بعد أن أعطاك النقود ؟

– لقد حدث بعد ذلك الشىء الغريب حقا فى الموضوع (كأن كل ما قصه على كان شيئا لا غرابة فيه) فلقد رأيتنى فجأة على رصيف الشارع فى المكان الذى سمعت فيه آخر كلمة .. بلا عربة وبلا شبح . لقد أختفى كل ما حولى كلمح البرق .. أو كأنما قد استيقظت من حلم . ولكنه لم يك قط حلما :

– هل أنت متأكد ؟

ولم يجب الرجل بل أخرج من حقيبة بجواره كيسا قد ملىء بالقطع الذهبية وبدا يفرغه أمامى قائلا :

– لو لم أجد هذا الكيس بجوارى لقلت مثلك أننى كنت فى حلم أو أن ما رأيته لم يكن سوى خيالات ثمل .

وساد الصمت .. واستغرقت فى تفكير عميق .. أنا شخص سبق لى أن قلت عشرات المرات أننى لا أومن بالأشباح ولا بالأرواح ولذا فقد وجدتنى أحاول أن أجد تعليلا لما قاله الرجل .. لقد كان يبدو لى أنه صادق فى كل ما قال .. فهو من ذلك النوع الذى لاتملك الا أن تصدقه .. والذى لايمكن أن يكذب .. اذا فلابد أن يكون ما قصه قد حدث له .. أو على الأقل قد خيل اليه أنه حدث له .. وعلى ذلك فالمسألة لاتعدو أحد أمرين : أما أنه كان ثملا وسرقت منه العربة ، وهذا غير معقول لأنه قد وجد بجواره النقود . واما أنه ضحية خدعة محبوكة الأطراف .. وهذا هو الأكثر احتمالا . وخاصة أنى شاهدت ملابس عهد محمد على متوفرة لدى الجنود الذين كانوا يقومون بالحراسة فى الاحتفال بتسليم القلعة ، وعلى ذلك فلا يستبعد أن يكون خبيث قد استطاع الحصول على هذه الملابس ، وأنه قد مثل دور الشبح مع الرجل خير تمثيل ، وأن ما أعطاه اياه من النقود ليس الا قطعا مزيفة ، وانه قد ضربه ضربة أفقدته رشده ، ثم تركه على افريز الشارع .

وكنت أعلم أن هذا الافتراض لايخلو من ركاكة . فان هناك وسائل لسلب الرجل عربته أسهل بكثير من هذه الوسيلة .. ولكننى لم أجد تعليلا لما قصه الرجل خيرا من هذا التعليل .. ولاشك أننى استطيع أن أجزم بصدقة لو استطعت أن أثبت أن القطع التى مع الرجل قطع مزيفة .

وسألت الرجل أن يعيرنى قطعة منها حتى أريها لخبير ليتأكد من أنها ليست مزيفة . ولم يتردد الرجل فأعطانى القطعة وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى .

وذهبت الى رجل أعرف له خبرة بهذه الأمور .. وفحص الرجل القطعة وامعن فى فحصها ولشدة عجبى رأيته ينظر الى ثم ينبئنى انها صحيحة . وأنها نادرة الوجود ، فهى من القطع التى كانت تستعمل فى عهد محمد على .

ورغم ما كان فى قوله من تأكيد للصفقة العجيبة فان ذهنى لم يستطع أن يقبل القصة بعد ، وذهبت الى دارى ، وفى الصباح استيقظت وفى نيتى أن أعيد القطعة الى صاحبها .. ولكنى لم أجدها حيث وضعتها .

ومضت بضعة أيام وأنا أجهد نفسى فى البحث عنها دون جدوى .. ولم أجد خيرا من الذهاب للاعتذار اليه ، وأن أعرض عليه ثمنا لها .

وذهبت الى الرجل فلقينى مرحبا ، وبدأت أروى له كيف سرقت القطعة .. ولكنه قاطعنى قائلا ببساطة :

– لا عليك .. لقد أعادها الى !

– من ؟ ...من الذى أعادها ؟

– الشبح .. لقد أنبأنى أنه خشى أن تضيعها فسرقها منك وأعادها الى ..

وهززت رأسى فى حيرة .. كيف أستطيع أن أصدق هذا ؟ كيف سرقت ؟ وكيف أعيدت ؟

أغلب الظن أن الرجل بعقله شىء .. لوثة .. أو خبل .

على أية حال .. حمدا لله ، أن الشبح السارق قد أعاد القطعة اليه .. فأبرأ ذمتى .

وحمدا لله أيضا أننى لم أكن مستيقظا عندما ارتكب سرقته .. والا كانت «تبقى عباره» .

★ ★ ★

علمها عندربى

كيف حدث ما حدث ؟ .. أين ذهبت الدار ؟ .. هل كان كل ما رأيت حلما ؟ .. هل كانت الفتاة شبحا ؟ .. هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟ ..

كان ذلك فى احدى الأمسيات .. وقد ضمتنا ندوة من الأصدقاء والمعارف .. وكنا خليطا من مختلف المهن والأعمار ، وأخذنا نقطع الوقت بالسمر أو لعب النرد والورق .. وجلست أنا أمام المذياع أنصت الى بعض الهذر واللغو حتى ضقت به ذرعا فأسكته .. والتفت الى الصحبة السامرة اشترك معها فى الحديث فسمعت أحدهم يقول متمما بقية قول لم أسمع أوله :

- واستمر الطرق على النافذة فى نفس الموعد كل ليلة .. وكنت أسمع وقع أقدام فوق السطح تغدو وتروح .. ثم أسمع صوت هبوط جسم ثقيل .. واؤكد لكم أنى لم أكن جبانا فى يوم من الأيام .. ولكن هذه الأصوات فى منتصف الليل كانت تبعث فى جسدى قشعريرة .. ولقد حاولت بضع مرات أن أتسلل الى الظلمة وقد أمسكت فى يدى سكينا لعل الطارق أو السائر يكون لصا .. ولكنى لم أعثر على أحد قط .. وكنت لا أكاذ آوى الى فراشى حتى يعود الطرق .. وأخيرا لم أعد أحتمل .. فتركت الدار تنعى من بناها .

وصمت القوم .. وأخذوا يهزون رؤوسهم فى دهش وتساؤل ، ثم قال أحدهم معلقا :

– أجل .. لاشك في وجود الأرواح والأشباح ، لقد سكنا ذات مرة بجوار احدى الدور المسكونة .. التي قيل لنا أن صاحبها مات محروقا .. ولم يكن الأنين ينقطع طول الليل وكنا أحيانا نسمع عويلا وصراخا .

وأمن البعض على أقواله بهز الرؤوس ، وبدت الحيرة على البعض الآخر .

ولم أحتمل هذه الخرافات .. فانبريت أقول وأنا أضحك ساخرا :

– كلام فارغ – هذه كلها أوهام وتصورات مبعثها ضعف الأعصاب .. هذا الطرق على النافذة ، والأقدام التى تروح وتغدو والصراخ والأنين .. لاشك أنها صادرة من مصدر ملموس كائن .. لست أدرى ما الذى يبعث روحا من الأرواح على أن تمضى ليلها فى دق نافذة ، أو التمشى على سطح .. أو بح صوتها فى الصراخ والأنين ، هذه سخافات .. حرام علينا أن ننسبها للأرواح .. ولو بحثنا جيدا لوجدناها ناتجة عن أتفه الأسباب .

وصاح الصديق صاحب النافذة المطروقة :

– كيف ؟ ومن تظن انه صاحب الطرقات وصاحب الأقدام التى تغدو وتروح ؟

– صاحب الأقدام قد تكون قطة على السطح .. أما الطرقات فقد تكون صادرة من شنكل مكسور تعبث به الريح .

واندفع صاحب البيت المسكون يقول فى استخفاف وسخرية :

– والأنين والعويل .. ما سببهما ؟

– كلب جريح .

– لا فائدة من المناقشة معك ، انك انسان تستخف بكل شىء وتظن أنك تعرف كل شىء .

واندفع الباقون يسفهون رأيى .. فانتظرت حتى خف ضجيجهم وقلت :

– لابد أن يكون لكل شىء سبب .. ولو بحثنا عن أسباب هذه الخزعبلات جيدا لاستطعنا أن نعثر عليها .. ولوجدناها فى منتهى التفاهة .. لاتمت الى الأرواح أو الأشباح بأية صلة .

وكان واحد من القوم قد اتخذ مكانا قصيا .. ولم يحاول أن يشرك نفسه فى المناقشة ، وهو طبيب معروف عاقل رزين فسمعته يقول معقبا على قولى :

– معك حق .. فأنا مثلك لا أومن بالاشباح .. ولكن يخيل لى أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال – غير ذلك العبث من طرق على النوافذ وأنين فى سكون الليل – أفعال تعنى شيئا .. أو تكون ذات فائدة لكائن بالذات .. دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها .

ولم أفهم بالضبط ما يقصده الطبيب ، وكذلك بقية الرفاق والظاهر أنه قد رأى قوله غير مفهوم .. فقد تناول ثقابا وأشعل سيجارته ، وقال وهو ينفث دخانها ببطء :

– يبدو أنى لم أستطع أن أوضح قولى جيدا .. اذن فاسمعوا ما أقصه عليكم :

حدث هذا منذ بضع سنين اذ كنت مدعوا لقضاء بضعة أيام فى عزبة «زكى بك عبد العال» صاحب مصانع النسيج المعروفة بالمحلة .. وهو رجل كريم لطيف المعشر .. زرته بضع مرات فى مرض ألم به فأصر على أن يرد الجميل بدعوتى الى عزبته .

ولقد قبلت الدعوة مكرها ، اذ كنت موقنا بأنى لن أجد من وسائل التسلية فى عزبته النائية ما يجعلنى أقضى وقتا طيبا .

وذهبت .. لمجرد رغبتى فى الا أولم الرجل برفض دعوته على أن أعود بعد يومين على الأكثر .

واستقر بى المقام فى الدار القائمة بين المزارع المترامية ، وأدهشنى

أن أجد فى الريف بيتا بمثل هذه الفخامة .. فقد كانت تتوفر فيه كل وسائل الراحة والتسلية .

ومرت بى الأيام الأولى دون أن أحس بأى ملل .. فقد كانت لكل تلك المرغبات - مضافا اليها عامل مهم ، أو هو أهمها جميعا ، وهى بنت أخى زكى بك - أثرها الفعال فى استبقائى .. ونسيانى ما كنت قد عقدت النية عليه من عودة سريعة .

كنت أقضى اليوم فى لعب التنس ، أو فى السباحة ، أو فى ركوب الدوكار ، أو صيد السمك .. تشاركنى الفتاة فى كل ما أفعل .. وكانت سمراء جذابة ، شديدة المرح ، تفيض أنوثة وجاذبية .

ورحلت الفتاة فى اليوم الرابع .. وبدأت أحس بالفراغ والوحشة .. وخيل الى أنى قد أحببت الفتاة .. وصممت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها .

وحدث فى اليوم الذى عزمت فيه على الرحيل أن دعانا «عمر بك شريف» لزيارته وقضاء السهرة عنده .. وكان يملك العزبة المجاورة ، وقبيل الغروب أخبرنى «زكى بك» أنه يحس بتوعك وأنه يفضل أن يستريح ، وسألنى أن أذهب وحدى قائلا : أنه قد أمر الأسطى محمود بتجهيز «الدوكار» ليقلنى الى هناك .

وكنت أحب قيادة الدوكار ، فأجبته بأنى أعرف الطريق الى بيت عمر بك وأنى أستطيع الذهاب وحدى .. فلا ضرورة لأن تتعب الأسطى محمود .. دعه يستريح .

وبدأت السير وأنا أحس بنشوة عجيبة .. وكنا فى أكتوبر ، وجو الخريف رطب منعش ، والشمس تتهادى فى الأفق مجررة ذيولها الحمراء على رؤوس الأشجار وأطراف المزروعات .. والجواد يمشى مرحا .

ولاحت لى أخيرا الأشجار العالية المحيطة بدار شريف بك .. ثم عبرت البوابة الخشبية القائمة أمام باب الدار والمتصلة بالسور الذى يحيط بالحديقة .. وكانت الظلمة قد سادت وتبدد النور الا بقايا باهتة واهنة تبدى من المرئيات أشباحا غامضة .

وتسلم العربة والجواد أحد الحراس .. ودخلت الدار فوجدت صاحبها في انتظاري مع ثلة من الأصدقاء واعتذرت عن زكي بك ثم اتخذت مجلسي بينهم .. متشاغلا بالحديث تارة وباللعب تارة أخرى .

وحان وقت العشاء فنهضنا الى حجرة الطعام .. وبيد كل كأسه ، وسرت بينهم أحمل كأسا من الويسكى المخفف أخذته بعد الحاح ، اذ لم أكن متعودا الشراب .

ولم أتناول من الطعام الا قليلا .

وعدنا بعد العشاء لنواصل اللعب والضحك .. وعندما بلغت الساعة العاشرة استأذنت فى الانصراف .

وخرج شريف بك ليوصلنى الى الحديقة ، ووجدت العربة فى الانتظار ، وقد أضاء الحارس مصباحها ، واتخذت مكانى على مقعد السائق ، وقلت لمضيفى :

– أرجو أن أرد ضيافتك فى مصر .. حتى استعيض الريال الذى خسرته فى اللعب .

وضحك شريف بك وقال :

– سأزورك ان شاء الله .. لأضاعف الربح .

وحييته ، ثم جذبت اللجام فتحرك الجواد ولوحت للرجل بيدى ، وانطلقت من البوابة الخشبية الى الطريق .

ولم تكن الظلمة شديدة في بادىء الأمر ، فقد كانت أضواء النجوم تظهر لى هيئة المرئيات واضحة جلية .. ولم يصعب على أن أميز تهيئات التربة من أشجار وأكواخ ، وكان مصباح العربة يبدد بعض الحلكة فيزيدنى اطمئنانا .

ولكن عندما أمعنت فى السير بدأ الضباب يملأ الجو وزادت الظلمة وذهب الضوء الخافت الشاحب الذى كان يهبط من النجوم المتألقة .. ولم يعد المصباح قادرا على أن يكشف جوانب الطريق .

وبدأت أتمهل وأعيد لنفسي وصف الطريق «ألف الى اليمين عند شجرة الكافور التي تكدست بجوارها أكوام السباخ .. ويظل الطريق مستقيما حتى أبلغ بضعة أكواخ محيطة بساقية ، فألف الى اليسار ثم أعبر القنطرة ، وأسير بجوار الترعة حتى أبلغ البيت» .

وأحسست بشيء من الراحة عندما أقنعت نفسي بأنه لا خوف على من الضلال وسط الضباب والظلمة .

ولاحت لي شجرة الكافور فاتجهت يمينا ، وواصلت السير فى الطريق المستقيم .. وأنا أمعن البصر فيما حولى باحثا عن الأكواخ والساقية ، وخيل الى أنى قد سرت أكثر مما يجب دون أن أبصر فى الطريق أية معالم .. وتوقفت برهة ونزلت من العربة وأخذت أسير هنا وهناك محاولا العثور على مكان الساقية حيث يوجد الطريق المتجه يسارا والذى يعبر القنطرة ..

وعدت الى العربة دون أن أتبين من حولى شيئا .. وقلت لنفسى أننى قد أكون مخطئا فى تقدير طول المسافة التى قطعتها وأن الساقية ما زالت بعيدة .

وعاودت السير مرة أخرى ، حتى لاح لى طريق يتجه يسارا فدلفت فيه آملا أن أعبر القنطرة بعد حين .. ولكن السير طال دون أن أعثر على أى أثر .. وأدركت أنى ضللت الطريق ، وقلت لنفسي أن خير ماأفعل هو أن أعود الى بيت شريف بك لأستعين بأحد رجاله ، أو لأقضى الليلة معه حتى الصباح .

وأدرت العربة عائدا من حيث أتيت .. وبدأت أستعيد لنفسى المرات التى لففت فيها حتى لا أضل فى العودة أيضا .

ومع ذلك فقد ضللت ، وأخذ الوقت يمر بى وأنا ممعن فى السير ، أتخبط على غير هدى .. دون أن تبدو لي بارقة ضوء

عجبا .. ألا يوجد كوخ واحد من أكواخ الفلاحين أستدل منه على الطريق .. فلا شك أن أى فلاح فى هذه المنطقة يعرف بيت «زكى بك» أو «شريف بك» .

يجب الا أيأس ، فلابد أن أعثر على من يدلنى على الطريق ، أو على من يأوينى عنده حتى الصباح .

وسار الجواد متثاقلا يضرب الأرض ضرباته المنتظمة .. وأحسست بالتعب ، وبالنوم يثقل أجفانى .

ولست أدرى بالضبط هل نمت طويلا وأنا ممسك باللجام ، أم أن عينى لم تغفلا سوى لحظة خاطفة .. فالانسان عندما ينام فى مثل هذه الظروف لايستطيع أن يعرف مدة نومه ، بل لايستطيع أن يعرف ان كان قد نام أم لا .

على أية حال لقد كان أول ما أبصرت عندما فتحت عينى ضوءا يلوح على مقربة .

وبدد رؤية الضوء ما عرانى من خمول .. وحثثت الجواد متجها الى مصدر الضوء .. وبعد فترة قصيرة كنت أقف أمام بوابة خشبية مقفلة .

وهبطت من العربة واقتربت من البوابة القصيرة ودفعتها ففتحت .. ووجدت الأشجار المتكاثفة قد حجبت الضوء الذى كنت أبصره وأنا فى الطريق .. ولم أعد أميز شيئا أمامى ، فعدت الى العربة ونزعت منها المصباح حتى أسير على هديه .

وسرت فى ممر ضيق يقوم على جانبه سور من الدرنته لم تمتد اليه يد المقص منذ زمن طويل .. وفجأة انطفأ المصباح ووجدت نفسى مرة أخرى فى ظلمة دامسة .. ولم أجد بدا من التخبط فى الظلمة حتى أصل الى نهاية الممر .

ولم يطل بى السير حتى وجدت نفسى أمام بضع درجات حجرية تؤدى الى باب ، ولاح لى الضوء الذى أبصرته وأنا فى الطريق .. ومددت يدى فقرعت الباب .. ومضت برهة ثم سمعت وقع أقدام متثاقلة تقترب من الداخل .

وأحسست بشيء من الخجل وأنا أقف أمام الباب فقد كانت الساعة تكاد تبلغ الثانية عشرة .. وتصورت ذلك الازعاج الذى سببته لأصحاب الدار .. وتصورت حنقهم عندما يتبينون انى اسألهم عن الطريق الى بيت فلان «أو علان» .

وتوقفت الأقدام وراء الباب ، ثم ضغط على زر كهربائى فأضاء فوقى مصباح غمر المكان بنور قوى ، ثم فتح الباب ووجدت أمامى امرأة فى خريف العمر ، تلتحف بشال أسود غطى رأسها وكتفيها وبدا وجهها أصفر تتخلله بعض التجاعيد وتحيط به الشعيرات البيضاء .

وأحنيت رأسى وقلت بأقصى ما استطعت من أدب ورقة أشرح لها ما أريد :

– مساء الخير .. أنا الدكتور ...

وهنا حدث آخر ما كنت أتوقع .. حدث ما تركنى مشدوها مذهولا .. وأوقف الكلمات على لسانى .

لم تكد المرأة تسمع منى كلمة «دكتور» حتى اندفعت الى تمسك بذراعى وتصيح فى صوت متشنج باك :

– الدكتور ! .. أغثنا ياسيدى .. أدركنا .. لقد كدنا نيأس من حضورك .. ابنتى يادكتور .. أرجوك .. تفضل .. لقد أرسلنا الخادم لكى يحضر طبيبا من البلدة منذ ساعتين فلم يحضر حتى الآن .

ولم يكن يسعنى سوى الرضوخ للمرأة ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على ، ولم تكن حالتها تعيننى على أن أشرح لها ما أتيت من أجله أو التفاهم معها على أى شيء ! ..

وتبعتها صاغرا مشدوها الى الطابق الأعلى وهى مستمرة فى نشيجها وتوسلاتها الى أن أنقذ ابنتها .

ودخلت وراءها فى احدى الحجرات ، فاذا بى أجد فتاة راقدة على فراش .. فتاة .. ما زالت صورتها حتى الآن مطبوعة فى ذهنى لاتفارقه .

لقد كانت جميلة ما فى ذلك شك .. ولكنى لا أظن الجمال وحده يمكن أن يترك فى نفسى ذلك الأثر .. لقد كان بها ما يشبه السحر .

وجلست بجوارها وهى مغمضة عينيها نصف اغماضة ، وقد بدا عليها الألم .. فأمسكت بيدها أجس نبضها وأنا أطلب من امها الهدوء ، وسألتها أن تشرخ لى ما بها .

ولم يصعب على أن أدرك أن الفتاة مصابة بنزيف أحدث عندها هبوطا فى القلب ، وأنها فى أشد حالات الخطر ، وأن الاعياء قد بلغ بها حدا تحتاج معه الى اسعاف سريع وعلاج عاجل .

وكان على أن أبدا باعطائها كورامين .. ثم آخذ فى ايقاف النزيف واسعافها بالعلاج العادى .

ولم يكن بالدار شىء من هذا .. ولم تكن هناك صيدلية قريبة .

وتذكرت أن زكى بك يحتفظ فى داره بكمية من مختلف أنواع الأدوية للطوارىء .. فنهضت من مقعدى ، وقلت للمرأة أنى سأعود اليها حالا ، بعد أن أحضر لها الأدوية المطلوبة .

واندفعت أهبط فى سرعة جنونية ، وقفزت الى العربة ، وألهبت ظهر الجواد .. فانطلق يعدو ...

الى أين .. ؟ !

يا للحمق والغباوة .. لقد نسيت أهم شىء أتيت من أجله نسيت أنى قد ضللت الطريق .

وهممت بأن أجذب الجواد لأعود الى المرأة مرة أخرى وأسألها عن الطريق الى البيت الذى أريده .. فلاشك أنها تعرفه ..

ولكنى لم أكد أجذب اللجام حتى سمعت صوت حوافر الجواد تطرق أرضا خشبية .

عجبا .. انها القنطرة .. وليس على لكى أصل الى البيت الا ان أسير بجوار الترعة .

وعجبت لتصاريف القدر ، لو أنني سرت برهة ولم أتوقف عند الضوء لعرفت الطريق ولما فكرت فى أن أتوقف وأقرع الباب وأعود المريضة التى كانت تتلهف على طبيب .

وأخذت أستحث الجواد ، غير عابىء بظلمة ولا ضباب ، وانطلقت العربة بسرعة جنونية .

وفجأة كبا الجواد .. وأحسست بالعربة تتمايل وتترنح .. ولم أشعر بنفسى الا وأنا ملقى على الطريق أكاد أهوى الى الماء ..

ونهضت أتحسس أعضائى فوجدتنى سليما لم يمسنى سوء .. ولكن الجواد كان ملقى على جانبه والعربة مقلوبة .

ونظرت أمامى فوجدت أضواء تلوح على بعد ، لم أشك فى أنها صادرة من الدار التى أقصدها .

وبلا تفكير انطلقت أعدو .. ووصلت الى الدار مبهور الأنفاس خائر القوى ، ووقفت أمام الباب أقرع الجرس قرعا متواصلا .

وفتح الباب ، ووجدت «زكى بك» ينظر الى مشدوها وقد بدا عليه الانزعاج ، وسألنى عما أخرنى الى هذا الوقت ؟

واندفعت أقص عليه كل ما حدث باختصار ، وأسأله أن يرينى الصيدلية التى لديه حتى آخذ منها ما أريد ، وأن يأمر بتجهيز عربة أخرى .

ونظر الى «زكى بك» فى ذهول واقترب منى يشم رائحة فمى وقال فى هدوء :

– لقد شربت أكثر مما يجب .

– أرجوك يازكى بك .. استمع الى .. انى لم أشرب سوى كأس واحدة .

- وهذا أكثر مما يجب .. ان ما رأيته لايمكن أن يكون حقيقة لسبب بسيط ، هو أن هذه المنطقة لاتحتوى ، - لمسافة أربعين كيلو - غير بيتى وبيت شريف بك ، وأكواخ الفلاحين .. وما سمعت قط أن هناك امرأة وابنتها فى دار على مقربة من هنا وأنت نفسك مررت بالطريق قبل ذلك ، فهل أبصرت هذه الدار التى نتحدث عنها .. ؟ ادخل .. ادخل هداك الله .

- ولكننى أقسم أن ما رأيته حقيقة ، ان الفتاة توشك أن تقضى نحبها .

وكنت ، وأنا أؤكد له قولى ، أقول لنفسى : حقا انى لم أبصر أثرا للدار قبل الليلة .

ومع ذلك فقد أصررت على العودة ، وعلى ان آخذ الأدوية ، وقال لى زكى بك :

- لايمكن .. لن أدعك تخرج .. انك متعب .. انتظر حتى الصباح وسأذهب معك بنفسى .

- ولكن لن تعيش الى الصباح .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من الانتظار .. فقد أصر زكى بك على الا يعطينى الأدوية ، والا يسمح لى بالخروج ، وكانت قدماى لاتقويان على حملى من فرط ما عدوت .. ولم أجد بدا من الاستلقاء بملابسى على احدى الأرائك حتى الفجر .

وقبل أن تشرق الشمس ، كنت أوقظ زكى بك وأرجوه فى الحاح أن يعطينى الأدوية .

وهز الرجل رأسه فى دهش واستسلام ، ثم نهض وارتدى ملابسه وانطلقنا بالعربة بعد أن أحضرها رجاله وأصلحوا ما بها .. وغيروا الجواد .

ولا أظننى فى حاجة الى أن أخبركم مبلغ ذهولى وخجلى ، ونحن نجوب المنطقة شبرا شبرا .. نبحث عن الدار المزعومة فلا نجد لها أثرا .

★ ★ ★

كيف حدث ما حدث .. ؟ أين ذهبت الدار .. ؟ هل كان كل ما رأيت حلما طاف برأسي وأنا نائم على مقعدى بالعربة ثم أيقظنى منه وقوع الجواد وانقلاب العربة ؟ .. هل كانت الفتاة شبحا ؟ .. هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟ .

وساد القوم سكون عجيب الا من صوت خافت همس بيننا :

– أجل ماتت ..

ونظرنا متعجبين الى صاحب الصوت وكان رجلا كهلا حديث المعرفة بنا .

وتلفت اليه الطبيب وسأله فى دهش شديد .

– من أدراك .. أتعرفها ؟

فأجاب الآخر فى صوته الخافت ونبراته الهامسة :

– أجل انها ابنتى .... ماتت منذ أربعة أعوام ، اذ حدث لها نزيف أودى بها .. وكنا نقطن وقتذاك في الأقصر ، حيث كنت أعمل فى السكة الحديد .. وغبت عن الدار ذات ليلة فى جولة مرور ... وعدت فى الصباح وجدت الابنة قد ماتت ... والأم تردد فى شبه هذيان :

– لو عاد الطبيب ، لما ماتت ...

وعلمت منها أن النزيف حدث فجأة وأنها أرسلت الخدام يبحث عن طبيب فطالت غيبته .. وأخذت تدعوة الله أن يعجل بحضوره ... وفجأة طرق الباب ، ودخل الطبيب ، وقد بدا لها كأنه هبط من السماء .... وفحص الفتاة ، ثم قال انه سيعود سريعا بعد أن يحضر الدواء والاسعاف اللازم .. ولكنه لم يعد قط .

وصمت الرجل ثم مد يده الى جيبه فأخرج محفظة صغيرة سحب منها شيئا .. أعطاه للطبيب .

وفغر الطبيب فاه ، وجحظت عيناه ، وهتف بصوت مبحوح وهو يحملق فى الصورة :

- انها هى .

★ ★ ★

مجنونان .. مخبولان .. كيف يصدق عاقل مثل هذا الهراء ؟ .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ .

أهذا ما عناه الطبيب بقوله أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال - غير ذلك العبث من طرق النوافذ وأنين فى جوف الليل ؟! - افعالا تعنى شيئا دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها ..

كيف يمكن أن يعلل ما حدث ؟

أهو تجاوب أرواح .. الله وحده أعلم

«ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى» .

★ ★ ★

خبايا الصّدور

الاهـــداء

الى الذين فى شفاههم صمت ، وفى حشاهم صخب .

الى الصابرين على الجوى .

الهادئين على السعير .

الى الذين انطوت قلوبهم على مشاعرهم .

وأغلقت صدورهم على خباياهم .

أهدى بعض « خبايا الصدور » .

يوسف السباعى

دُمْيَةٌ أُخرى

أيتها الدمية .. سامحك الله .. انى أحبك
حتى الآن .. حتى بعد أن وضعتك فى
مصاف الدمى .. ولكن الى متى يدوم
حب الدامـــــــــــــــــــــــى ؟

لهفى :عليك يا ساحرة ، أن أضعك فى مصاف الدمى . لهفى عليك ياحبيبة الروح أن ينتهى بك المطاف .. لتستقرى بجوار غيرك .. ولتضيفى الى كوم الدمى ، دمية أخرى .

لهفى عليك وأنت المخلوقة الرقيقة المرهفة الحس المتأججة المشاعر .. أن أنزعك من القلب لألقى بك وسط الحطام البائد .. والرماد الخامد .

كنت أربأ بك عن هذا المصير .. كنت أنزهك عن التردى فيه ، وكنت أتشبث بك ، وأضم عليك الحنايا ، وأطبق الضلوع .. كنت مصمما على أن أبقيك الى الأبد ، كنموذج سام مرتفع يسمو عن الخطايا ، ويجل عن الهنات .

كنت مصمما على أن أجعل منك نسيجا وحدك .. نسيجا حيا .. غير نسيج الدمى البائدات الخامدات .

ولكن ما حيلتى معك ، وقد ابيت الا الزلل والهبوط ! ما حيلتى ! أخلق منك معبودة مقدسة .. فتصنعين من نفسك بشرا تافها .. أرفعك فوق الغمام فتنحدرين الى الرغام .. ما حيلتى ! أضعك فى قلبى .. فتتطايرين مع الهواء وتخرجين مع كل زفرة حارة ، وآهة ملتهبة .

ما حيلتى ! اجعل منك حبيبة الروح .. وتجعلين من نفسك دمية ؟ .

★ ★ ★

هل تذكرين قصة دمية .. بالطبع تذكرينها .

فما أظن هناك قصة كانت تشغل رأسك ، وتقلقك أكثر منها .

كنت تجزمين أن القصة حقيقة واقعة ، وكنت تكرهين بطلتها وتغارين منها ، رغم علمك أنها - بفرض صحة وجودها - قد اضحت خارج الحلبة .. وأن القلب قد خلا لك وحدك تتربعين فيه بلا شريك ولا منازع .

كانت القصة كما تذكرين تدور حول « فترة راحة » وكان بطلها الفنان الزوج الأب قد اندفع فى حب يائس لا أمل فيه سوى أن تهبه الحبيبة « فترة راحة » ، ولكن الحبيبة خذلته ونكصت على عقبيها .. فكتب يقول لها :

« لقد اندفعت فى حبك حتى خيل الى أنى أوشك أن أصل الى « فترة راحة » ولكنى رأيتك تنثنين فجأة وتقلبين ظهر المجن وتبدين على حقيقتك زائفة تافهة .

« ولا أكتمك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى ، وأن صدك قد آلمنى ، وتحولك عنى قد أوجع نفسى ، واكتشاف حقيقتك عصر قلبى اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت

صدك بصد مثله وصممت على أن أقتلعك من قلبى اقتلاعا .

« وأعانني الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك أو أكاد حتى أضحيت بالنسبة الى دمية كغيرك من الدمى » .

وكان أكثر ما يقلقك .. أن تحل نهايتك معي كما حلت نهاية بطلة القصة .

كنت تخشين أن أبرأ من حبك ، وأن أنساك ، وأن تصبحى بالنسبة الى مجرد دمية .

وكنت تسألينني فى لهفة :

– كيف سلوت صاحباتك الأوليات ؟ كيف طردتهن من قلبك ؟ كيف كرهتهن ؟ . لشد ما أخشى أن ألحق بهن ؟ .

كنت تسألينني وقد جلسنا متلاصقين ، والصحراء العريضة قد امتدت أمامنا ساعة الغروب ، والشمس الهابطة تجر أذيالها الحمر ، وفى اقصى الأفق بدا المنظر الساحر الذى اتفقنا معا على أن نستوعبه فى رؤسنا قطعة قطعة ، وأن نحفظ تفاصيله وحذافيره حتى يخلد فى نفسينا هذه اللحظات السعيدة التى اختلسناها من القدر .

واني أذكره يافاتنة .. كأنى أبصره امامى ، وسأذكره دائما كشىء لازم لك .. أذكر المزارع تمتد فى أقصى الأفق وراء الصحراء الواسعة خضراء باهتة .. كأنها شريط يفصل صفرة الرمال عن زرقة السماء . وأذكر المدخنة القائمة مرتفعة مستقيمة تنفث بدخانها الأسود المتبدد مع السحب ، وأذكر أكوام الرمال أمامنا التى استخرج منها الزلط ، وأذكر العربات تقلقك كلما مرت من الطريق البعيد ، فخلتها قادمة الينا تقطع وحدتنا ، وتزعج ، خلوتنا .

أذكر كل ذلك ياحبيبتى ..

وأذكر وجهك الدقيق الحلو وأنفك المستقيم وطرطوفته المرتفعة التى

كان يلذ لى أن أممك بها برفق بين أسناني كأنى أوشك أن التهمها .

أنكر عينيك الساحرتين المتلهفتين اللتين تقطران وجدا وتفيضان جرى وأنت تسأليننى :

– كيف كرهتهن ؟ .

– كرهتهن لأنهن أكرهننى على كرههن .. لأنهن كن تافهات متقلبات .

– كم أود أن أبقى فى قلبك الى الأبد . انى لا أستطيع الآن أن أشرح للك حبى ، انه شىء زاخر فياض ، لا تعيننى الألفاظ على وصفه ، ولكن فى المستقبل قد تستطيع أن تعرف مقداره .

– انى أعرفه الآن ، لأنى أشعر بمثله .. ولن يقدر على أن ينزعك من قلبى الا شىء واحد .

– ما هو ؟ .

– أنت .

– وكيف ؟ .

– أنت وحدك التى تستطيعين أن تنزعى نفسك من قلبى ، بأن تدميه ، وتجرحيه ، وتبدئينى بالهجر ، وتتنكرى حبى ، وتستبدلينى بآخر او بآخرين .

ونظرت الى مؤنبة وتنهدت تنهيدة حارة ، وقلت فى صوت يذوب أسى :

– أنا أفعل ذلك ؟ ! ليتنى أستطيع أن أفعله .. ليتنى أستطيع ان أرفع عن نفسى عبء حبك .. حبك اليائس الذى لا أمل فيه .

ووضعت رأسك على صدرى وقلت هامسة :

– ولكنى عبثا أحاول .. انى لا أحس بالراحة الا الى جوارك ..

أحس أني فى موضعى الصحيح .. وأنني بت ملكك ، تفعل بى ما تشاء ولا شيء يمتعني أكثر من ذلك . أحبني دائما فاني لا أتصور كيف أعيش من غير حبك .

– سأحبك دائما .. كيف لا أحبك ، وكل ما بك يبعثني على حبك ؟ . كيف لا أحبك وأنا ما رأيت فى حبك لحظة شقاء ولا ضيق ؟ . كل ما ذقته من حبك سعادة خالصة لا تشوبها شائبة .. لقد أرضيت كل جارحة فى نفسى .. كيف لا أحبك وأنت تعتبرينني مخلوقا كاملا مثاليا ؟

– وانك لكذلك .. وما من انسان الا ويعتبرك كذلك .

– لا .. لا .. ان عين حبك هى التى ترانى كذلك .

ولا أكاد انتهى من قولى حتى ألمح سحابة حزن خيمت على وجهك فأسألك فى جزع :

– ما بك ؟

– لا شيء ..

– بل بك شيء !

– لا شيء اكثر من احساس بقرب الفرقة .. كم أكره أن اتركك ولو الى حين ، ويعلم الله ماذا يمكن أن يحدث لى عندما يقدر لنا أن نفترق الى غير لقاء !

وضممتك الى ومسحت بشفتى كل قطعة فى وجهك .. عينيك ووجنتيك ، وأنفك ، وخديك ، وذقنك ، وعنقك ، وكتفيك ، وذراعيك ، ويديك .. ثم استقررت فى النهاية على شفتيك .

★ ★ ★

حمق منى أن أكرر ذلك الآن .. فما أظنني الا كالنادب فى مأتم أو كالنائح على قبر يستدر العبرات باستعادة ما مضى ويستذرف الدمع بترديد ما فات .

ولكنى أؤكد لك اننى اكتب بلا عبرات ، أو عبرات جامدة فى المقلة .. ولو سالت لخففت عنى بعض الجوى ، واذهبت عنى بعض اللوعة .

لقد افترقنا وقتذاك وأنا أشعر أننا قد وصلنا فعلا الى « فترة الراحة » .. وأننا قد انغمرنا فيها .

وكيف لا .. وأنا ما أحسست براحة ذهنية أو روحية أو قلبية كما أحسست بجوارك أو بمجرد التفكير فيك .

كيف لا .. ورسالتكَ التى أرسلتها الى بعد افتراقنا تنطق بذلك .. وتشهد به .

كيف لا .. وأنت القائلة فيها :

« لقد قلت اننى ما دمت قد سمحت لنفسى بأن أفعل معك ما فعلت .. فان من العبث أن آمل فى سعادة أخرى مقبلة .

أننى آخذ نصيبى من السعادة الآن فلا أظن أن هناك مخلوقا يستحقنى أو يستحق أن أهب له ما وهبت لك .. أكثر منك .. انى لا أستطيع أن أكون مثلك فأحب عشرات الرجال .. كما أحببت أنت عشرات النساء .. وأن أستمتع بهم كما استمتعت بهن .. لأننى لا أملك الا أن أحب مرة واحدة .. رجلا واحدا .. ولقد كنت أنت هذا الرجل .. ولا أحد سواك .

انى أجزم لك أننى حتى لو تزوجت فلن أحاول أن أحب زوجى كما أحببتك . قد أشعر له بنفس التقدير والاحترام اللذين تشعر بهما لزوجتك .. أو أقل .. ولكننى أؤكد لك أنى لن أجسر على تقبيله أو مسه أو على فعل أى شىء من هذا القبيل .. رغم أن هناك بعض الأشياء التى لابد لنا من تأديتها لأن واجبنا يحتمها علينا .

ان متعتك بى لا تعادل متعتى بك .. لأنى أشعر أنى أحسو كل كأسى

الآن .. انى أفرغها حتى الثمالة .. انى أستمتع بضمة ذراعيك وحرارة شفتيك وبكل شيء فيك .

لقد كنت دائما اقول لنفسى انى لابد فاعلة ذلك مع أحدهم ، ومادمت أنت الآن - وستكون دائما - أعز الناس على نفسى واقربهم الى قلبى .. فلا أظنني أكون بمخطئة اذا ما فعلته معك .

ان الحياة قاسية ياحبيبى ولا أظننا نملك ازاء قسوتها الا أن نختلس المتعة من حاضرنا فنقبل على بعضنا قدر ما نستطيع ونمتع انفسنا قدر مايمكننا ، وأن يثق كل منا بصاحبه دائما .

انى أثق بك برغم انى لا أثق قط برجل فى هذه الدنيا ، كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى أبدا .. أبدا .. ولنحفظ حبنا صامتا فى قلوبنا ، مستعرا فى حنايانا ، دون أن يشعر به أحد ممن حولنا .

المخلصة

« ..... »

★ ★ ★

أجل يا أخ وليساعدنا الله .. ولكن علام ؟ على الحب ؟ أو على الخلاص من الحب ؟

أما أنت .. فأغلب ظنى - رغم محاولتك الانكار - أنك قد تخلصت منه .. أما أنا .. فانى أدعوه ليل نهار ، أن يخلصنى منه ، ولكن الله لا يستجيب دعائى .. فان الذهن قد يغفو عن ذكرك لحظة ، ولكنه لا يلبث أن يندفع وراءك يلاحقك ويطاردك ، فيصيب القلب منك ما يشبه الغثيان وتغرق النفس فى ظلمة من الحزن معتمة .. وأكاد لولا بقية من جلد ، ومسكة من الاباء والخجل ، أن أندفع فى البكاء .

لقد قلت فى رسالتك : « كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى أبدا » .

وأنا أقرأ الان جملتك .. ولا أملك أن أمنع ابتسامة مريرة من أن تتخذ طريقها الى شفتى .

أنا أخذلك ؟ ! لشد ما ظلمتنى برجائك .

والآن .. أيتها العاشقة الولهى .. المحبة الى الأبد .. من منا الذى انثنى عن صاحبه وتركه فى منتصف الطريق .. أو على الأصح فى منتصف فترة الراحة .. أنا ؟ . أم أنت ؟ .

لقد فعلت بالضبط كل ما حذرتك من فعله ، لقد أنزلت بى من العذاب والألم ما لو سلطه على ألد أعدائى لعجز عن انزاله بى .. لقد ارتكبت معى جريمة قتل .. معنوى .. روحى .. قلبى .

لقد قذفتنى من حالق .. وأشعرتنى بمنتهى التواضع ، وقد يكون هذا بعض ما تستحقين عليه الشكر ، اذ لابد للانسان من بعض الصدمات التى تعيده الى نفسه وتجعله يفيق من غروره .

ولكن أكنت أنا حقا مغرورا ؟ يعلم الله أنى قلت لك مائة مرة انى لا شىء .. ولكنك كنت تأبين الا تأليهى .. واتهامى بالعبقرية والنبوغ .. سامحك الله وعفا عنك .

والآن . ماذا فعلت بى ؟ وما الذى حدا بك الى فعله ؟

كل ما حدث بيننا سوء تفاهم لا يمكن أن يخلو منه عاشقان ولست أظن هناك فائدة من سرد تفاصيله ، ولكن أذكر ان أقصى ما فعلته بك هو أنى غضبت عليك لأنك لم تستطيعى لقائى ، ورفضت أن آخذ منك تذاكر لمشاهدة حفل كنت ستقومين بالتمثيل فيه .

أفعلت أكثر من هذا ؟ .

فماذا فعلت أنت ؟ .

وأنت – هذه – تحتاج الى بعض الضغط والتأكيد .. والشرح والتفسير .

أنت .. القائلة : انك ستتبعيننى الى أقصى الأرض .. القائلة بأنك لست مثلى .. أنا المتقلب المتحول .. العاشق لعشرات النساء .. لست مثلى لأنك لم تحبى ، ولن تحبى سوى رجل واحد .. هو أنا .

أنت المرتجفة خوفا من أن أنساك .. الغير مصدقة أنى أحبك حقا .

انت .. وأنت تعرفين أكثر من كل مخلوق .. ما كنت وما قلت وما كتبت ، وما فعلت .

بعد كل هذا أيتها العاشقة الوفية .. ماذا فعلت بعد أول خصام بيننا ؟ .. لقد كتبت الى رسالة وداع تقولين انك تكرهين أن تنهى ما بيننا .. وأنك مازلت تحبيننى ، وأنك برسالتك تنهين لقاءنا ، ولكنك لا تنهين حبنا وأنك ستظلين تحبيننى بينك وبين نفسك حتى تتحاشين الزلل والخطأ ، وحتى يستريح ضميرك .

وكانت كتابك – والحق يقال – قطعة رائعة فى الوداع ولم أملك الا أن أرد عليه بمثله .

ومع ذلك – ورغم أننا أعلنا الوداع بالرسائل – فقد كنت غير مقتنع بأن ما بيننا يمكن أن ينتهى حقا بمثل هذه السهولة .. بمجرد رسالة منى ورسالة منك .. كنت واثقا – لا سيما وقد قلت انك لازلت تحبيننى – أن الحنين العائد والشوق الزائد لابد معيدان كل منا الى صاحبه .

وبعد بضعة أيام حادثتك فى التليفون .. لأطلب منك لقاء قصيرا .. فقد كنت واثقا أن مجرد لقائنا سيذهب كل ما فى نفسينا .

فماذا قلت لى فى التليفون ؟

قلت لى : انك مشغولة .. وانه ليس لديك وقت .. وانك لا تستطيعين لقائى .. ولا الحديث معى .. وأنه كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا قد انتهى .. ثم .. ثم أغلقت السماعة فى وجهى .

وأمسكت بالسماعة برهة ، وأنا انظر اليها فى عجب وذهول .. ثم وضعتها فى مقرها فى صمت كأنى أضع ميتا فى نعشه .

ان الأمر قد يحدث لأى رجل .. ومن أى امرأة .. وحاشاى أن أستكبر وأغتر فأقول انى لست أنا الذى تعود من النساء القسوة والهجر والخذلان .

ولكن منك انت .. لى أنا .. كان أكثر من أن يحتمل . كان مذهلا .. كان قاتلا .

انت .. يارقيقة الحاشية ، يا مرهفة الحس .. ياملتهبة العاطفة ، ياذائبة القلب .. يا من تتمنين ألا أخذلك .

ومع ذلك فقد احتملت الصدمة .. ولم أحاول ردها لك .. ولم يكن أمامى سوى الاحتمال لأنى مازلت أحبك .

والتقينا بعد ذلك لقاء قصيرا عابرا .. وقلت لك فيه انى ما زلت رغم ما حدث أحبك .. فهززت رأسك وقلت « كأنى لا أفعل » .

أجل .. لقد قلت انك أيضا ما زلت تحبيننى رغم كل ما حدث .

هكذا كان قولك .. أما فعلك فقد كان يكذبه تكذيبا قاطعا .. لانى عندما لقيتك ثانية .. مددت يدى لمصافحتك - لأنى كنت أعتقد أننا نستطيع على الأقل أن نكون أصدقاء - فلم تمدى يدك .

وأحسست بخجل شديد وقلت لك :

- انها أول مرة أمد يدى فلا تلقى يدا .

- كان لابد أن يحدث ذلك فى يوم ما .

- كنت أود ألا يكون منك أنت !

وأحسست بالخجل فمددت يدك ، وصافحتنى ، ولكن بعد أن أحسست أن كبريائى قد تحطمت .

وبعد لحظات انزلت بى الضربة الأخيرة .. والقاضية .. فلقد رأيتك تجلسين مع آخر ، وقد بدت عليك أقصى آيات البشاشة والرضا والهناء .

وفى اليوم التالى تكررت منك اللطمة .. وأحسست ان الأمر بيننا قد انتهى فعلا .

★ ★ ★

وهكذا فقدت كل أمل فيك ، ولم يبق لي من أمل فى غير الله ، لقد لجأت اليه بعد طول ذنب وعصيان ، وزلل وخطايا ، أسأله أن ينقذنى منك ومن نفسى ، وينسينى اياك .

وأنا صبور .. شديد الجلد ، قوي الاحتمال ، ولكن الصدمة كانت أقوى من الصبر وأشد من الجلد .. لقد تركتنى ممرورا منهارا .

لقد كانت المسألة أشد من أن تكون مجرد فشل فى حب . لقد بدد انقلابك من النقيض الى النقيض كل ايمان لى بالحس البشرى والشعور الانسانى .. لقد كنت مخطئا من الأصل فى حبك .. ولكن كان يعزينى أنى مساق بحسى المرهف .. وقلبى الذى لا يهدأ .. وكنت أرى فيك صورة لنفسى .. فلما خذلتنى جعلتنى أشعر كالغريب الضال وأحس أنى بين الناس شاذ فى مشاعرى وفى حسى .

وحاولت جهدى أن أخفى صدمتى – وأن أبدو بين الصحاب كما أنا – ولكن صاحبى أدرك ما بى فقال ناصحا مؤنبا :

– انت السبب فى كل ما حدث .

– كيف ؟

– لم تعرف كيف تعاملها .

وماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟

– انى أذكر اقصوصة عربية قد تعطيك درسا مفيدا . زعموا أن أعرابيا سأل عنترة بين شداد عن سر شجاعته فقال له : ضع أصبعك فى فمى وسأضع أصبعى فى فمك . ففعل الأعرابى ، فقال له عنترة : فليعض كل من الآخر ، وبدأ كلاهما فى العض فصرخ الإعرابى من الألم ولم ينبس عنترة ببنت شفة .. وترك أصبع الأعربى قائلا : هذا هو سر شجاعتى .. أن المى يعادل ألمك ان لم يكن أشد ، ولو لم تصرخ أنت لصرخت أنا ، ولكنى استطعت أن احتمل حتى صرخت أنت فبدوت أنا أكثر شجاعة .

وصمت صاحبى برهة ثم أردف :

– وهكذا كان يجب عليك أن تفعل .. انها تعض على أصبعك فعض على اصبعها واياك أن تصرخ حتى تصرخ هى وتسألك العفو واللقاء .

وهززت رأسى ، أن صاحبى لا يفهمنى ، وشر ما فى الأمر أنه ليس هناك مخلوق يمكن أن يفهمنى .. الا مخلوق واحد .. هو أنت .

أبعد هذا سخرية ؟ أنت وحدك التى كان يمكن أن أشكو اليك نفسك فتفهميننى وتقدرين أساى وحزنى .

ولقانى صاحبى بعد هذا فسألنى :

– كيف حال أصبعك ؟

فأجبته ضاحكا :

– الألم يشتد به يوما بعد يوم .

– اصبر واستمر فى العض .

ولكنى لم أحاول أن أعض لأنى أكره – بعد كل ما فعلت – ايلامك ولم يكن أسهل على من أن أحاول عضك ، وأن أكيل لك بنفس الكيل وأنت تعرفين أن الصديقات اللاتى يحاولن أغاظتك فاجتذابى اليهن كثيرات .. وتعرفين أكثر

من هذا مدى ايلامك عندما ترين صاحبا لك معه فتاة أخرى ، فما بالك بصاحب .. تحبينه أو كنت تحبينه ؟

لم أحاول ايذاءك .. وصممت على أن أحتمل الأمر ، وأصبر على الصدمة وأن أنساك .

وعندما سألنى صاحبى آخر مرة عندما أنزلت بى ضربتك القاضية :

- كيف حال أصبعك ؟

- قلت له :

لقد قطعته .

ولم يكن فى الواقع أصبعى ، بل كان قلبى .

انى أحس به يدمى وينزف .

ولكن لابد لنزيفه من نهاية .

أيتها الدمية .. سامحك الله .

انى أحبك حتى الآن .. حتى بعد ان وضعتك فى مصاف الدمى .

ولكن الى متى يدوم حب الدمى ؟

★ ★ ★

ووضع الكاتب قلمه وجمع الأوراق فطواها . وهم بالضغط على زر الجرس ليستدعى الحاجب حتى يعطى له القصة لتسليمها الى المطبعة .. فى الوقت الذى دفع الحاجب الباب وبيده بضعة خطابات ووضعها على المكتب .

ومد الكاتب يده بالأوراق لتسليمها للحاجب عندما لمح خطها المكتوب على أحد الظروف فجذبه بحركة عصبية مفاجئة .. وأعاد الأوراق الى مكتبه ثم أمر الحاجب بالخروج والانتظار .

وفض الكاتب الخطاب بسرعة وأخذ فى القراءة ..

★ ★ ★

« أتذكر القصة التى كتبتها لك عن حبنا ؟ والتى جعلت فيها البطلة - التى هى أنا - تموت فى نهايتها بداء الصدر .. أتذكر رأيك فيها وقتذاك ، عندما قلت لى « انك تحبين حبك وتفزعين أن تريه الى نهاية ، ولذا فضلت أن تضعى حدا لحياتك حتى لا ترين نهاية حبك » .

انى الآن فى مثل هذا الموقف ، أرى نهاية حبى ، ولكن لا أستطيع أن أضع لحياتى نهاية .. ان القدر يأبى على تلك النهاية التى منحتها لبطلة القصة .. فقد جعلنى سليمة معافاة أرقب ذبول حبى ، ولا أستطيع أن أغمض عينى حتى لا أراه .

ان أمامى الآن .. قصتك « دمية » .. أقلبها بين يدى وأقلب نظرى بين سطورها .

كم أحس بالألم والمرارة ، وأنا أرانى قد زججت بنفسى بمنتهى الحمق فى موقف بطلتها .

كم أحس بالانهيار وأنه أجد نفسى قد بت لديك مجرد دمية .

كنت بلهاء حمقاء حينما حاولت أن أنتهز فرصة خصامنا لأنهى حبنا .. أجل .. لقد ظننت فى ساعة غضب عليك انى أستطيع التخلص منه وصممت على انهائه .. فقد كنت أعرف مبلغ ثقله عليك وعلى ومبلغ خطيئتنا به وخشيتنا منه .

وذكرت ما قلت لى من أنه لن ينزعنى من قلبك وينسيك اياى الا أن أبدك بالهجر ، وأنكص فى حبك وأستبدل بك آخر .

وصممت على أن أبدأ التجربة .. تجربة انقاذك من حبى .. وانقاذى من حبك ، وأخذت فى صدك وهجرك وأستبدلت بك آخر .. تماما كما قلت لى .

ويبدو لى أن الظروف كانت قد تآمرت على .. فقد تقدم الى أحدهم وقتذاك لخطبتى ، ولم يكن هناك غبار عليه .. بل كان فى عرف أهلى يعتبر « لقطة » .

وقد وجدت فيه أنا من وجهة نظرى خير « لقطة » تعاوننى على تنفيذ خطتى ، وعلى وضع حد حاسم لما بيننا .. لاسيما وأنى كنت أخشى أن أضعف أمامك ، فأنكص على عقبى .. وأعاود الانغماس في حبك بطريقة أشد عنفا وأكثر قوة .

ولم أحاول قط أن أفكر فى ذلك الخطيب .. أو انظر اليه بعين فاحصة .. اذ كان لدى مجرد وسيلة للخلاص .

وبين عشية وضحاها اضحيت زوجة .. واعتبرت انى قد انتهيت منك تماما .

ومع ذلك ..

أجل .. ومع ذلك .. لم أكد افيق من غمرة الزواج واجراءاته .. حتى وجدت نفسى أشبه بالمجنونة .

أشبه ؟ انى مجنونة فعلا !

ما هذا الذى فعلته ؟ ..

لقد دمرت حياتى بعملين أحمقين :

أولهما .. اننى احببتك .. ولكن عذرى فى هذا : انى لم أكن مجبرة فيه بل مدفوعة اليه على الرغم منى .. اما الثانى ، الأشد حمقا ، والذى فعلته بمحض ارادتى ، فهو أنى هجرتك وآذيتك وحطمت كبرياءك .. وفعلت بك شر ما يمكننى فعله ، ثم تزوجت بعد كل هذا بمنتهى البساطة .

أهذه هى محاولتى لانقاذ نفسى ؟ ..

يا للحمق ويا للجنون ؟

انى أعرف انى قد فقدتك تماما .. وهذا هو ما يجعلنى أكاد اجن .. ويزداد جنونى عندما أقارنك بهذا المخلوق التافه الذى تزوجته .. وعندما أتذكر السعادة العميقة التى كنت تمنحنيها بمجرد لمسة يدك .

انى لا أطيقه .. ولا اطيق رؤيته أو القرب منه .

لو تركت لنفسى لفررت عائدة اليك ضاربة بكل شيء عرض الحائط .. ولكنى أعرف أنى فقدت قيمتى لديك وأعرف انك حتى لو حاولت التظاهر بحبى .. فلن يكون ذلك أكثر من وفاء منك ورفق بى .. أما حبك المتأجج المستعر فانى موقنة تماما انى قد فقدته – بعد كل ما فعلت – الى الأبد .

ما قيمة حياتى ؟ .. وأنا أرى نفسى ميتة لديك ؟ .. لقد كنت أحب الحياة من أجلك فماذا يغرينى بها أن فقدتك ؟ أليس الموت منقذا لى ؟ . أليس خير ما ينعم به القدر على هو خاتمة كخاتمة بطلة قصتى ؟ .

ولكنى القدر ضنين حتى بالموت عندما نريده .

أجل .. انى أريد الموت .. لانى أعرف أنه سيحيينى لديك .. انى واثقة أنى لن أستعيد مكانتى فى نفسك الا بعد الرحيل .

انى أفضل أن أكون حية فى قلبك ، ميتة أمام الناس .. من أن أكون ميتة فى قلبك ، حية أمام الناس !

كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى .. بعد موتى .. وأن تجعل لحياتى المفقودة ثمنا .. هو حبك .

أحبينى يا حبيبى كما أحببتنى دائما .. حبا جارفا فياضا متأججا مستعرا .

انى ما زلت أثق بك .

وأرجوك أن تثق بى .

ثق أنى -- كما قلت لك -- لا أملك الا أن أحب رجلا واحد .. وهذا الرجل .. هو أنت .

وأرجو - بعد ما قلت لك - ألا تضعنى بعد موتى فى مصاف الدمى .. لأن الدمى لا تموت .

« وخير لى أن أكون حبيبة راحلة .. من أن أكون دمية باقية » .

المخلصة

« ..... »

★ ★ ★

ولأول مرة يذوب جامد دمعه .. فتتساقط عبرتان على الرسالة ويدق الجرس ، ثم يطوى الرسالة مع القصة ويسلمها للحاجب وهو يقول فى شبه همس :

-- هاكم دمية أخرى .

★ ★ ★

خطيئة أم

فرت أمي .. فخلفت لنا فجيعة ما بعدها فجيعة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار فنحس بأثر لغيبتها .. بل كانت فجيعتنا هى فجيعة عار وفضيحة ..

خطايا النساء ثلاثة :

خطيئة امرأة بلا زوج وبلا أطفال ..
وخطيئة امرأة ذات زوج ..
وخطيئة امرأة ذات زوج وأم أطفال ..

ولو جمعت كل خطايا الأرض لما ساوت خطيئة الثالثة ..

ان لم تصدقونى فاقرأوا هذه القصة .

هى قصة نفس مرهقة معذبة ، ألقت عليها الحياة عبء غيرها .. فأثقلت به كاهلها .. وأنقضت به ظهرها .. نفس مرهفة حساسة .. طوت

بين الضلوع مرارة احزانها .. وجمرت أساها ، حتى كاد يحرق صدرها ويتركها هشيما ورمادا .

حدثتني صاحبة القصة فقالت :

- أمي .. يا سيدى هى علة الشقاء .. ومنبع الداء .

أمي التي كان يجب أن تكون عوني في الحياة .. كانت عونا لها علي ..

أمي التي كان يجب أن تبعد عني الشقاء وتقيني الشر .. وتجنبني الهموم .. لم يكن لي في الحياة هم سواها .. كانت شقائي .. وكانت علتي .

أي انسان لم يجد بين أحضان أمه ملجأه ؟ .. وعلى صدرها راحته ؟ لقد كنت أعتبر نفسي يتيمة بلا أم .. وكنت أعدها في عداد الأموات .. ولكن حتى هذا اليتيم لم ينعم به الله علي .. فقد كنت أدرك في قرارة نفسي أنها ما زالت حية تسعى .. وأننا - بعد طول فرقة - قد نلتقي في أية لحظة .

لا تقل أن في نفسي غلظة وقسوة .. ولا تقل عاقة جاحدة .. ملأت نفسها المرارة فهي تفيض بها على ما حولها .. لا .. ولا تقل لي ان « الجنة تحت أقدام الأمهات » .. فما خلفت لي أمي سوى جحيم يستعر لهبها ، وتتأجج نارها .

فارقتني وأنا في الثامنة .. فارقتني فلم أستشعر لفرقتها كثير لوعة .. وغابت عن الدار .. فما خلف غيابها فراغا يحس به ، اذ كانت لا يستقر لها في الدار قرار .. كانت أبدا في انطلاق دائم .. لا تأوي الى الدار إلا للنوم والأكل والتزين .

دعني أعرض لك صورة لما كنت أراه وقتذاك بعيني وأنا طفلة منذ أكثر من عشرين عاما .. أم وأب في عراك دائم وتطاحن مستمر .. لست

أدرى أيهما المخطىء ، أو أيهما المصيب .. ولا أيهما المعتدى أو أيهما صاحب الحق ، ولكن كل ما أعرفه أنى كنت أنجو بنفسى من تلك المعارك ، وألوذ بأحضان - الحاجة - الخادمة العجوز ، فأدفن رأسى فى صدرها حتى تأخذنى سنة من النوم .

انى لأذكرها تماما ، بالرغم من تلك السنين الطوال التى طواها الزمن . أذكرها ، كامرأة غريبة لا كأم ، فما اذاقتنى طعم الأمومة قط .. فقد نضب فى نفسها معين من الحنان .. أو قل انها لم تجد من وقتها فراغا تستطيع أن تشعرنى فيه أنها أمى .. لا أظنها كانت قاسية .. ولكن كل ما فى الأمر أن فرط تعلقها بذات نفسها كان يستغرق كل وقتها . ويستنفد كل جهدها . فهى لا ترى سوى نفسها .. ولا تعنى الا بنفسها ولا تمتع الا نفسها .

لا أظننى كنت وقتذاك أستطيع فهمها كما أفهمها .. فما كنت أحاول ان افهم شيئا .. وما كنت أعرف أن هناك شيئا اسمه الأنانية .. وأن هناك شيئا اسمه الشر .. ولكن كل ما كنت أعرفه ، هو أن - الحاجة - كانت أقرب الى منها .. وكانت أكثر حنانا ، وأشد حبا .

كانت أمى امرأة جميلة .. من النوع الذى لا تخلف فيه السنون أثرا .. فما كانت تبدو أما حتى ولا زوجة .. بل فتاة مرحة لاهية ، لا ترهل فى جسدها ، ولا تهدل فى صدرها ، بل تماسك واستواء .. ونضج وامتلاء .. ولقد قالوا لى انها لم ترضعنى خوفا على ثدييها من التلف .. والله أعلم ما فى قولهم من الصدق .. وان كنت أنا لا أستبعده .

ويخيل الى أنى قد ورثت عنها الكثير من ملامحها .. فلقد كانت - الحاجة - كثيرا ما تنبئنى بأننى شديدة الشبه بها ، وكم أقض قولها هذا مضجعى .

كنت لا أراها فى الدار الا منهمكة فى تصفيف شعرها .. أو فى

وضع المعاجين والمساحيق على وجهها .. أو فى تزجيج حواجبها بملقاط بين أصابعها .. أو فى أزالة الشعر عن ساقيها وعن جسدها .. أو فى طلاء أظافر يديها وقدميها .. حلقة مفرغة لا تنتهى منها أبدا .. تستغرق منها كل وقتها ، أو كل هنيهاتها التى تقضيها فى الدار أثناء اليقظة .

وكنت أحس بأنها كانت تفعل أشياء .. لم أكن أعرف بالضبط ما هى .. وان كنت أدرك باحساس هاجس .. انها أشياء غير مشرفة .. أشياء مما لا يصح عملها الا فى الخفاء .. ويخيل الى أن - الحاجة - كانت تعرف تلك الأشياء وتكرهها .. وتكره أمى من أجلها .. وتحتقرها بينها وبين نفسها وتزدريها وان كنت بالرغم من ذلك تحاول التستر عليها .

كان يخيل الى فى بعض الليالى .. ان هناك زائرا يزورنا فى الليل خلسة ، وينصرف قبلما يحضر أبى ، وكنت آوى الى فراشى مع - الحاجة - فأسألها عمن يطرق الباب فتنبئنى بأنه بائع اللبن . أو الكواء .. وتطلب منى أن أنام .. ولكن كنت لا أنام ، بل أرهف السمع ، فيدهشنى أن الكواء كأنه قد تسلل الى داخل البيت ، ومكث فيه .. ثم يهاجمهى النوم ، فأروح فى سبات عميق ، لا أدرى بعده ماذا يفعل الله بالكواء ، أو ببائع اللبن ؟

هل كانت أمى تخدع أبى وتفعل ما يحلو لها من ورائه ؟ هل كان أبى يعرف ؟ ..

من كان أبى ؟ .

أبى - الذى أعرف أنه أبى - كان مدرسا .. ثم ناظر مدرسة .. كان رجلا من رجال العلم والتربية .

أترى رجال العلم والتربية كلهم كأبى ؟ اتراهم دائما عابسين متجهمين .. لا يستطيعون أن ينسوا لحظة أنهم مدرسون ونظار ؟ أتراهم لا يرون فى كل من حولهم الا تلاميذ ؟ . وعليهم أن يؤدوا لهم كل واجبات

التبجيل والاحترام ؟ أتراهم يعتبرون أن كرامتهم لا تحفظ الا بالتجهم ؟ وأن هيبتهم لا تصان الا بالتزمت والتكشير ؟

اقسم لك بأنى ما رأيت أبى يضحك قط . ولم أكن أكرهه .. ولكنى كنت أتمنى أن يكون خيرا من ذلك .. كنت فى حاجة الى من يدللنى ويعطف على .. فلا أظن من السهل على طفلة أن تجد اهمالا من الناحيتين .. الأم والأب . فالمعتاد هو أن يعوضها أحدهما بحنانه عن الآخر .

فاذا كان الأب جادا عبوسا ، كانت الأم حنونا رقيقة ، واذا كانت الأم لاهية عابثة .. كان الأب لينا عطوفا .. أما أن تكون الأم مشغولة بصقل جسدها ، وتزجيج حواجبها والمحافظة على بروز صدرها .. وأن يكون الأب منهمكا فى احاطة نفسه بهالة من الاحترام والمحافظة على هيبته وكرامته . فذلك ما لا يحتمل .

وهكذا مرت بى الطفولة وأنا مهملة منسية .. حتى كان ذات يوم .. وكانت الكارثة .. ووقعت الواقعة .. ففرت أمى مع عشيقها .. زائر الليل الذى أفهمت أنه بائع اللبن تارة ، والكواء تارة أخرى .

فرت أمى .. فخلفت لنا فجيعة ما بعدها فجيعة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار فنحس بأثر لغيبتها .. أو نشعر فراغا لافتقادها .. بل كانت فجيعتنا هى فجيعة عار وفضيحة .

تصور يا سيدى .. ابى .. الرجل الجاد العبوس .. القويم الخلق .. الذى يحلق بنفسه فى برج عاجى من الهيبة والكرامة .. والذى لا يهمه شىء فى الحياة قدر ان يحترمه الناس .. تصور هذا الرجل .. وقد فرت زوجته مع عشيق لها .. وتركته وراءها لقمة سائغة تلوكها الألسن .. وتمضغها الأفواه .

لقد كان وقع المصاب عليه أشد من أن يوصف .. وأصاب منه موطنا حساسا .. فأضنى نفسه وأدمى قلبه .. لقد هد كيانه وحطمه تحطيما .. فبدا عليه الهزال والكبر كأنما هو قد زاد عمره فجأة عشرات السنين .

هكذا كان وقع المصاب بالنسبة اليه .. أما بالنسبة الى ، فماذا أقول لك ؟

حقيقة أنى كنت طفلة فى الثامنة .. وأنى لم أكن على شىء من الوعى الذى يتيح لى ان أحس بمرارة الفضيحة .. ولكنها مع ذلك أوجعتنى .. وكان أوجع ما فيها أن مر الزمن – الذى يحمل فى طيه بلسم النسيان – لم يحمل لى فى طيه نسيانا قط .. بل كان كلما أمعن فى المرور ، وكلما ازددت وعيا وازددت فهما .. تزايدنى الاحساس بالفضيحة .. وتمادى تأثيره على حياتى .

كان أول تأثير لها على .. هو تلك النظرات العجيبة .. التى أضحى يوجهها الى أبى .. نظرات الريبة والشك والحيرة والقلق .

هل كان يشك فى انى لست أبنته ؟ جائز جدا ؟ وماذا يمنعه من هذا الشك ؟

وقد كانت أمى ، هى أمى .. الخائنة الخادعة التى لوثت شرفه وطعنته فى كرامته .. من يدرى أنى لست ابنته وهو لا يعرف متى بدأت أمى خديعتها له .. ومتى بدأت تلقى بنفسها فى بؤرة الفجور ؟ . ماذا يمنعه من الشك .. وأنا – لسوء حظى – لا أكاد احمل منه لمحة شبه .. فهو لا يجد فى الا صورة مصغرة منها ؟

لقد ملأه المصاب نفورا منى وتباعدا عنى ، وكان يخيل الى أنه لا يرى فى سوى أثر الخطيئة .. أو على الأقل مصدرا لشكوك تساوره .. وريبة تملأ قلبه .. ولقد كان معذورا .. فلولاى لاضمحلت ذكراها فى

رأسه .. ولاستطاع أن ينسى .. ولكن وجودى أمامه وشدة شبهى بها .. كانا ينكآن قرحة ويدميان جرحه .. ان صدرا واحدا هو الذى استمر يؤوينى ، ويفيض على بحنانه .. هو صدر – الحاجة – العجوز التى أخذت تعيننى وتشد أزرى .

وانتقلنا من مسكننا الى مسكن آخر مبتعدين عن جيراننا الذين عرفونا وعرفوا فضيحتنا .. ولنستبدل بهم آخرين لا يعرفوننا ولا يمضغوننا بأفواههم .. آخرين نستطيع ان نخفى عليهم أمرنا .. واستبدلت مدرستى بأخرى .. فقد كنت أحس بأنى لا أستطيع رفع رأسى بين صاحباتى القديمات ، وكنت أنأى بنفسى عنهن وأجلس وحيدة فما أكلم واحدة منهن .. وما أن وأحدة عرضت فكلمتنى .. ملأ نفسى احساس بالذل .. وشعور بالهوان .. تماما كأنى أنا التى ارتكبت وزر أمى .

وبدأنا الحياة فى مسكننا الجديد .. وذهبت الى مدرستى الجديدة بعد أن امرنى أبى بأن أقول للناس اذا ما سألونى عن أمى : انها ماتت ، ولم أحس من قراره بضيق ولا بغضاضة فقد كان هذا خير ما يمكن أن يقال .

ومرت الأيام .. وعلم كل من تعرفت بهن من صديقاتى الصغيرات ان أمى ميتة ، وبدأت أحس بالكثير من الراحة والاطمئنان .. وان كان ينتابنى خوف بين أونة وأخرى من أن أمى ما زالت على قيد الحياة وأنها قد تظهر مرة ثانية فى أفق حياتنا فتجدد فضيحتنا وتعيد تلويثنا .

وذات يوم حدثت فى المدرسة حادثة تافهة .. ومع ذلك فقد نكأت جرحى وسببت لى ألما شديدا .

كنت وقتئذ فى الرابعة عشرة .. وكانت المدرسة على أهبة أن تقوم بحفلتها السنوية .. وكنت سأشترك فى تمثيل احدى الروايات التى كنا سنقوم بتمثيلها فى الحفلة .

وبدأت المدربة بتوزيع الأدوار .. ووقفت بين صاحباتى منتظرة

دورى ورأيت السيدة ترفع أصبعها وتشير الى ثم تقول ببساطة : ستقومين أنت بتمثيل دور الزوجة الخائنة .

وأحسست بأن الدماء قد تصعدت الى وجهى .. وأن رأسى من فرط الحرارة التى تعمل فيه على وشك الالتهاب .. واحسست بغصة فى حلقى وبغشاوة على بصرى ، وصمت لحظة ثم انطلقت صائحة فى غضب جنونى دون أن أدرى ما أنا قائلة : « أنا لست خائنة » .

وبهتت السيدة للوهلة الأولى .. وبهتت الفتيات من حولى ، ومضت لحظة قصيرة ساد فيها السكون وعم الدهش وكانت لحظة قصيرة جدا .. تمالكن أنفسهن بعدها .. ثم استغرقن فى الضحك ، وأخذن يتندرن بى ساخرات قائلات : « هذه هى الزوجة الخائنة » .

وعصفت بى نوبة من البكاء لم استطع مقاومتها ، وأمرت المدربة الفتيات بأن يكففن عن مزاحهن .. وأفهمتنى أنها واثقة من أننى خير الفتيات .. وأن هذا مجرد تمثيل .. وأنها ستعطى الدور لفتاة أخرى .. ما دام هذا يؤلمنى .

عدت الى البيت وبنفسى انهيار تام ورغبة فى البكاء .. وارتميت فى أحضان – الحاجة – باكية ، وأنبأتها بما حدث ، فضمتنى اليها ، واحسست لأول مرة بدموعها الساخنة تنساب على صفحة وجهى .. وقالت بصوت ملؤه الرقة والعطف :

– ياحبيبتى .. انت سيدة الناس .. وستتزوجين من سيد الناس .

وهمست أجيبها فى صوت مرير :

ابنة الخائنة .. لا تلتقى بسيد الناس أبدا .

– ومع ذلك فقد التقيت به .. سيد الناس بلا جدال .. وأحسنهم خلقا وخلقا .. فتى يقطن الدار المجاور .. هادىء الطبع ، جم الأدب .. وكان

طالبا فى كلية الطب .. ولم أكن أحس بوجوده بالرغم من تقارب دارينا .. حتى كان ذات يوم أصيب أبى بنوبة أغماء .. وأصابنا جزع شديد .. وخرجت - الحاجة - فزعة مرتاعة .. تستغيث بأقرب مخلوق ، فصادفها الفتى خارجا من داره وسألها عما بها فأنبأته ، ودلف معها الى الداخل .. ففحص أبى وقام بأسعافه .. ثم خرج لاحضار أحد الأطباء .

وعاد مع الطبيب الذى أنبأنا بأن أبى قد أصيب بشلل وأشار ببعض أدوية .

ومنذ ذاك اليوم بدأت أحس بتغيير كبير طرأ على حياتى ، وكان منشأ ذلك التغيير .. أمرين : أبى .. وصاحبى .

أما عن أبى فقد بدأ يتحول رجلا آخر .. وبدأت أحس لأول مرة فى حياتى ، بعطفه وحنانه . لست أدرى أكان ذلك صدى لما أبديته من جزع عليه وتفان فى خدمته ، أم أحساسا بأنه قد ظلمنى بطول اهماله وتباعده وشكه وريبته ؟ على اية حال لقد أحسست أننى أحبه ، وأنه مخلوق طيب .. وأن أمى هى المسئولة عن كل ما به .. وأنها كانت تستطيع أن تجعل منه انسانا بشوشا مرحا ، لو كانت امرأة طيبة عاقلة .

اما عن صاحبى .. فقد ألقى على حياتى شعاعا بدد ظلماتها وجعلنى أحس بأن الحياة جميلة باسمة .. وشغلنى التفكير فيه عن التفكير فيما عداه .. ولأول مرة فى حياتى بدأت أحس بلذة التفكير .. ولو قال لى انسان قبل ذلك ان للتفكير لذة لقلت عنه انه مجنون .. ما كان أمتع التفكير وقتذاك .. وما كان أعجب تلك اللذة التى أنسجها من خيوط الفكر والخيال ! . وما كان أقدرنى على ان أمتع نفسى بنفسى ! كان يكفى لكى أغمر نفسى بالسعادة وأحيطها بالنعيم .. ان اتذكره . ان أتذكر تقاطيع وجهه .. وبسماته وضحكاته ، وحركاته ولفتاته .. كيف ينظر الى ؟ ماذا قال لى ؟ أتذكر كل كلمة وأتصور كل نظرة .. ما كانت أرخص السعادة

وقتذاك ! وما كان أسهل الحصول عليها ! لقد كانت تأتى من نبع دافق ، ومورد فياض .

ومرت الأيام وعلاقتنا بجيراننا تتوطن يوما بعد يوم .. ونشأت بين أبوينا صداقة توثقت مع الأيام عراها ، وذهبت لزيارة أمه .. فاذا هى سيدة كاملة .. نموذج لزوجة وأم .. بل نموذج لما يجب أن تكون عليه كل امرأة فى رقتها وطيبتها .. وحلاوة لسانها .. وطلاوة حديثها .. لا تبغض احدا ولا تنهش عرض احد .. تحب الناس جميعا ، وتمدحهم جميعا .. لا تذكر الا حسناتهم ، اما الهنات فلا تراها .

التقيت بصاحبى ذات مرة وجلسنا نتحدث .. فأخذت امتدح له أمه .. وبدا عليه الاغتباط لمديحى اياها وقال لى :

– ان مديحك لها ليس الا ترديدا لمديحها لك .. فانها معجبة بك أشد الاعجاب .. وكم سرنى أن تتحابا بمثل هذه السرعة .

وصمت لحظة ثم أردف بلهجة يشوبها الأسى :

– هل لك أن تعتبريها أما لك ؟ كم وددت لو رأيت أمك . فلا شك فى أنها انسانة فاضلة .. حدثينى عنها .. كيف كانت .

وأحسست بقلبى يدق بعنف وانتابنى شعور غريب .. وحاولت جهدى أن أتمالك وأتماسك ، واستطعت أن أجيبه فى النهاية قائلة :

– لقد ماتت وأنا طفلة . انى لا أذكر عنها الشىء الكثير .

. وافترقنا بعد ذلك .. وانتابنى شعور بالخوف والقلق .

لقد كان يسهل على أن أكذب عن كل الناس وأن اقول لهم ان أمى ميته ، وأن ألقى عليهم بما أشاء من الأكاذيب .. أما عليه هو فقد كان ذلك أمرا شاقا عسيرا ، لأنه – بالنسبة الى – ليس ككل انسان .. فلو تحققت

أحلامي العذبة وأماني الحلوة ، ولو منحني الله ما أتوق اليه .. فارتبطت حياتي بحياته وأضحيت زوجة له لا يفارق أحدنا الآخر حتى نهاية العمر .. لوتحقق أملي هذا .. فلا شك في أن الأكذوبة ستضحى أمرا خطيرا .. من الصعب الاستمرار عليها .. فقد تكشفها الظروف يوما ما .. فيعرف أنني ابنة غادرة خائنة فرت من زوجها ومن بيتها .. وأني قد كذبت عليه وخدعته .. ماذا يكون موقفي وقتذاك ؟ أليس من الأفضل لي أن أحسم الأمر من البداية .. فاما أن أنأى بنفسي عنه .. واما أن أكون شجاعة فأخبره بالحقيقية .

وجلست الى - الحاجة - في تلك الليلة .. وقد تملكتني لوعة وأسى .. وأخذت تحسس برفق على رأسي وتحدثني حديثا لم أك أعي منه شيئا ، فقد كان بي شرود شديد. وأخيرا سألتهافجأة :

- ياحاجة !

- نعم يا حبيبتي .

- هل يحق لي أن أحب ، وأن أتزوج كبقية الفتيات ؟

ونظرت الى في شيء من الدهش وهي تحاول ان تنفذ ببصرها الى رأسي لتستطلع ما وراء قولي ثم أجابت بعد هنيهة :

- اذا كان شخصا جديرا بحبك ويستحق ان يكون اهلا لك . فلا شك في أن لك الحق في حبه وفي زواجه .

- انه جدير بحبي وبأكثر من ذلك ، لو كنت أملك شيئا أكثر من الحب .. وهو أهل .. لا لأن يكون زوجي ، بل ولأن يكون سيدا لي .. ولكن المسألة في أنا .. هل أنا جديرة به ؟ . وهل أنا أهل لأن أكون زوجته ؟

ورفعت حاجبيها في دهش وتساءلت :

ولم لا ؟

ونظرت اليها نظرة طويلة فاحصة .. وأجبتها وفى صوتى بكاء حبيس :

– وأمى ؟

وصدمها قولى ، وسرت فى جسدها منه رجفة ، ولكنها سألتنى فى شىء من الاستنكار :

– ما لأمك ؟

– أأقول له عنها ؟

– تقولين ماذا ؟

– أقول الحقيقة .

أية حقيقة ؟ لقد ماتت أمك منذ زمن طويل .. هل هناك حقيقة غير هذه ؟

واندفعت فى نوبة بكاء ، وأخذ جسدى يهتز اهتزازا عنيفا بين ذراعيها .. وهى تربت على ظهرى وتحاول تهدئتى .

حتى هى تأبى على الا أن استمر فى الخدعة ، لقد أقنعنا انفسنا جميعا بأنها قد ماتت حقا .

وأحسست بشىء من الراحة ، واستقر رأيى على الا أصارحه بشىء .

وبعد بضعة أيام تناسيت حزنى .. وعدت أنغمر فى متعة حبه .. لا أبصر أمامى سواه ، ولا أذكر غيره ، وكان ذلك كفيلا بأن يمحو من حياتى كل سيئة ويبيد كل شقاء .

وعدت الأيام سريعة .. كلمح البصر .. وهكذا الأيام دائما أسرع من البرق فى السراء ، وأبطأ من السلحفاة فى الضراء .. فمرت سنتان كأنهما يومان أو لحظتان .. وتخرج هو اخيرا فى كليته فأضحى طبيبا .. وتقدم لخطبتى فى اليوم الذى تخرج فيه فزف الى بشرى نجاحه وبشرى خطبتنا .

وأخيرا تحقق أملى فى الحياة .. وأضحت احلامى حقائق ملموسة محسوسة .

فضمنى واياه بيت واحد كأنه وكر عصفورين فى ربيع الحياة . لا نرى من حولنا الا خضرة ونضرة .. وتغريدا وترنيما .

جرفنى سيل السعادة .. وأبعد عنى كل ما كان يشوب حياتى من أوهام سود وتخيلات مزعجة .. وأبعد عنى شبح أمى وذكراها ونسيتها تماما .. اللهم الا فى ليال متباعدة كنت أصحو من نومى مذعورة خائفة على أثر حلم أرانى فيه قد لقيتها ومعى زوجى وأنها كانت فى حالة متهتكة مبتذلة ، وأنها أقبلت على تحتضننى وتنبىء زوجى أنها أمى .. وبأن زوجى تركنى وأياها وفر هاربا .

ومرة أخرى أراها قد أقبلت على فى دارى ، وخلفها ثلة من الفاجرات العاهرات وأنهن قد أحتللن البيت وأبين أن يغادرنه .

وأنزعج عقب الحلم يوما أو بعض يوم ثم انساه وانساها .

ومرت السنون بعد ذلك .. وأنا سعيدة هانئة .. لا تشوب حياتى شائبة .. ولا يعكر صفوها كدر .. ومات أبى فبكيته ، ولحقت به - الحاجة - بعد فترة قصيرة فحزنت عليها .. ولكن الأيام كفكفت بكائى وأضاعت حزنى ، وأسدلت ستر النسيان الواحدة بعد الآخر ، فحجبتهم ضمن ما حجبت من الماضى البائد .

وفجأة .. ودون سابق انذار رأيتها .. من ؟ أمى ! اجل أمى !

ولو أنني يا سيدى رأيت الحاجة بعثت من قبرها .. أو رأيت أبى قد سار فى الطريق ملتحفا بأكفانه .. لما أصابنى من الذعر .. ما أصابنى عندما رأيت أمى .. التى كنت أزعم للناس ولزوجى أنها قد ماتت .

ورأيتها .. أين ؟ فى الطريق العام الذى لا يبعد كثيرا عن دارنا .. والذى يطرقه زوجى كل يوم فى ذهابه وايابه .

وشر من ذلك .. لقد كان بالرغم مما خط رأسها من شيب ، وما قد علا وجهها من تغضن ، هى هى .. أو على الأصح .. هى أنا .. ! أجل يا سيدى لشد ما كان الشبه بيننا عجيبا صارخا .. فلو أننى وضعت فى رأسى بعض الشعيرات البيض ورسمت فى وجهى بعض الغضون والثنيات لما استطاع أحد أن يميز بيننا .

وهذا يا سيدى هو ماروعنى وأفزعنى .. أى انسان يراها ولا يجزم أنها أمى ؟ اللهم الا العمى الذين لا يبصرون ، والذين لم يكن زوجى أحدهم ! .

ولم أشك فى أنها كانت فى رحلة بعيدة وأنها قد عادت أخيرا .. وخيل الى أنها ستحاول البحث عنى ! .

ولست أدرى ان كانت لمحتنى أم لم تلمحنى .. ولا اذا كانت عرفتنى أم لم تعرفنى .. ولكن الذى أدريه هو أننى انطلقت فى طريقى كأننى جرذ فزع .. وأسرعت الخطى مهرولة مرتاعة كأن هناك من يطاردنى ، حتى وصلت الى البيت لاهثة الأنفاس .

وصممت فى نفسى على أن أكون حاسمة فى أمرى والا أطيل عذابى فأفضى الى زوجى بالحقيقة .. وأقول له أن أمى لم تمت وأنها قد فرت مع عشيقها من أبى ، وأنى قد رأيتها الليلة . وليكن بعد ذلك ما يكون وليحدث مايحدث .

وصادفنى زوجى على باب البيت ونظر الى فى فزع وسألنى :

- ما بك ؟

- لا شيء .. لقد أحسست فى الطريق ببعض التعب ..

لا .. لا .. انى لا أجسر .. ان لسانى يتعثر وصوتى يحتبس .. خير لى أن أفر الى حجرتى .. وأرقد فى فراشى أتزمل بأغطية ثقيلة وأدعى اننى مريضة ..

ولم أدعى ؟ .. لست مريضة فعلا ؟ .. وهل هناك مرض يمكن أن يصيبنى بشر أكثر مما أنا فيه ؟ .

وأويت الى الفراش ، محطمة الأعصاب .. مجهدة مرهقة .. تصطك أسنانى كأنى عارية ليلة قر .

لا تدهش يا سيدى .. ولا تقل ان المسألة لا تستحق كل هذا الخوف .. وأن زوجى ما دام يحبنى .. وما دام لم ير منى الا كل حب واخلاص .. فسيغفر لى كذبى .. ولا يأخذنى بجريرة .

قد يكون ذلك صحيحا .. ولكنى لم أكن فى حالة تسمح بالتفكير .. فقد كانت المفاجأة شديدة الوقع على .. وكانت الصورة المحفورة فى ذهنى لأمى صورة شيطان أو عفريت سيدمر سعادتى ويهدم حياتى .

ومضت بضعة أيام وأنا راقدة فى فراشى .. شاردة الذهن ، غاربة البال .. وعادنى طبيب فلم ير بى شيئا سوى تعب فى الأعصاب .. وحضرت أم زوجى لتمكث فى البيت بضعة أيام .. ريثما أبل مما بى ولتعنى بزوجى وبالبيت .

ولقد حيرها أمرى .. وسألتنى فيما بينى وبينها .. هل هناك ما يضايقنى من زوجى ؟ .. وطلبت منى أن أبوح لها بكل ما يشغل رأسى .. ولكنى لم أتكلم ولذت بالصمت .. هل أجسر على أن أقول لها ما يشغل رأسى ؟

وذات يوم خرجت السيدة لتذهب الى بيتها وجلست فى فراشى تعصف بى الأفكار .. وجلس زوجى على مقعد قريب منى .. وكنت أفزع من كل طرق على الباب ومن وقع كل قدم على الدرج .. فقد كان يخيل لى أن أحلامى المفزعة ستحقق .. وأننى سأبصر أمى قادمة على بين آونة وأخرى .. فيفتضح أمرى .. ويعرفون أننى ابنة فاجرة عاهرة ، وأننى - من يدرى - ابنة حرام ؟

كيف أستطيع العيش بعد ذلك مع زوجى ؟ وكيف أقوى على الوقوف أمام أمه السيدة الطاهرة الذيل .. النقية السريرة ! اللهم هبنى من لدنك رحمة .

وفجأة أحسست بطرق على الباب .. فارتجفت .. ولكنها كانت أمه لا أمى .. وشعرت بشىء من الراحة .. لم تدم طويلا .. فقد أقبلت على وقد بدا عليها كأنها تحمل أمرا خطيرا ، ودون أية مقدمات سألتنى فى هدوء :

- هل قابلت أمك ؟

وأترك لك يا سيدى أن تتصور وقع تلك الكلمات الثلاث فى نفسى .. لقد أحسست بالتواء فى معدتى .. وشعرت كأن هناك يدا قاسية تعتصر قلبى .

ولم أجب بشىء ، فقد فقدت قدرتى على النطق واحسست بغشاء على بصرى .

اقتربت السيدة وأخذتنى بين ذراعيها وضمتنى الى صدرها وهمست فى أذنى :

- أيتها الحمقاء الصغيرة .. أهذا كل ما روعك ؟ .. ليتنا أنبأناك أننا نعلم بكل شىء ، ولكن الخطأ خطؤه .. - وأشارت الى ابنها - فلقد قلت

له أن يصارحك بأنه يعلم ، وبأنه يحبك بالرغم من ذلك ، ولكنه قال انه لا يود ايلامك أو جرحك .. ولو صارحك لوفر عليك مشقة الكتمان ولأنقذك من ذلك الجمر الذى يحرق صدرك .. وما ذنبك أنت فى جريرة أمك ! ثم الى متى ستظلين تجزعين من أمك ؟ انها لو كانت قاتلة لما فزعت منها مثل هذا الفزع !

ووددت لو أقول لها أنها لو قتلتنى لكان ذلك خيرا لى .. ولكن الكلام احتبس فى صدرى .

وطرق الباب مرة أخرى ، ولم أفزع هذة المرة ، وبالرغم من اننى رفعت بصرى ، فوجدت الطارق هى أمى .. بدمها وبلحمها .

وأقبلت على تحتضننى وقد انهمر دمعها فى بكاء صامت .

وأحسست بأننى قد غفرت لها .

ترى هل يغفر لها الله ؟

وصمتت محدثتى .. فقلت لها .

- ان الله غفور رحيم ..

★ ★ ★

زهور ذابلة

دنيا المجانين لشد ما أخطأت به الظن .. لقد كان مجنونا من نوع هادىء .. أو مجنونا من عشاق الزهو الذابلة ..

أقسم ان الهوى ضرب من الجنون .. أو هو الجنون الذى يخشى الناس أن يسموه بحقيقته فيصبحوا كلهم مجانين .. فكلهم عشاق .. وعلى قدر الهوى اختلف الجنون .

قرأت ذات مرة عن أحد الفلاسفة أنه سئل عن العشق فقال : جنون الهى لا محمود ولا مذموم . وقال آخر : طرف من الجنون ان لم يكن عصارة السحر .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى صادف فيها قول فيلسوف هوى فى نفسى .. أو على الأصح ، كانت هى المرة الأولى التى استطعت فيها أن أفهم قول فيلسوف .. فقد كنت لا أرى فى الفلاسفة الا أقدر الناس على قول ما لا يفهمه الناس ، ولا حاجة اليهم بفهمه أما هذا القول فقد كان قريبا الى فهمى .. اذ كانت تلك هى عقيدتى .. وهذا هو مذهبى .. وكنت – كما قال ابن الرومى – لا أرى فى العشق الهائم « الا صحيحا له أفعال مجنون » .

وكنت أنا نفسي مثلا لذلك الصحيح الذى له أفعال مجنون ، اذ كنت من محترفى الهوى .. ان صح انه يمكن لانسان أن يحترف الهوى .. فما رأيت قط وجها فاتنا الا وعشقته .. وما عرضت لى عينان ساحرتان أو شفتان فاتنتان الا وتركتانى صريع هوى وقتيل حب .. ولم يك من شىء يطربنى كالحملقة فى منبع للجمال أو العدو وراء مصدر للفتنة .. ولم يك من شىء يحزننى قدر أن أبوء من تلك الحملقة بالاخفاق وأعود من ذلك العدو بخفى حنين .. وهو ما كان يحدث لى فى أغلب الأحيان .

وقد يكون الطرب بالجمال شيئا لا غبار عليه ، أما الحزن بالاخفاق عن الظفر به ، فذلك ما كنت أحس بأنه نوع من الجنون .. ولست أدرى والله ماذا كنت فاعلا لو أنى قد بلغت من واحدة من هاته العشرات اللاتى أعشقهن مأربا أو نلت مراما .. وكيف كنت أستطيع أن أوزع بينهن وقتى أو قواى .. حتى ولو كنت أبليس نفسه ؟ ولكنه خبل الهوى وجنون الغرام !

ولم يكن يعزينى فى تلك الحال التى أرانى عليها .. سوى يقينى ان معظم الناس يشاركوننى فيه .. فما كنت أبرىء منهم أحدا مهما اختلفت طباعهم وأعمارهم .. اللهم الا واحدا كنت أراه بين الناس نسيج وحده .

كان صاحبى هذا شديد رجاحة العقل ، كثير الهدوء والاتزان .. حتى لقد توهمت به - قبل أن أعرفه بتمام معرفته - جمود حس وخمود عاطفة من فرط ما كان يبدو لى من رزانته وهدوئه .. ولكن لم تكد تزداد بيننا أواصر المعرفة وتربطنا روابط الصداقة .. حتى بدأت أتبين فى نفسه رقة وجمالا ، وبدأت أكتشف فيه روحا شاعرية حساسة .. ورأيتنى أتذوق منه الكثير من جمال الأدب والشعر .. وتبينت فيه ميلا الى الفنون على اختلاف أنواع ذلك .. ومع كل هذا كنت أجد عنده ميلا عن النساء وزهدا فيهن .. فما رأيتهن يحركن فيه ساكنة راكدة ، أو يثرن به جامدة باردة ، وما كان ذلك الوجه الذى يجعلنى أحملق فيه ثم أتابعه بنظراتى حتى تكاد

عيناى تفارقان محجريهما عدوا وراءه .. ما كان ذلك الوجه ليثيره أكثر مما يثيره مقعد فى حجرة أو سيارة فى طريق .

وهكذا اعتقدت أخيرا اننى عثرت على عاقل فى دنيا المجانين .. حتى كنت أجلس وصاحبى ذات ليلة فى شرفة داره ، وكانت تهب علينا نسمات خفيفة كأنها زفرات هادئة من قلب ليلة من ليالى الصيف .. وساد صمت عميق شرد فيه كل منا بذهنه مع أوهامه وأحلامه .. حتى رأيتنى أقطع حبل الصمت وأسأله مداعيا :

فيم التفكير والتأمل وأنت لست من العشاق أو من أشباههم ؟

- أو قد حرم التفكير الا على العشاق ؟

- لم يحرم ، ولكنهم هم أحمق الناس به ، فهم يستعينون بحلاوة الأوهام على مرارة الحقائق .. وهم ينالون من متعة الأحلام ما حرموه من لذة الواقع .

وضحك صاحبى ضحكة لم أميز مداها من الضحك ، فقد لمحت بها مرارة وسمعته يقول بين المزاح والجد :

- اذا فاعتبرنى من العشاق .

فأجبته بضحكة ماجنة . ولكنه عاد فأردف فى صوت ملؤه الحزن :

- على الأقل من عشاق الزهور الذابلة .

ودهشت له .. فقد مست منى لهجته الحزينة موضعا حساسا .. وانتظرت أن يطلعنى على خبيئة نفسه .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. بل غادر الشرفة فى صمت واختفى داخل الحجرة ثم عاد بعد لحظات ومعه كيس جلدى صغير مما يضع فيه المرء نقوده وأوراقه .. ثم جلس بجوارى .. ورأيته يفتح الكيس ثم يخرج من جانب منه زهرة ذابلة أمسكها

بحرص بين أصابعه خشية أن تنفرط أوراقها الجافة الباهتة ، ونظر اليها بلهفة وحنين ثم أعادها الى مكانها بعناية ورفق ، ومد أصبعه الى الجانب الآخر من الكيس وأخذ يعبث فيه هنيهة .. واستطعت أن أميز ذلك الشيء الذي يعبث به .. فاذا هو مسحوق أوراق لزهرة اخرى أشد من هذه ذبولا وأقدم عهدا ، فقد طال بها الزمن في الكيس فحولتها الأيام رمادا كأديم الأرض .

وزاد دهشي من صاحبي ، واشتدت بي اللهفة الى أن أعرف سر حرصه على تلك الزهور الذابلة البائدة .. ولم يطل انتظاري فقد تكلم أخيرا .. تكلم وكأنه يحدث نفسه .. أو كأنى غير كائن .. فهو يستعيد لنفسه ذكرى قد تكون بها مرارة وقد تكون بها حلاوة .. لكن الذى لا شك فيه هو أن فيها عزاء وفيها سلوة .

قال صاحبي :

– عرفت الحب مذ عرفت الحياة .. فقد كان أول ما وعيته فى هذه الدنيا هو انى أحببت .. فما خلت لحظة من لحظات حياتى منذ طفولتى من معشوقة أهيم بها عشقا .. وما زلت أذكر كيف كنت أقذف غطيان القلل من المنور وأنا فى السادسة من عمرى .. لا لشيء الا نزولى لاحضارها من لدن الجيران الذين يقطنون فى الطبقة السفلى فأستطيع بذلك ان أسترق من ابنتهم الجميلة بضع نظرات أو بضع كلمات ..اذ كنت شديد الولع بها .. حتى أنى كثيرا ما كنت أتخيل نفسى مكان البطل « دان » وأتخيلها مكان الحسنا « دورا » اللذين كنت أتابع مغامرتهما فى (مجلة الأولاد) فأرانى وقد حملتها فى طائرة الى جزيرة نائية بعيدة عن أعين الرقباء .

ورحل الجيران ورحلت معاهم فتاتى المحبوبة .. فسرعان ما احتلت غيرها مكانها .. وهكذا ظلت تتتابع على الحبيبة تلو الحبيبة .. فما خلا قلبى من واحدة قط .

وكان حبى فى الحب نوعا عجيبا .. اذ كنت شديد الانطواء على نفسى .. كثير الخجل والحياء .. فكنت أكتفى بالحب السلبى .. او بالحب من جانب واحد .. فما من واحدة من هؤلاء العشرات اللاتى ولهت بهن حبا قد بادلتنى الحب .. أو حتى أدركت أننى أحبها .. فقد كنت أخلو الى نفسى فأدبر الخطط للقاء ، وأحضر ما سوف أردده لها من الأحاديث ، وأتوهم ما سوف تقوله لى وما سوف اقوله ردا على قولها .. وهكذا حتى أحكم فى رأسى كل تفاصيل اللقاء .

ولكننى لا أكاد أبصرها حتى أحس بالدم يتصاعد الى وجهى .. وبأنفاسى تتلاحق وقلبى يدق دقا عنيفا حتى كأننى أعدو فى سباق ، وأحس بالارتباك قد شملنى من أخمص قدمى الى قمة رأسى .. وأحس كأننى لست أنا أو كأننى اسير بلا قدمين أو بلا رأس .. ولا أكاد اقترب منها حتى أكون قد وصلت الى أقصى درجات الارتباك .. واذا بكل ما كان فى رأسى قد تطاير وتلاشى .. واذا بى لا أفكر فى شىء سوى الفرار .. وقد لا أكون مبالغا اذا قلت أن كل أدوار العشق التى مرت بى كانت من هذا القبيل .. لا تغيير ولا تبديل .. حتى ألفت ذلك الحب الذى لا يشعر به غيرى .

ومرت الأيام ، وشارفت الثامنة عشرة ، وأنا غريق فى هوى نفسى .. وذات ليلة خلوت الى نفسى أستذكر .. فأخذ بصرى ضوء فى النافذة المقابلة .. واذا بى أرى فتاة قد جلست تعمل بابرتين من ابر التريكو ، وقد سحبت ببصرها من النافذة .

وأدركت أن البيت المجاور قد سكن ، وأطربنى ان تكون الفتاة جارة لنا .. وقلت لنفسى - كما تعودت أن اقول دائما - ان هذه هى حبيبة العمر .. ولابد أن أكون معها جريئا .. لافوز منها بحب أو بصداقة .. وأن أقلع عن ذلك الخجل والانطواء .

وبدأت الهجوم .. ولم يكن لدى من أسلحة الغزل .. سوى

الحملقة .. وظللت أحملق فى الفتاة ما يقرب من نصف ساعة .. وهى لا تكاد تشعر بوجودى .. وهنا بدأت أعمال الجرأة – أو على الأقل ما ظننته كذلك – فصرخت بالخادمة أن تحضر لى كوبا من الماء .. حتى ألفت نظر صاحبتنا .. ومع ذلك لم يحرك صياحى ساكنا .. فقمت الى النافذة وأغلقتها بشدة ثم فتحتها ثانية .. محدثا بذلك ضجة توقظ أهل الكهف .. وها فقط أحست بوجودى .. ورفعت الى بصرها بدهش كما لو كانت تنظر الى مخبول .. ثم قامت الى المصباح فأطفأته فى هدوء وساد الغرفة ظلام وسكون .

وندمت على ما فعلت .. فقد كان من الخير ان الزم السكون فأمتع منها ولو بالنظر اليها .. وأخيرا ذهبت الى فراشى .. وأنا أضع الخطط فى رأسى كما تعودت أن أفعل .

وتعودت بعد ذلك أن أراها فى مكانها كل ليلة .. وأحسست أنها تنساب الى نفسى انسياب الجدول .. فقد سحرنى هدوء وجهها ورقته ، وفتنتنى تلك السكينة والبراءة التى تعلو ملامحها .. ورأيتها قد أحست بوجودى .. وأنها لم تعد تغضبها نظراتى .. بل خيل الى أن هناك نوعا من الود قد نشأ بيننا من طول النظرات .

ولم أكن أشك وقتذاك فى أنها تكبرنى بما يقرب من سبع سنوات فقد كانت تبلغ الخامسة والعشرين ، ولم أكن أشك فى أنى لن آخذ منها أكثر من سابقاتها .. فأغلب ظنى أنها لا تنظر الى أكثر من نظرتها الى تلميذ عابث خير له أن يشغل نفسه بالدروس أو بلعب الكرة .

ولكنى – بالرغم من ذلك اليأس – وجدتنى اندفع فى حبها ، ووجدتها – وقد سبب لى هذا أرق ليلة كاملة من فرط الفرح – تبتسم لى ذات مرة وتشير برأسها محيية .

ولا أظن امرءا يستطيع أن يدرك مبلغ سعادتى بتلك البسمة .. أنا

الذى أحببت مئات المرات دون أن تعرف واحدة ممن أحببتهن انى أحبها .

ولا أدرى بعد ذلك كيف بدأ بيننا التقارب ، ولكننى أذكر أنه حدث دون سابق تحضير أو ترتيب ، ودون أية خطة موضوعة كتلك الخطط التى كنت أضعها للتقرب الى من أحببت ، وكانت تنتهى دائما بفرارى من الميدان .

لقد كانت رقيقة لطيفة .. فأطارت من نفسى ما بها من خجل وارتباك .. ورأيتنى أفيض بالحديث معها .. حتى لكأن اللقاء لم يكن لأول مرة ، بل لكأنها توءم نفسى وصنو روحى .

وقضيت بعد ذلك فترة من العمر ، تغمرنى بحنانها الفياض وحبها الطاهر الذى لا تشوبه شائبة .. وما زلت أذكر تلك الليالى التى كنت أتسلل فيها الى حديقة دارها ، والكون قد شمله سكون عجيب .. فأجدها فى انتظارى فى خميلة بركن من الحديقة ، حيث نجلس متلاصقين ، ويمر بنا الوقت سراعا وقد اتكأت برأسى على صدرها ، وأحسست بيديها تعبثان بشعرى وأخذنا نتهامس فى صوت خفيض .

وذات يوم وأنا عائد من المدرسة لمحت على باب دارها بعض الأعلام الخضر .. فأحسست بانقباض فى نفسى .. وعندما لقيتها فى تلك الليلة أخبرتنى بأنها ستزف بعد بضعة أيام .. وكانت تبدو على وجهها لمحة من يأس .. وكان فى صوتها صدى لبكاء .

وتوافقنا للوداع فرأيتها تمد يدها لتقطف احدى الزهور التى شملها الظلام وتدفع بها الى هامسة :

- اذكرنى بهذه الزهرة .

وصمت صاحبى ومد أصابعه فى الكيس يعبث بمسحوق الزهرة البائدة ثم قال :

– هذه هي الزهرة الأولى .. أما الزهرة الثانية ..

ورأيته يخرج الزهرة الجافة برفق ثم يتأملها هنية .. ويقول :

– اما الزهرة الثانية .. فهي فتاة لقيتها في الصيف الماضي على شاطيء البحر .. بعد خمسة عشر عاما من فراق الزهره الأولى .. خمسة عشر عاما .. لا أدعي انى قضيتها في زهد تام عن النساء وفي منأى عن الهوى والعشق ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن اؤكد أن ذكرى صاحبتي لم تفارق رأسي لحظة واحدة .. وأنني عدت الى سابق عهدى من الانطواء على نفسي .. ومن الحياء والخجل .. فما استطاعت واحدة أن تحتل من نفسي مكانتها .. حتى لقيت فتاة الشاطيء – أو على الأصح صبية الشاطيء – ببراءتها وسذاجتها .. كأنها دمية جميلة فرأيتني اندفع في حبها ، ورأيتها تندفع في حبي ، دون تفكير منا ولا روية ، وأخذنا نلتقى على الشاطيء في الصباح المبكر والبحر قد خلا الا مني ومنها .. وكنت أدهش لذلك الحنين الذي أحس به نحوها .. وكنت أراها أشبه بقطة صغيرة .. عندما أمسك بوجهها الصغير بين كفي والحظ في عينيها بريق سرور وهناءة .

واستطاعت الفتاة الحلوة الصغيرة أن تعيد الى نفسي تلك السعادة التي افتقدتها في تلك الأعوام الطويلة .. منذ أن فارقت صاحبتي الأولى .

وذات صباح افتقدت الفتاة فلم أجدها .. وطالت غيبتها عني بعد ذلك ، فانتابني هم وأصابني جزع وقلق .

وكانت النهاية في هذه المرة أسرع وأقصى مما يتصور عقل . فقد علمت أخيرا أن الفتاة الحبيبة قد أصابتها حمى أودت بها ولم تمهلها كثيرا ولا قليلا .

وحملتني قدماى بين سكون المقابر ووحشتها حتى استقر بي المقام أمام قبرها فرأيت امرأة قد عصف بها الحزن فطفقت تنشج في لوعة

ورأسى ، فـأدركت أنهـا لابـد وأن تكـون أمهـا الثكلـى

ورفعت الى المرأة وجهها .

وصمت صاحبى هنيهة .. ثم سألنى هامسا :

- ترى من تظن الأم الحزينة ؟ .

وهززت رأسى فى تساؤل .. اذ لم أستطع أن أدرى ما يعنى .. وأردف هو فى صوت ملىء بالمرارة :

- لقد كانت صاحبتى الأولى .. لقد رفعت الى بصرها ولم يبد عليها دهش لمرآى .. فقد عرفت من فتاتها من أكون . ولقد أسعدها أن يربط بينى وبين ابنتها ذلك الرباط الذى لى يستطع أن ينتظمنا من زمن خلا .. ولكن القدر سخر منا مرة أخرى .

ورأيتها تمد يدها الى بشىء قالت أن ابنتها طلبت منها أن تعطينى اياه لأذكرها به .. ونظرت الى ما أعطتنى فاذا به زهرة ثانية .

وأمسك صاحبى بالزهرة بين أصابعه ، ورأيت فى عينيه سحابة دمع تهم بأن تهطل على خديه .

أهذا هو الذى ظننته عاقلا فى دنيا المجانين ؟ .

لشد ما أخطأت به الظن .. لقد كان مجنونا من نوع هادىء .. أو مجنونا من عشاق الزهور الذابلة ؟ .

★ ★ ★

عبقري يبعث

هذه الوريقات التى رأيتنى انكب على نسخها من جديد ستكون حدثا فى عالم القصة والأدب ان صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض .. ولقد أقسمت بأن أفنى نفسى لأخلـــــــــــــــــــده ..

كنت أقف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى المكتبات الشهيرة ، فاخذت أفحص ما صف فيها عن كتب لعلى أجد به جديدا يستحق الشراء ، وأخذت انقل بصرى من كتاب الى آخر دون أن أجد هنالك ما يستدعى الانتباه . فكل ما فى الواجهة لم يكن ليزيد على كتب قد ابتعتها من قبل .. أو على كتب لم أبتعها لتفاهة فى الموضوع أو لغلاء فى الثمن .

وهممت بالمسير .. ولكنى وجدت الواجهة الزجاجية تفتح من الداخل .. وأبصرت يدا تمد فتضع كتابا جديدا فى نهاية الصفوف.. فتمهلت قليلا لأقرأ عنوان الكتاب واسم مؤلفه .

ووقفت هنيهة ، وقد علق بصرى بالكتاب .. فقد كان كلا الاسمين -

اسم الكتاب والمؤلف – معروفا لدى .. وخيل الى أنى قد سمعت بهما قبل الآن ، وان كنت لا أنكر انى رأيت الكتاب من قبل ، ولم يطل بى التفكير .. حتى بدرت منى صيحة دهش لم أستطع كتمها . واندفعت داخل المكتبة كأن بى مسا من جنون .. وبعد لحظات كنت أنطلق الى الدار والكتاب بيدى وقد شرد ذهنى فى حشد من ذكريات غابرة .. كان الزمن قد جعل منها رفاتا بائدا باليا ، فاذا الكتاب يبعث فيها الحياة كأنها ما انطوت فى بطن الزمن وما ثوت .

وخلوت الى نفسى أتصفح الكتاب ، فقد كان بى لهفة اليه .. اذ لم أكن أتصور قط أنه سيخرج الى الحياة .. وما ظننت أن تلك الوريقات الممزقة البالية قد قدر لها أن تبعث من مرقدها بعد طول خمود ورقود .

وحاولت أن أقرأ ، ولكن ذهنى كان فى غيبة بعيدة .. وكنت ابصر الحروف أمامى أشباحا متصلة متشابكة تتراقص أمام عينى فلا أستطيع أن أفهم لها معنى .. فطويت الكتاب وأحنيت رأسى الى الوراء .. ثم أطلقت لذهنى العنان ورحت فى شبه غيبوبة .

يا للفتاة العجيبة ! . انى لأذكرها جيدا على الرغم من تلك السنين التى فرقت بينى وبينها ، وكأنى بها جالسة أمامى وقد تقوس ظهرها وانكبت برأسها على الوريقات المطموسة الباهتة تعيد كتابتها .

كان ذلك فى حى المنيرة .. وكانت أول مرة أبصر فيها واحدا من جيراننا الجدد الذين سكنوا منذ يومين الشقة المقابلة .. عندما عدت الى الدار ذات مساء فلمحت من خلال الباب شبحها وقد انحنت على المنضدة وبدأ عليها الانهماك فى الكتابة حتى لكأنها تلميذ يسكب على أوراق الامتحان عصارة ذهنه .. أو عاشق يريق فى رسالة غرام ماء قلبه .

ورأيتها بعد ذلك بضع مرات .. وعلمت أنها طالبة فى كلية الآداب .. ولم تكن مفرطة الجمال ، ولكنها كانت مقبولة الشكل .. وكان

بوجهها ميل الى الصفرة وبجسدها ميل الى النحول .. يبدو عليها حدة الذهن وشدة الذكاء .. ولم تكن الفتاة لتثير فى نفسى الاهتمام .. لولا ذلك الانهماك العجيب فى الكتابة والنسخ .. فما رأيتها تفعل شيئا سوى الكتابة .. حتى بت أتحرق شوقا لارى فيم تكتب وماذا تنسخ .. وسنحت الفرصة أخيرا وبدأت اواصر الصداقة تربطنا بجيراننا الجدد .

وبدا لى من نفس الفتاة ما هو خير مما بدا من وجهها وجسدها .. وبدأت تنال منى الكثير من الاعجاب .. وأقبلت عليها ذات مرة وهى منهمكة فى الكتابة وجلست على مقعد بجوارها .. فرأيت أمامها كومة من أوراق رثة باهتة من مختلف الأنواع والأحجام وقد اندس بينها بضع من علب السجائر قد كتب على ظهرها ، وبعض من ورق الجرائد قد كتب على هوامشه .. ورأيتها أخذت تنسخ من هذا ومن ذاك كأنما تحاول أن تجمع منها موضوعا معينا .

وسألتها عما تكتبه .. وطلبت اليها أن تكف عن الكتابة لتريح نفسها بالحديث الى بعض الوقت .. ولابد أن يكون التعب قد أخذ منها كل مأخذ .. اذ ما كادت تسمع قولى حتى ألقت بالقلم جانبا واستقام ظهرها بعد طول انحناء ثم نظرت الى هنيهة وأجابت :

– اتريد حقا ان تسمع ؟ .. لقد أجهدتنى الكتابة وأحس برغبة فى الراحة والحديث .

وتأبطت يدها أميل بها الى الشرفة وجلسنا هنيهة فى صمت ما لبثت أن قطعته وقد استجمعت شوارد أفكارها .. ثم بدأت تتحدث :

– هذه الوريقات التى رأيتنى أنكب على نسخها من جديد ، ستكون حدثا فى عالم القصة والأدب .. ان صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض قبل أن يتمكن من اخراجها الى النور ، وكم أود أن يهبنى الله قوة من لدنه حتى أبعثها الى الحياة . وكم تتملكنى اللوعة والأسى ، عندما أتصور أنه

سيفنى وتفنى ذكراه .. دون أن يحس به أحد .. انى أريد ان انصفه فى مماته .. ما دام هو لم ينصف نفسه فى حياته .. انه شخص يستحق الخلود .. ولقد أقسمت أن أفنى نفسى لأخلده .

دعنى أعود بك الى الوراء قليلا ، فأخبرك كيف رأيته وكيف عرفته ، لقد جمعتنى واياه زمالتنا فى كلية الآداب .. ولفت نظرى بكبير هدوئه وميله الى الوحدة .. فما رأيته قط يخاطب احدا أو يسير مع أحد .. وأحسست فى نفسى بميل اليه .. وقد يكون ذلك لتشابه بين نفسينا وتشابه فى طباعنا . فقد كنت أنا الأخرى شديدة الصمت والنفور من الناس .. وتعارفنا ذات يوم ، وسرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة .

وأدهشنى الفتى .. فما اذكر أنى لقيت فى حياتى امرءا غيره يجمع فى نفسه ذلك القدر من الشعور الفياض والاحساس المرهف .. كان فنانا فى كل شىء ، ولوعا بكل نواحى الفن من رسم وموسيقى وأدب وشعر ، وكان كريم النفس ، جميل الخلق .. فما رأيته يكره أحدا أو يذم أحدا ، بل كان يحب كل الناس .. حتى ليخيل لى أنه لو وزع ما فى قلبه الجميل من حب وعطف على الناس أجمعين .. لما بقيت فى هذه الدنيا عداوة أو خصام .

وكم كان يحلو لى أن أجلس بجواره فى حدائق الأورمان عقيب انتهاء الدراسة .. فأستمع اليه يترنم ببعض من أبيات الشعر قديمه وحديثه .. أو يقص على قصة قرأها فأعجبته .. أو ينشد لى بعضا من الأغانى التى تستهوى نفسه .. وكان شديد الولع بشوقى وبعبد الوهاب عندما يلتقيان فى اغنية .. وانى لأكاد أسمع صوته العذب وهو يترنم بقصيدة « ردت الروح » .. وكانت أحب الأغنيات الى نفسه .. وأكاد أبصر وجهه الرقيق وهو ينشد فى ابتسامة حلوة هادئة :

موقعى عندك لا أعلمه　　　　آه لو تعلم عندى موقعك

فتتملكني اللوعة ويحتويني الشجن .. وأتمنى لو يسمعني الآن كما أسمعه ، وأن يصل صوتي الى مضجعه .. فأهتف به كما هتف بي من قبل :

نامت الأعين الا مقلة تسكب الدمع وترعى مضجعك

ولكن أين صوتي من مسمعه ؟ وأين عيني من مضجعه ؟ لقد أضحى الآن عظاما نخرة يحتويها قبر بأرض قفرة .

كان كثيرا ما يحدثني عن أبيه .. فقد كان شديد الاعجاب به .. وكان يتحدث عنه كما يتحدث عن صديق حميم .. وكان يحلو له دائما أن يقرأ لي الكثير من مؤلفاته وقصصه وأشعاره .. وكان يخبرني أنه ما عشق كتابة كعشقه كتابة أبيه ، وما أستطاع اديب أو كاتب أن يمس من نفسه موضعا حساسا كما استطاع أبوه .. ولم يكن يدري أعند الناس كان كذلك . أم كان ذلك الاعجاب منه لتشابه بين نفسيهما لأنه أبوه ولأنه كان يحس عندما يقرأ له بأنه يقرأ لنفسه ؟

وذات يوم اقبل علي وبوجهه بشاشة وحبور ، وانتحى بي ناحية هادئة ، ثم أخرج بضع ورقات من حقيبته وخاطبني قائلا :

- أريد أسمع رأيك فيما سأقرؤه عليك . فأياك والمجاملة .

وعندما انتهى من القراءة لم يسعني الا أن اهتف صائحة :

- رائع ! . مدهش ! .. أين البقية ؟

- لم أكتبها بعد ..

- أقسم لك أنها ستحدث ضجة في عالم الأدب اذا أتممتها على هذا المنوال .. ان قدرتك على الوصف والتصوير لقدرة عجيبة .. وأن خيالك لآية في الروعة .

ولم أكن فى قولى هذا مبالغة أو مجاملة .. بل كنت أتكلم عن عقيدة راسخة لأنى كنت ألمس فيه عبقرية كامنة .. عبقرية خلقها الله معه .

وفى اليوم التالى .. افتقدته فلم أجده .. ومضت بضعة ايام وهو فى غيبته حتى أبصرته أخيرا فى صبيحة يوم وهو يسير فى فناء الكلية متجها نحو الباب ، فأسرعت الخطى اليه وناديته ، فتوقف ، ثم أدار الى وجهه .. فراعنى ذلك الهزال الذى بدا عليه .. والحزن الذى كسا وجهه .. وتلك الملابس السود التى احتوت جسده .

ومد يده الى فى صمت .. ولم أجد فى نفسى الجرأة على سؤاله .. فقد خشيت أن أنا تكلمت أن انفجر باكية .. فقد كان مرآه الحزين يوجع نفسى ، وما تعودت أن أراه حزينا .. وأكتفيت بأن أهز رأسى مسائلة .. وأجاب :

– انه أبى !

وعرته هزه سرت فى أطرافه كأن يغالب البكاء ، ثم أرخى يده فشد على يدى بسرعة وغادرنى دون أن ينطق بكلمة .

وكانت آخر مرة أبصرته فى الكلية فقد انقطع عن الدراسة بعد ذلك والتحق باحدى الوظائف الكتابية ، اذ كان عليه أن يحصل على المال لأن أباه لم يترك لأسرته شيئا .

ولقيته بعد ذلك .. أو على الأصح تعمدت لقاءه .. فقد كان بى شوق الى ان ابصر وجهه وأسمع حديثه .. فرأيته مفرط الصمت ، كثير الاطراق والوجوم .. فسألته عما تم فى قصته .. فأجاب فى اقتضاب :

– لقد تركت الكتابة .

– لا تكن مجنونا !

– ان اخوتى فى حاجة الى نقود ورعاية .. انى أعمل صباحا وبعد الظهر .. وليس لدى ثانية أقضيها فى الكتابة .

وخيل الى كان فى صدره طائرا حبيسا يحاول الانطلاق ولكنه كان يضيق عليه الخناق .

وحاولت عبثا أن أعيد الى نفسه الأمل .. ولكنه هز رأسه فى صمت وأجاب كمن يحدث نفسه :

- لا فائدة .. هذه الحياة لابد أن يضحى فيها البعض ، كى يسعد البعض الآخر .. والا اصابهم الشقاء أجمعين ، ولقد قدر لى أن أكون من النوع الأول .

وافترقنا وبنفسي غصة ولوعة .. لقد وددت لو أستطعت أن أحتويه بين ذراعى وأخفى رأسه فى صدرى لادفع عنه احزانه وأشجانه .. ولكن الحياء كان يمنعنى .

ولم يقعدنى اليأس من أن أدفعه الى الكتابة ، فحاولت أن أعيد الكرة .. ولكن من طريق آخر .. لقد كنت أعلم أنه لا يعصى لأمه امرا ولا يرد لها طلبا ، فذهبت ذات صباح الى داره وهو غائب فى عمله ، وطرقت الباب فلقيتنى سيدة سمحة الوجه قد اتشحت بالسواد .. وأدخلتنى فى غرفة الاستقبال وجلست السيدة أمامى مطرقة تنتظر ان أبدأ بالحديث ، وأنبأتها فى اقتضاب بما أتيت من أجله ورجوتها أن تعاوننى فى حمله على أن يستمر فى الكتابة ، فحرام أن تقتل هذه العبقرية فى مهدها وصمتت السيدة هنيهة ثم اقتربت منى ، وقالت :

– يابنية ، انى أشكر لك هذا الشعور نحوه وهذا الاهتمام به ، ولكنك مازلت صغيرة بعد .. واننى أكثر منك تجربة فى الحياة ، واننى لا أتمنى له شيئا الا أن يبتعد بنفسه عن الكتابة والأداب .. ماذا تظنينه ليصبح مهما بلغ من النبوغ .. أيصبح كأبيه ؟ .. لقد عاش عمره فقيرا ومات دون أن

يترك لنا ما نستطيع العيش به .. ولا أعلم ماذا كان مصيرنا لولا ذلك المعاش الذى خلفه لنا من وظيفته الحكومية التى كان يزدريها ويحتقرها .. ماذا أفاد من الأدب والكتابة ! حتى الذكرى قد بخلوا بها عليه .

وصدمنى حديث السيدة ، فلم أك أتوقع منها مثل ذلك الرد . وحاولت أن أزيل من نفسها ذلك التشاؤم والتحامل ولكنى كنت كالنافخة فى رماد .

ومضت مدة بعد ذلك .. ولقيت الفتى مرة أخرى .. وكان مر الأيام قد خفف قليلا من حزنه ولوعته ، فوجدته أكثر بشاشة واستطعت أن أقنعه بأن يحاول الكتابة فى لحظات فراغه .

وحلت عطلة الصيف وسافرت الى بلدتنا بعد أن أقسم لى أننى لن أعود الا وأجده قد أتم القصة .. وفعلا .. صدق الفتى وعده .. فلم تكد العطلة تنتهى وأعود الى القاهرة .. حتى وجدت القصة قد انتهت .

وصمتت الفتاة هنيهة .. ولمحت فى عينيها دمعة تترقرق ثم استأنفت :

– لقد وجدت القصة قد انتهت .. ولكنه هو أيضا كان قد انتهى .. لقد أفرط الفتى فى اجهاد نفسه .. حتى أصيب بالتهاب فى الرئة .. وكان السهر قد أنهكه وأضعف من مقاومته للداء .. ولم يحاول هو كذلك أن يستريح ولم يرحم نفسه ، فلم يرحمه الداء .

ولا أظن هناك من الألفاظ ما أستطيع ان أعبر به عما أصبت بفقده .. لقد أحسست بيأس من الحياة ، وذكرت قوله : « أن هذه الحياة لابد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الاخر » .. ولكنى أيقنت الان أن الحياة كلها أحقر من أن يكون فيها ما يستحق التضحية .

ولم أستطع فى مبدأ الأمر ان اذهب لتعزية أمه .. ولكنى تمالكت نفسى أخيرا وذهبت للقائها .

سبحانك اللهم .. تلهم الصبر عبادك المؤمنين .. لقد قابلتنى السيدة فى صمت ، وحاولت أن أعزيها ببضع كلمات ، فقالت بصوت يملؤه الايمان : الحمد لله !

ثم اختفت هنيهة وعادت تحمل الى حقيبة الفتى ودفعتها الى وهى تهمس :

- لقد قال لى : أنه أتم القصة .. خذيها يا بنيتى فأنت أولى بها .

وصمتت الفتاة ، فمددت يدى وشددت على يدها ونظرت الى هذه الكومة من الورق البالى وحملقت فى شك :

- أتظنين أنك ستستطيعين بعثها الى الحياة ؟

- أدعو الله أن يعيننى على ذلك .

ومر الزمن وأنا أبصر الفتاة تكتب وتكتب .. حتى خيل الى أنها ستفنى عمرها فى الكتابة .. ثم فرقتنا الأيام حتى أبصرت الكتاب فى ذلك المساء ، فأعاد الى رأسى قصتها .

وأمسكت بالكتاب الأنيق أقلبه بين يدى ، وأقبلت على قراءته بلهفة وشوق .. فلم أتركه الا وقد أتيت على آخره فاذا به أبدع ما قرأت ، وأحسست بنشوة تملكتنى بعد قراءته ، وشعرت بأن فيه نوعا من السحر ، والله أعلم بمبعثه ، أهو الفتى العبقرى ؟ أم الفتاة التى بعثته الى الحياة ؟

★ ★ ★

شاة وقصاب

الشاة لا تتوقع من القصاب ذبحا ولا غدرا .. والقصاب لا يرى نفعه الا فى الذبح والغدر .. وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب .. يفتك بغيرها من الشياة .. النقيات القلوب .. الطاهـــــــرات النفـــــــوس .

هذه القصة مهداة الى الأستاذ « ميخائيل نعيمه » .. على غير معرفة بيننا و لا سابق لقاء .. و ان كنت من جانبى قد لقيته أجمل لقاء على صفحات كتابه « كرم على درب » .. وصافحته بخاطرى بين سطوره وكلماته .. أو بين عناقيده وحباته .

اليه أهدى هذه القصة .. فقد أوحى الى بها قول له : « رأت الشاة قصابها يشحذ سكينه فقالت له : أحترس يا سيدى من أن تجرح أصابعك » .. فقد مس منى ذلك القول موضعا حساسا .. وأثار فى قلبى شعورا بالحزن والشجن ، وقلت لنفسى كم بيننا فى الحياة من شاة وقصاب .. خلا قلبه من كل عطف وبر .. الشاة لا تتوقع من القصاب ذبحا

ولا غدرا ، والقصاب لا يرى نفعه الا فى الذبح والغدر ، وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب يفتك بغيرها من الشياه .. النقيات القلوب ، الطاهرات النفوس .

ووجدتنى أتريث أمام ذلك القول ، وأمعن فيه الفكر .. ثم أقول لنفسى .. أكتب ! من يدرى ؟ فقد يكون فى قصتك عزاء لكل شاة .. وعظمة لكل قصاب !

أنا فى بيت « الشاة » .. بيت قديم فى حى الحلمية .. لا يفصله عن البيت الذى أقطنه سوى حارة ضيقة .. ولم يك قد خطر ببالى أن أزور البيت من قبل .. بل وما فكرت قط طول تلك المدة أن أسأل عمن يقطنه .. لأنى شخص سلبه الله خاصية حب الاستطلاع .. حتى كان ذات يوم فطرق بابى طارق .. واذا هو خادم عجوز تطلب الى فى استيحاء أن أقرضها بعض النقود لتبتاع به دواء لسيدتها المريضة طريحة الفراش .. التى تقطن البيت المجاور .

ولم أملك ، فأسرعت باعطائها ما طلبت .. فقد كانت الطريقة التى طلبت بها النقود تجعل أى امرىء -- مهما بلغ به البخل -- لا يكتفى بأن يجيبها الى ما طلبت .. بل يأسف لأن الله لم يلهمه أن يعطيها النقود قبل أن تطلبها .. فيوفر عليها مشقة الطلب وعناء الاستجداء .

ولم يكن بد بعد ذلك من أن أقوم بزيارة للجارة المريضة ، فقد دفعنى عامل المروءة الا أنتظر حتى يطلبوا منى المساعدة مرة أخرى .. بل أذهب أنا لأعرضها ، ولأقوم بواجب الجيرة .

ودخلت البيت .. فوجدته موحش المظهر بالى الأثاث .. ولقيتنى العجوز مرحبة وأجلستنى فى حجرة يقولون أنها لاستقبال .. وسألتها عن حال سيدتها فأنبأتنى بأنها ما زالت مريضة .. ولم أمكث سوى بضع لحظات ، ثم نهضت للانصراف .. وسألتها فى صوت خافت خجل أن كانت فى حاجة الى شىء من النقود .. فأبت اباء يشوبه الحياء والحيرة ،

فلم أجد خيرا من أدس في يدها قبضة من النقود .. وتركتها وانصرفت .

وتكررت زيارتي دون أن أرى المريضة نفسها .. وأنست الى العجوز واطمأنت .. وبدأت تفضفض بالحديث وكأنما وجدت في الحديث متنفسا لها فأنبأتني فيما قالت ذات مرة .. وقد بدا عليها كثير من الأسف الممزوج بالدهش :

– أكثر ما يؤلمني يا سيدى أن لديها من النقود ما يكفينا مذلة الاقتراض ، ولكنها ترفض أن تعطيني شيئا لأبتاع لها الدواء ، فاضطررت أن ألجأ اليك وادعى أمامها أن الصيدلي قد قبل أن يعطينا الدواء .. على أن نسدد ثمنه فيما بعد .. ولولا ذلك لما قبلت تناوله .

وأصابني دهش شديد .. ولكني حاولت جهدى اخفاءه ، وأبديت للعجوز أن من الخطأ الاقتراض بالمذلة . فما من انسان الا ويحتاج الى معونة الآخر .. في أى صورة وعلى أى وجه .

وساد الصمت هنيهة .. ووجدت حافزا يدفعني الى السؤال عما يحدو بسيدتها الى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء .. غير أني ترددت ، فقد خشيت أن نظن بسؤالي أنى نادم على اقراضها .. ولكن ترددى لم يدم طويلا .. فقد أحسست – بالرغم عما قلته من عدم ميلي الى الاستطلاع – بلهفة الى معرفة السبب .. وبرغبة شديدة في السؤال .. وأخيرا سألت .

ولم تجب العجوز للوهلة الأولى .. بل بدا عليها كالتي تجمع شتات أفكارها ، أو كأنما الاجابة على سؤالي تحتاجها الى فرط روية وتدبر .. وأخيرا أجابت :

– بودى لو قصصت عليك القصة كلها .. فهل لديك صبر على سماعها ؟

وأشرت لها برأسي ، فبدأت تقص :

– نشأت فى بيتها منذ نعومة أظفارى ، وهو بيت عريق كريم المحتد .. وخدمتها منذ مولدها حتى يومنا هذا .. فما فارقتها لحظة واحدة وما زلت أذكرها رضيعة أهزها بين يدى .. وقد كنت وقتئذ فى حوالى العاشرة .. وكنت أراها يا سيدى أجمل خلق الله .. ففى كل دور من دور حياتها كانت نموذجا للجمال .. كانت أبدع طفلة .. وأجمل صبية .. وأشد الفتيات فتنة وسحرا .

اجل .. انى لأبصرها أمام عينى أشبه بزهرة يانعة أو ثمرة ناضجة .. كل ما فيها مثالى لا هنة فيها ولا خطأ .. خلقها ربما فسواها .

واذكر كيف تهافت عليها الشبان وقتئذ .. وهى ما زالت فى الخامسة عشرة ، وكيف كان أبوها يضيق بهم .

ومرت الأيام .. والفتاة تزداد فى كل يوم سحرا وفتنة .. حتى كان ذات يوم ففاتحها أبوها بالزواج من رجل كان يظنه أصلح الناس لها .. ولكن الفتاة لم تجبه الا بالصمت ، وبدا عليها وجوم شديد .. ثم عادت الى حجرتها ووصل الى أذنى صوت كالبكاء .

وكنت أنا أعلم الناس بما خفى من أمرها .. كنت أدرك تماما سبب ما أصابها من حزن ، وكنت أحس مثلها بأن ذلك القول من أبيها كان صدمة شديده لها .. وأنه قد هدم أحلامها الذهبية .. لأن الفتاة كانت عاشقة !

ولست أود الخوض فى تفاصيل ذلك الحب وكيف بدأ ، فلست أظن به شيئا من الغرابة ، اذ أنه كان صورة لا تختلف كثيرا عما نرى ونسمع من قصص الغرام التى لا تكاد تتباين الا فى التفاصيل التافهة .

ولم يكن من العسير على الأب بعد ذلك أن يكشف خبيئة نفس الفتاة .. بل لقد علم أيضا بالفتى الذى تعلقت به فتاته ، وجعلته رجلها المنتظر .. وبالرغم من أنه لم يجد فيه ما يرضى رغبته هو .. أو يحقق

الآمال التى يرجوها لابنته .. فقد أظهر ترحيبا به وأقنع نفسه بقبوله ما دامت ابنته ترى فيه سعادتها وهناءها .

وتم الزواج .. وانتقلت مع الفتاة الى بيتها الجديد .. وقد أحاطنا جو النعيم ممتع لذيذ .. وبدت الحياة جميلة مزدهرة .. ولست أظننى فى حاجة الى وصف ذلك السحر الذى يفيض من وكر عصفورين جميلين جمعهما الحب وألف بينهما رباط الهوى .. فملأ المكان شدوا وترنيما .. وفاضت عليهما سعادة لو أتيح مثلها للحياة الدنيا لبرات من شقائهـا .

مرت الأيام وكلنا راض مغتبط ، وأنا أعجب فى نفسى لذلك الضوء الذى يخلعه الحب على الحياة الانسان .. حتى أحسست فجأة بأن ذلك الضوء قد بدأ يخبو ، وأن البقية الباقية منه قد أخذت طريقها فى مهاوى الفناء .. لتترك الدار فى وحشة سائدة .

وحتى هذه المرحلة - مرحلة الظلمة التى تسربت من خلال ذلك السناء المشرق والضوء البراق - لست أرى فيها أيضا كثير غرابة .. فما أظن هناك مشعلا أضاء الا والخمود مصيره ، وما أظن ذلك الاشراق فى ربيع الحب الذى أضاء المكان حينا وظل بمنجاة من الغروب .

أجل .. ما كان عجيبا أن تخمد ثورة الحب وتهدأ ، بين عاشقين مضى على زواجهما فترة ليست بالقصيرة ، ولكن العجيب أنها هدأت من جانب واحد وخمدت فى نفس واحدة ، فاذا بى أرى الشعلة التى انطفأت فى نفس أحدهما وكأنما انتقلت الى صاحبه فضاعفت ما بالنفس الأخرى ، واذا بى أرى الرجل يتبدل أمره ويتطاير من قلبه الحب ، فحل محله الجمود والملل والضيق والتبرم ، واذا بى أراها تزداد له حبا ، وبه ولعا وولها .

ولم أحس فى بداية الأمر بذلك التطور الذى طرأ على حياتهما .. ولم ألمس ذلك الحزن الذى مسها ، فقد كانت صبورا كتوما .. حتى بدأت تطول غيبته عن الدار .. وبدأت أحس ببكائها الصامت فى سكون الليل .

وفى ذلك الوقت مات أبوها ، فورثت عنه الكثير من المال وخيل الى أن الزوج قد بدأ يرق لها بعض الشيء ، لست أدرى ، أكان ذلك محاولة منه لتخفيف لوعتها على أبيها ؟ أم كان له فى ذلك مآرب أخرى ؟ الله أعلم ! .

على أية حال ، لم تكد تمضى على وفاة الأب فترة قصيرة حتى اشترى الزوج بأكثر أموالها دارا كبيرة أشبه بالقصور ، أضحى هو صاحبها ، ولم تجد هى فى ذلك حرجا ، فقد كانت تعتبره كنفسها ، وكانت لا تجد فارقا بين شخصيهما ، فماله لها ، ومالها له .

وفى الدار الكبيرة بدأ الرجل حياة عجيبة ، لا أظنك بمصدقها لو سردت عليك تفاصيلها .، فما أظن هناك امرأة ذاقت من العذاب مثل ما ذاقته المسكينة .. وأقصد العذاب النفسانى القتال الذى يسرى فى النفس كما يسرى السم في الجسد ، لا فرق بين الاثنين سوى أن السم يميت لساعته .. أما العذاب النفسانى فليس الا موتا بطيئا .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه ما استغرق فيه من اللهو خارج الدار .. ولم تكفه عشرات العشيقات اللاتي كان يقضي الليالي بأكملها بين أحضانهن تاركا الزوجة الأمينة الوفية . جالسة تنتظره علي مقعد في جوف الليل حتى ينهكها التعب والسهر فتلقي برأسها على المنضدة وتروح في غفوة حتي أوقظها وأقودها الي فراشها .. وهى لا تشكو ولا تتبرم .. ولا تذكره – بالرغم من هذا – بسوء ، ولا تسوق اليه اذا ما لقيته فى الصباح لوما ولا تأنيبا ، بل تلقاه بقدر ما تستطيع من البشر والبشاشة .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه كل هذا .. حتى بدأ يخصص فى الدار جناحا لمتعته ! لا تدهش يا سيدى .. فما قلت سوى الصدق .. أجل .. لقد بدأ يحضر عشيقاته الى الدار ويفرد لهن حجرات خاصة .

تسألنى .. وماذا فعلت المسكينة ؟ .

لا شيء .. لا شيء البتة .. لقد استمرت تروى من ماء أجاج .. وتطعم المر والحنظل ، وهى صابرة راضية . أو هكذا كانت تبدو .. وأن كنت لا أشك فى أن قلبها يحترق ، بل أغلب ظنى أن قلبها قد أضحى فحمة سوداء .. لقد كانت تقول انها تحبه ، وأنها لابد أن تستر عليه ، وتخفى فضائحه ، وكانت تقول انها نوبة طيش .. سيزيلها مر الزمن .. وأن واجبها هو أن تصبر وتحتمل .. حتى تزول النوبة ، ويعود كما كان .. انها امرأة عجيبة .. امرأة ليست من البشر فى شيء .. فما أظن أية امرأة سواها كان يمكنها أن تحتمل مثل ما احتملت .

وأخيرا .. انتهى الأمر نهاية عجيبة .. وزالت النوبة من الرجل .. نوبة الطيش التى كانت تقول عنها انها لابد زائلة .. ولكن زوالها كان بطريقة لا تخطر لها ببال .

لقد كف الرجل عن عشيقاته .. ولكنه استبدل بهن امرأة واحدة .. زوجة جديدة !

انى لأحس فى حلقى بغصة .. بأن مجرد الذكرى تقطع نياط قلبى ، وتفرى كبدى .. فما بالك بما فعله الواقع .. فى نفسها وفى نفسى !

انها لم تثر ولم تغضب فما كان مثلها ليثور قط ، كل ما فعلته أنها أغلقت على نفسها الحجرة حتى حل الظلام .. ثم رأيتها تقبل على متسللةوقد جمعت متاعها فى حقيبة كأنها خادمة طريدة .. وأنبأتنى بأنها ستغادر الدار لأنها لا تحتمل البقاء .. وانهمرت الدموع من عينى .. وتمنيت لو استطعت أن أذهب الى الرجل فأمزق جلده اربا .. ولكنى لم أملك سوى أن أتبعها .. وخرجنا نتسلل فى جنح الظلام .. كأننا شبحان من أشباح الليل .

وصمتت العجوز ، وطال بها الصمت وهى مطرقة الى الأرض .. واحترمت صمتها هنيهة .. ثم قلت أستحثها على اتمام الحديث :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟ .

فهزت رأسها ببطء ثم أجابت بصوت خافت :

- لا شيء .. ليس أكثر مما ترى .. لقد لجأنا الى هذه الدار القديمة ثانية .. وهى كل ما بقى لها مما ورثته عن أبيها .. واستقر بنا المقام فى هذه الدار الموحشة المظلمة والوحدة الكئيبة

وبقى الرجل مع زوجته الجديدة .. ربة القصر الواسع الأرجاء .. الشامخ البناء !

وحاولت العجوز أن تعود مرة أخرى الى صمتها واطرافها .. بيد أننى تذكرت السؤال الذى من أجله قصت على القصة .. ورأيت أنها لم تجبنى عليه بعد ، بالرغم من هذه القصة الطويلة التى قصتها على ، فلم أجد بدا من أن أعيد السؤال مرة أخرى :

- ولكنك لم تخبرينى بعد عما يحدو بسيدتك الى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء ؟

- حمقاء .. بلهاء .. أو قل مجنونة ان شئت .. أتصدق يا سيدى أنها بعد كل ما حدث ما زالت تحبه .. وما زال فى قلبها حنين له وعطف عليه . لقد حل بالرجل ما كنت أتوقع حدوثه .. لقد ثأرت الزوجة الجديدة لنا منه .. سلبته ماله وأفقدته كل ما يمكن أن تفقده اياه .. لقد أضاعت كل ما حاولت سيدتى أن تصونه .. لقد أصبح القصر قصرها هى وأصبح الرجل لا يملك الا ما تجود به عليه .

وأخيرا وبعد طول غيبة .. أقبل علينا ذات يوم .. أتدرى لم أقبل ؟ ليستجدينا بعض النقود ! لا ليسد رمقه ، وأنما لينال من متعه بعض ما حرمته زوجته الجديدة .

ولتتخيل يا سيدى أنها أعطته كل ما معها .. وهى التى تعيش عيشة

الكفاف ، فى هذه الحجرات المظلمة والأثاث الممزق البالى .. هى التى لا تعتمد فى حياتها الا على أجر الشقة العليا وهو بضعة جنيها لا تكاد تكفينا .. أجل لقد غفرت له وأعطته كل ما تملك .

ثم تعود بعد ذلك ان يأتى بين آونة وأخرى ليأخذ منها ما تستطيع اعطاءه اياه .. حتى أصابها المرض .. ورقدت طريحة الفراش .. وباتت فى أشد الحاجة الى الدواء ومع ذلك فهى ترفض شراءه .. اتدرى لم تبخل على نفسها بشراء الدواء ؟ كى تحفظ له النقود حتى لا يصيبه ضيق وغضب اذا لم يجد معها نقودا ! مجنونة هى ولا شك !

وسمتت العجوز .. فتذكرت الشاة وتذكرت القصاب وتذكرت خوفها عليه من أن يجرح أصبعه وهو يشحذ سكينه لذبحها ، وقلت لنفسى ما أشد الشبه ، وحاولت أن أمنع دمعة همت بأن تطفر من عينى .. ثم هممت بأن أقول للعجوز شيئا على سبيل العزاء .. ولكنى سمعت على الباب طرقا .. وقامت العجوز لتفتح ، ودلف من الباب رجل ، أحسست بوحى خفى أنه لابد أن يكون القصاب نفسه .. ولقد كان هو بالفعل .. وكان أكثر ما لفت نظرى منه احمرار فى عينيه وآثار تعب أو مرض بادية على وجهه .

وحيانى الرجل بيده ثم دخل الى حجرة المريضة .

واستأذنت العجوز وعدت الى بيتى مكررا عليها : اننى على استعداد لكل ما تطلب .. فأبدت أبلغ آيات الشكر والحمد .. وأنبأتنى بأنه ليس أمامها ملجأ سواى .

ولم تمض نصف ساعة حتى طرق الباب وبصرت بالعجوز وقد بدا عليها كثير من الفزع والذعر .. فهبطت اليها وسألتها متلهفا :

– أطرأ على سيدتك شيء ؟

– ليس على سيدتى ، بل عليه هو !

- من ؟ .

- سيدى ! زوجها ! .

وأسرعت معها الى الدار فوجدت الرجل جالسا على أريكة أمام فراش المريضة .. التى تركت فراشها .. لتلقاه بين ذراعيها وقد بدا عليها جزع شديد .. وكان الرجل فى اغماء تام .. فأمرت الخادمة بأن تفك له ثيابه ، وأسرعت باستدعاء الطبيب .

وفحصه الطبيب ثم أنبأنى أنه قد أصيب بنزيف فى المخ ، وأنه يجب أن يرقد فى مكانه وأن توضع على رأسه طاقية ثلج .

ولكن الموت كان فى عجلة من أمره .. فلم ينتظر حتى نحضر طاقية الثلج ، ووفر علينا مشقة التمريض ، وفاضت روح الرجل بعد ساعة .. أو بعض ساعة .

ومات الرجل بين ذراعى امرأته الوفية الطيبة ، وخرج الى جدثه من بيتها المتواضع القديم .

ولم تمض بضعة أيام حتى أقبلت على العجوز لتودعنى قائلة :

- انها ستعود هى وسيدتها الى القصر .

وسألتها فى دهش :

- والمرأة الأخرى ؟

فأجابت بلهجة لا تخلو من الشماتة :

- لقد شب فى حجرتها حريق أودى بها والحقها بالرجل .

يا للعجب ! لقد هوى القصاب ، واستنقذت الشاة ليت لكل قصاب فيه عبرة .

★ ★ ★

خبايا الصدور

آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا أن نخترق حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولملئنا منهم رعبا .

قلت لصاحبى :

– يخيل الى أن مهمة كاتب القصة فى عصرنا هذا قد أضحت مهمة شاقة .. فهو لا يجد من حوله مادة دسمة يغذى بها خياله .. فنحن فى عصر برود وجمود .. ليس فيه من الحوادث ما يلهم القصة ويوحى بالكتابة .. وأغلب ظنى أن مهمة اسلافه من كتاب القصة فى العصور السابقة كانت أسهل كثيرا .. حيث كانت الحياة مسرحا للحوادث المثيرة والمآسى المروعة .. التى تهيىء لهم مرتعا خصيبا يرتعون فيه بأذهانهم وأقلامهم .. ويسجلون لنا عنها قصصا رائعة .. لأن خير ما كتب الكتاب هو ما استوحوه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع .

وقبل أن يجيب صاحبى .. رأيته قد انتصب واقفا ومد يده مصافحا

امرأة فى منتصف العمر قد أقبلت عليه ، وقدمت اليه رجلا فى رفقتها قالت انه زوجها ، وألقى كل منهما الى الآخر ببعض الكلمات التافهة التى يقولها الانسان عندما لا يجد ما يقوله ، ثم ودعته بابتسامة رقيقة ، وانصرفت وزوجها فى سبيلهما ، واتخذ صاحبى مقعده بجوارى مرة أخرى .

وانتظرت أن يقول شيئا عن المرأة .. ولو اسمها .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فلم أجد بدا من سؤاله :

– ترى من تكون السيدة ؟

وبدا على صاحبى شرود الذهن .. وأجابنى بعد فترة سكون دون أن يكلف نفسه مشقة النظر الى :

– انها دفاع عما اتهمت به عصرك من ركود وجمود .

ولم أستطع أن أفهم مايقصد للوهلة الأولى فسألته :

–لم أفهم بعد ! أفصح قليلا .

– لست مسئولا عن غبائك .. لقد كنت ترمى عصرك بخلوه مما يلهم القصة ويوحى بالكتابة وفى صدر هذه المرأة الهادئة المظهر .. قصة تكذب سوء ظنك بعصرك .. وتلقى عليك تهمة البرود والركود أن لم تخرجها لقرائك كما هى بحذافيرها وتفصيلها .

وبدأ صاحبى يسرد القصة .. قال :

– رأيتها أول مرة ، أرملة حديثة العهد بالترميل .. وكانت فى الثانية والعشرين ، ولم يكن جمالها من ذلك النوع الأخاذ الذى يبهر البصر .. ومع ذلك فقد كانت بها عذوبة ورقة ترتاح اليهما النفس ، وكان أجمل ما فيها شعرها المسترسل ، وعيناها الزرقاوان ، وأسنانها الصغيرة الناصعة البياض ، وبشرتها البيضاء النقية .. كانت المرأة فى مجموعها مخلوقا

لطيفا يسر المرء أن يجالسه ويتمتع بسماع حديثه والنظر اليه .

وكانت تعيش مع أمها على دخل يهيىء لهما حياة هنيئة لينة ولم تمض مدة على وفاة زوجها حتى بدأ العشاق والمعجبون يلتفون حولها .. ولكنها كانت تصدهم في رفق ، وتخبرهم أنها زاهدة في الزواج مرة أخرى .

ولكن واحدا منهم كان أشد اصرارا .. فقد كان بالأرملة الجميلة صبا مولعا ، وكنت أعرفه معرفة طفيفة .. من ذلك المنتدى الذى تعودت الجلوس فيه . وكنت أعرف عنه ولعه الشديد بلعب « البوكر » . كان شابا صغيرا على شىء كثير من الوسامة والأناقة .. تبدو عليه مظاهر الثراء .. وأن كنا نعلم جميعا – فيما بيننا – انها لا تعدو المظاهر .. فما كان أهله يملكون كثيرا ولا قليلا .. اذ كان كل ما تبقى لهم من ثروة أسرتهم الكبيرة المعروفة لا يعدو تلك الافدنة القليلة وتلك الدار الكبيرة الكائنة فى احدى مديريات الوجه البحرى التى اعتكف فيها أبوه .

ولم أكن قد رأيت أباه ، ولكنى سمعت عنه ، فقد كان أحد كبار الرجال ذوى الأسماء الرنانة .. وكان يشغل منصبا كبيرا فى السلك السياسى .. وكان أبى يعرفه معرفة جيدة ، وأذكر أنه قال لى عنه ذات مرة :

– أنه أمرؤ عجيب .. فما رأيت رجلا تجسمت فيه مظاهر النبل وكرم المحتد ، كما تجسمت فى هذا الرجل .. انه من ذلك النوع الذى تحس بأنه منحك منحة بمجرد أن يحييك ويقول لك « كيف حالك ؟ » . لقد أضاع كل ثروته فى اللعب والنساء .. ومع ذلك تراه كما هو .. بالمظهر نفسه وبنفس العزة والاباء .

وسألت عن عمره فأجاب :

– أظنه فى التاسعة والأربعين... ومع ذلك أستطيع أن أجزم أنه ما

زال أجمل رجل رأيته فى حياتى .. لقد كان شديد الجاذبية للنساء .. اجتمع له كل ما يفتنهن .. لطيف المعشر ، حلو الحديث .. وحتى الآن ما زال محتفظا بذلك القوام الفارع الممشوق .. فلم يصبه انحناء ولا ترهل .. لقد أبيض شعره ولكنه ما زال كثيفا لامعا كما هو .. وظهرت بعض التجاعيد تحت عينيه ولكنهما مازالتا تبرقان كعينى طفل .. وما زالت الضحكات الحلوة تشيع على كل وجهه .

ومرت الأيام وأواصر الصداقة تزداد بين الفتى والسيدة الصغيرة .. وذات يوم دعاها وأمها لزيارة دارهم الكبيرة حيث يقطن أبوه .. وأغلب الظن أن الفتى كان يريد أن يعرضها على أبيه .. الذى لم يكن يميل الى مثل هذا الزواج .. فقد كان يريد لابنه أكثر من أرملة متوسطة الحال .. كان يريد فتاة ثرية تستطيع أن تعين ابنه بمالها على أن يحيا تلك الحياة التى تعودها .

وعقب الغداء جلس الأب والأم وحيدين فى حديقة الدار الواسعة المهملة ، وقال الرجل للسيدة :

– الواقع يا سيدتى ان ابنتك آية فى الجمال .. ولم يعد يدهشنى الآن ان يقع الفتى فى حبها .. فانها تستحق الحب .. ولأصارحنك القول اننى كنت أوثر ان يتزوج ابنى امرأة أوفر مالا .. ولكنى لم أكد أراها حتى أدركت أنها تستحق أن يضحى المرء من أجلها بكل شىء لديه .. واصبح لا يسعدنى شىء قدر أن تقبل زواجه .

وفى هذه اللحظة كان الفتى يعرض زواجه على المرأة الصغيرة فى ناحية أخرى من الحديقة . وبعد هنيهة أقبل على أبيه يزف اليه نبأ خطبته .

وتم الزواج .. وذهبت لأهنئهما فى الطبقة الانيقة التى استأجرها فى الزمالك .. وكان يلوح جليا ان الفتى مازال مولعا بصاحبته .. فقد بدا فى عينيه بريق الحب .. ولكنى لم أستطع أن أتبين الى أى مدى كانت تبادله

الحب .. فقد كانت من ذلك النوع الذى لا تظهر مشاعره واضحة على وجهه ، وان كنت لم أر هناك ما يمنع من أن تبادله الحب نفسه .. فقد كان فى الفتى كل ما يجذب النساء اليه .. جمال ، وشباب ، ومرح ، ورقة حديث .

ومرت الأيام فأخذت سحب الحب تنقشع عن رأس الفتى ، وبدأ ينغمس فى اللعب .. ولم تمض فترة قصيرة حتى كان قد استنفد ما كان مع السيدة من مال .. وأخذ يستدين من هنا وهناك .

ووجدت الزوجة أن خير ما تفعل لتحافظ على كيانهما البيتى هو أن تلجأ به الى دار أبيه ، فتسقط عن عاتقهما تلك التكاليف الباهظة التى يدفعها ثمنا للظهور بالمظهر اللائق ، وتبعد به عن ذلك الوسط الملوث والحياة المليئة بالخمر والميسر ، ولم يكن أيسر عليها من ذلك فقد أضنتها تلك الحياة الصاخبة ، وكان بنفسها ميل الى الهدوء والعزلة .

ولم يمانع الفتى بادىء ذى بدء ، ورحب الأب بالزوجين الصغيرين فقد ملأ البيت بهجة وحبورا .. وبدأت السيدة الصغيرة تتخذ مكانها كربة للدار ، فأعادت تنظيمها وتجديدها ، وتعهدت الحديقة بالعناية والتنسيق ، فاذا بالدار تعود الى سابق رونقها فقد كانت السيدة سليمة الذوق خبيرة بالازهار والحدائق .

وسر الفتى أن يرى ذلك الانسجام بين زوجته وأبيه ، فقد كان يحب كليهما ، وكان انهماكهما سويا فى تجديد الدار وتنسيق الحديقة ، يتيح له بين آونة وأخرى أن يفر الى القاهرة ليسلى نفسه بالانغماس فى اللعب مع صحبه ، وعلى مر الأيام أخذت فترات الفرار تكثر وتطول .

ومرة واحدة – ودون أن يدرى لذلك سببا ولا علة – بدأ الشيطان يهمس فى نفسه ، ويوسوس فى صدره ، وتملكته ريبة غامضة وشك مبهم ، لم يستطيع أن يحدد بالضبط ما هو ، ولكنه كان يخيل اليه أن زوجته

لم تعد تأبه له كما كانت من قبل ، وأن أباه قد أخذ يضيق به ذرعا ، فقد بدأ يحس بأنه لم يعد له موضع فى أحاديثهما ، وأن وجوده قد أضحى غير مرغوب فيه وبالرغم مما كان يعلمه الفتى عن أبيه وماضيه مع النساء ، فان شكوكه كانت من الفظاعة فى حد لا ينبغى أن يسمح لها بالتسرب الى نفسه ، على أنه كان يستطيع فى بعض الأحيان أن يلحظ نظرات عابرة بين الاثنين ، لو رآها بين غيرهم لقال (عشاق) ، ولكن بين أبيه وزوجته فحاشا لله ، ان ريبته لا يصدقها عقل بشرى !

ورأى الفتى أن خير ما ينقذه من أوهام نفسه .. هو أن يعود بزوجته الى القاهرة فيباعد بينها وبين أبيه .

وذات يوم أنبأهما أنه قد عزم على أن يعود للسكنى فى القاهرة مرة أخرى ، وأن عليها أن تعد نفسها للسفر .

ودهشا كلاهما ، وأجابه أبوه أنه ليس لديه من المال ما يعطيه له لينشىء بيتا آخر ، وأجابت الزوجة : ان القليل الذى كان لديها قد استنفده فى اللعب .

وصرخ الفتى غاضبا ، وأجابها أنه قد أخطأ بزواجه من ارملة ! ووجمت الزوجة وصبغها الأصفرار ، وصاح به أبوه ينهره :

– يجب أن تعلم كيف تخاطب سيدة !

– لست فى حاجة الى دروسك بعد .

وخرج الفتى مغضبا من الحجرة .. وسافر الى القاهرة ولم يعد الا فى اليوم التالى .. فقابلته زوجته بصداقتها وبشاشتها التى عودته اياها كأنما لم يحدث شىء .. أما الأب فما حال عن بعض برودته وفتوره .. وأن لم يمر على لسان أحد منهم ذكر لما حدث .

ولكن الأمور سارت بعد ذلك من سيىء الى أسوأ فقد ازداد التوتر

بين الابن وأبيه ، ولم يعد يحاول مبارحة الدار بعد ذلك ، فزادت أعصابه توترا .. وذات يوم ساء السيدة هذا الضيق الذى أصابه فسألته ببساطة وبراءة : لم لا يحاول أن يرفه عن نفسه بالسفر الى القاهرة ليرى أصدقاءه بين آونة وأخرى كما كان يفعل من قبل ؟

واعتقد الفتى انها تريد التخلص منه ، فزادت ريبته وعصف به الشك .. حتى انتهى به الأمر الى مراقبتهما والتجسس عليهما .. فتارة يدخل عليهما الحجرة فجأة .. وتارة يتبعهما الى الحديقة .. ولكنه لم يجد بينهما أكثر مما يجد أى زوج بين زوجته وأبيه .

وزادت حالة الفتى سوءا ، وبدأت أعصابه تتحطم ، انه لا يستطيع أن يعثر على دليل يؤكد ريبته ، ولا يجد أى أثر لتلك الخديعة التى يتوهمها ، ومع ذلك فهو موقن انهما يخدعانه ، واثق بأن بينهما صلة أكثر البريئة التى يستتران وراءها .

وأحس الفتى بأنه أضحى من فرط الريبة على وشك الجنون .. بل أنه جن فعلا .. فلقد رحل الى القاهرة ذات يوم .. ثم عاد وقد استعار مسدسا من أحد أصدقائه .. لقد نوى ان يقتلهما معا .. فور أن يعثر بأقل دليل يشير الى تلك الريبة التى تنهش قلبه .

ولا أدرى كيف انتهى الأمر بتلك الفاجعة .. فكل ما علمته من خلال المحاكمة أن الفتى دخل على أبيه ذات مرة بقصد تصفية المسألة وانهائها على أى وجه .. ومصارحته بشكوكه كى يضع لها حدا .

وقامت بينهما مشادة عنيفة انتهت بأن أطلق الفتى النار على أبيه وهو فى نوبة غضبه فأرداه قتيلا .. وعندما أدرك ما فعل انهار على جسد أبيه يبكى بجنون كأنه طفل صغير ، وأقبلت الزوجة والخدم .. فوجدوه يهم باطلاق الرصاص على نفسه فأمسكوا به ونزعوا المسدس من يده .

وكانت جريمة الفتى هى القتل مع سبق الاصرار ، ولم يكن هناك

أى سبيل للدفاع عنه وانقاذه الا سبيل واحد وهو ذاك السبيل الذى حاول محاميه طرقه عندما أتى مقابلة السيدة الصغيرة .

لقد كنت هناك وقتئذ ، وكانت أعصابهامحطمة تماما ، وأسوا من ذلك أنها كانت حاملا وعلى وشك أن تضع .. وكنت أحاول التخفيف عنها .. عندما دخل المحامى ، وبعد بضع كلمات مما لم يكن بد من قولها ، اتجه الى غرضه مباشرة :

– يا سيدتى .. انك أنت الوحيدة التى تستطيعين انقاذ زوجك .

– أنا ! وكيف ؟

– أعذرينى يا سيدتى ، فأنا أعلم أنه مطلب شائك وطريق وعر .. وأن التضحية التى سأسألك بذلها هى أقصى ما تستطيع امرأة أن تقدمه ، ولكنها السبيل الوحيد يا سيدتى .

وصمت الرجل هنيهة .. ولكنها أجابته بصوت هادىء النبرات :

– استمر .

– السبيل الوحيد لانقاذه .. هو أن تعترفى بأنه كانت هناك بينك وبين المرحوم أبيه علاقات غرامية .

وكدت أصيح بالرجل : يا للمجنون ؟ اى حماقة تلك التى انتابت الرجل ؟

والتفت الى السيدة لأهدىء من روعها ، ولكنى وجدتهاصامتة ساكنة .. وقد أطرقت هنيهة ، ثم رفعت عينيها الى الرجل ولم تزد على ان قالت :

– سأفعل يا سيدى .

وانتهت المحاكمة بتبرئة الزوج وارساله الى المستشفى الأمراض العقلية بعد أن برت السيدة بوعدها وعادت الى العيش مع أمها .

ثم علمت بعد ذلك أنها قد وضعت طفلا .. وبعد شهرين علمت أن الطفل قد مات .. وذهبت لزيارتها فوجدتها شديدة الحزن . فقلت أخفف من لوعتها :

– لا تحزنى فقد رحمه الله .. لقد أخذه قبل أن يعرف أن أباه قاتل مجنون !

وانتفضت المرأة ورفعت عينين حجبتهما سحابة من الدموع وقالت فى صوت مبحوح :

– لم يكن أبوه بقاتل ولا بمجنون .. لقد كان أبوه خير الرجال .. أنى لم أقل فى المحكمة غير الصدق !

وقف شعر رأسى .. ولم أنبس ببنت شفة .. وغادرت المرأة فلم ألقها الا اليوم مع زوجها الثالث .. قانعة راضية .. كأن لم تصدم حياتها حادثة ولا كارثة .

وصمت صاحبى هنيهة ثم أردف كأنه يحدث نفسه :

– آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا ان نخترق حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولملئنا منهم رعبا .

★ ★ ★

صاحبة الحقيبة

ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على العكس لقد سره الا تكون المرأة خيرا من ذلك .. وأسرع الى حقيبته فحملها فى يده ، وجذب المرأة بيده الأخرى الى حجرته .. فقد كانت صاحبـــــــة الحقيبـــــــة .

ما أشبه حياتنا فى هذه الدنيا بطريق متسع ، رحب الأرجاء ، ساطع الأضواء .. تبدو فيه بين آونة وأخرى منعطفات وأزقة مظلمة ضيقة .. كثيرة الانحناء والالتواء .. والانسان فى هذه الحياة مخلوق عجيب .. اذ ليس فى استطاعته أن يداوم السير فى هذا الطريق المتسع المضىء ، السوى المستقيم .. وهو يرى دائما ما يستهويه فى تلك الأزقة المظلمة .. ويحلو له أن ينعطف بين آونة وأخرى فيخوض ظلماتها ، والفرق فى هذه الحياة بين انسان وآخر ، هو قدرته على العودة سريعا من أزقة الحياة الى طريقها المتسع المستقيم ، وفى قدرته على الا يضل سبيله فيقضي عمره يتخبط فى المنحنيات والمنعطفات ، فلا تعود عيناه تبصران النور .

وما نظن أن انسانا استطاع فى هذه الحياة أن يسلك بنفسه ذلك

الطريق السوى المعبد .. دون ما يحاول مرة .. أو مرات .. ان ينعطف بها من الأزقة .. سواء اكان فى محاولته تلك متسترا أو مكشوفا .. وسواء أكان ذلك منه بجسده أو بذهنه .. فكل امرىء - مهما بدا من براءة ظاهره وسلامة مسلكه - له أزقته التى تفرعت من طريق حياته .. والتى غمر فيها نفسه لحظة أو لحظات، ووجد فى ذلك الانغمار متعة ونشوة .. ولذة مسروقة مختلسة لم يجدها فى ذلك الطريق الحافل الصاخب .. أجل .. كل امرىء قد ذاق متعة الأزقة ، ان لم يكن بلسانه فبجنانه .. وان لم يكن باللمس فبالحس .. اللهم الا الأنبياء المرسلين .

ولم يكن صاحبنا ليتطاول بنفسه الى زمرة الأنبياء والمرسلين بل كل يعلم تمام العلم أنه انسان كغيره من البشر ، ولكنه كان مع ذلك يعتقد أنه اقلهم انعطافا فى أزقة الحياة .. بل لم يكن ليعتبر انعطافه انعطافا بمعنى الكلمة ، اذ كان كل ما يفعله لا يزيد على ان يمد بصره ليتطلع الى ما فى تلك الأزقة .. وليتنعم فيها ببصره وبخياله .. ثم يعاود السير فى طريقه مرة أخرى .

كان يعتقد أن هذا هو أهون الشر وأيسر الخطايا .

وجلس الفتى يستعرض فى ذهنه ما مر به من أزقة فى طريق حياته .. وشرد فيها ببصره من نافذة القطار ، وأخذت المناظر تتتابع أمام عينيه فى سرعة خاطفة .

لم يحس الفتى بأنه شرير .. ولم ير أنه اقترف فى تلك الأزقة ما يشينه أو يورثه الندم أو الخجل .. فقد بدأ حياته بحب انتهى بزواج فلم يحد فيه عن الطريق المستقيم .. ومنذ زواجه لم يزد ما صادفه فى طريقه من أزقة على عدد محدود يعد على الأصابع كان يمر بها مر الكرام .. ولم يزل يذكرها تماما ، فقد كان أولها تلك الفتاة الشقراء التى تعود أن يلقاها كل يوم فى طريقه الى عمله .. وابتسمت له ذات مرة .. ثم تحدثا سويا ..

ولم يزد كل ما قام بينهما على ذلك الحديث ، وكان ثانيها تلك الفاتنة ذات الوجه الخمرى المتورد .. التى كان مرآها يحدث فى نفسه هزة ونشوة ، واجترأ مرة على مخاطبتها فجاذبته حديثا لينا رقيقا .. ثم عادت وأنكرته ، وثالثها .. ورابعها وخامسها ، وكلها لا تزيد على علاقات سطحية عابرة .. أو اعجاب من طرف لا يحس به الطرف الآخر .

وكان الفتى يتخيل أن تلك الأيام التى قد أضحى عمله يضطره فيها الى السفر الى الاسكندرية بين آونة وأخرى ستكثر من تلك الأزقة فى طريقه ، ولكنه – حتى الآن – لم ير الا طريقا يستقيم على مدى البصر .. حتى أحس بالملل يتطرق الى نفسه .. وبات يتمنى لو يسنح له منعطف يزج بنفسه فيه .. خلال تلك الأيام التى يشعر فيها ببعض الحرية بعيدا عن امرأته .

وعندما وصل القطار .. كان الليل قد أرخى سدوله .. فقام الفتى وأدلى بحقيبته من النافذة الى أحد الحمالين الذى حملها مع بضع حقائب أخرى وسار بين الجموع المتحركة الى الخارج .

وأشار الفتى الى احدى عربات الأجرة .. وبعد لحظات كان الحمال يدفع بالحقيبة فى داخلها .. وتحركت العربة تحمل الفتى الى الفندق الذى تعود النزول فيه .

وأحس بالكثير من الراحة حينما ضمته الحجرة الهادئة الأنيقة ، ولم يكن فى نيته أن يسير تلك الليلة ، فقد أنهكه ذلك الجهد الذى بذله طوال يومه وعزم على أن يأوى الى فراشه مبكرا ليستعيد نشاطه .

وقام الى حقيبته ليخرج منها ما يحتاجه الى النوم ، ولكنه لم يكد يفتحها حتى بدرت منه صيحة دهش ، فقد ذهل حين وقع بصره على ثوب حريرى أخضر لا يمكن أن يكون له .. وأدرك للوهلة الأولى أن الحقيبة قد بدلت ، وبالرغم من أن ما فى حقيبته لم يكن بذى قيمة فيشعره فقدها

بخسارة جسيمة - اذ كانت أوراقه الهامة موضوعة فى حقيبة صغيرة حملها فى يده - فقد تملكه الضيق .. اذ لم يكن ليستغنى قط عن البيجاما والشبشب وأدوات الحلاقة وغيرها من التوافه اللازمة لكل رجل .. كذلك لم يكن يسره أن تقع تلك الأشياء الخاصة تحت بصر شخص غريب .. أغلب الظن أنه يحملق فيها الآن كما يحملق هو فى هذه الحقيبة .. وساءه أكثر من هذا وذاك أن يكون ذلك الشخص .. امرأة فقد بدا جليا أن الحقيبة لا يمكن أن تكون الا لامرأة !

ونفذت الى أنفه رائحة عطر يفوح من الثوب الحريرى الأخضر .. فتركته ثملا نشوان .. لقد كان عطرا عجيبا ، ما عرف الفتى مثله من قبل !

وأغلق الحقيبة ليفحصها من الخارج .. فاذا بها تماما كحقيبته .. الحجم نفسه .. واللون نفسه .. لقد كان الحمال معذورا .. فما من أحد يستطيع أن يميز احداهما من الأخرى .. على أية حال لم يكن الخطأ بالشىء الذى يستحيل تداركه ، فما عليه الا أن يرسل الحقيبة الى ناظر المحطة .. ولا شك فى أن السيدة ستعيد حقيبته فيستعيدها من هناك .. ومد يده الى الجرس ليستدعى الخادم ولكنه أعادها الى جانبه مرة واحدة . فقد طاف برأسه خاطر مفاجىء .

ان هناك طريقا آخر لاسترجاع الحقيبة .. طريق يلوح فى نهايته بريق متعة ، طريق يؤدى به الى أحد تلك الأزقة التى يتمناها .. الا يحتمل ان يكون بالحقيبة ما يدله على اسمها وعنوانها .. فيذهب هو اليها لاعادتها بنفسه ؟ .. ومن يدرى .. ؟ !

وشعر بآثار خفيفة من ذلك العطر الذى نفذ الى أنفه منذ لحظات ، فمد يده الى الحقيبة وأعاد فتحها .. فاذا بالعطر يحتويه فى جوه المليء بالسحر والفتنة .. وجذب الثوب الحريرى الأخضر ليكشف عما وراءه .. فاذا بصره يقع على كل ما يوحى بالأناقة والجمال .

حقا لقد صدق من سماهن « الجنس اللطيف » .. فكل ما فيهن .. وما حولهن .. وما يتعلق بهن .. لطيف رقيق .. لقد بدأ الفتى يحس بفرط الخجل من حقيبته ومحتوياتها .. عندما تراءى له أنها قد تكون مشرعة فى اللحظة نفسها لعينى المرأة الساحرة .. وعندما تخيل أن أول ما سيصدم بصرها .. هو ذلك الشبشب البالى العتيق .. وتمنى أنه لو يحضره .. ولو سار عارى القدمين .. ثم بصر بها تقلب بازدراء فرشاة الحلاقة التى لم تبق بها الا بضع شعيرات فكأنها رأس أصلع .. وصابونة الحلاقة التى قد أضحت أثرا بعد عين .

وتذكر الفتى بقية ملابسه .. لقد كانت كلها من نوع عادى ، والبيجامة قد بهت لونها وبدا بها أثر البلى .. والفانلات كذلك لا تخلو أحداهما من نقرة أو نقرتين ، لعنة اللّه عليه ، أنه دائما يؤجل تجديد حاجياته ، فلا يبدل بها الا بعد أن تمسى فى الرمق الأخير .. لا شك فى أن المرأة ستظنه كهلا أخنى عليه الدهر .

وعاد العطر ينفذ الى أنفه .. ويوحى اليه بأن هذا هو شذى أنفاسها وأريج جسدها الناضر البض ، وبدأ يراها بعين الوهم .. أنيقة رشيقة .. ممتلئة فى تناسق واستواء .. وبصر بوجهها من خلال ذلك العطر فاذا به ساحر فاتن .. وبذلك الشعر الذهبى المتهدل .. والأعين الملونة الفاتحة .. والفم الذى يفيض بالعذوبة والاغراء .. لقد أجاد الفتى تصورها فوضع فيها كل ما يتمنى .. ولكن هبه قد وجدها عجوزا عجفاء .. قبيحة شوهاء .. من اولئك العجائز الأجنبيات اللاتى يتعلقن بأهداب الصبا والشباب ! لا .. لا .. هذا شىء مستحيل .. ان قلبه لا يخطىء الحقيقة !

وبدأ الفتى يفتش فى محتويات الحقيبة .. ولكنه أحس ببعض التردد .. لقد شعر بأنه يرتكب أمرا نكرا ، وترك الحقيبة ثم اتجه الى باب الغرفة فأحكم اغلاقه تماما كما يغلقه لو كانت معه المرأة نفسها . لقد عزم

على أن يفحص كل ما فى الحقيبة قطعة قطعة .. ولم يكن يرغب فى أن يزعجه أحد .

وبدا له أن اللون الأخضر هو اللون المحبب الى نفسها .. فكل ما وقع عليه بصره كان أخضر اللون .. المشط .. والمرآة ، وعلبة البودرة .. وأحمر الشفاه والخدود ، وأشياء أخرى لم يستطع أن يعرف فائدتها .. كل هذه كانت خضراء .

ووجد الفتى حرف « ز » على حقيبة صغيرة ، ولم يجد سواه .. فلم يستطع أن يميز اسمها بالضبط .. قد يكون زيزى أوزوز .. أو زينب .. أو زكية .. أو زبيدة .. على أية حال انه يرجح أن تكون « زيزى » فهو اسم حبيب الى نفسه .

ووجد كتابا قلبه بين يديه لعله يجد أثر لاسم أو كتابة تهديه الى صاحبة الحقيبة .. فلم يجد شيئا .

ثم أبصر ثوبا للنوم .. أخضر فستقيا قد طبق بعناية بالغة ، ووضع فى ركن الحقيبة .. وبدت الدنتلا فى صدره دقيقة رقيقة .. وأمسك الفتى بالثوب بين يديه وقد علت دقات قلبه .. ومد أصابعه يتخيل طياته ويتحسس صدره .

وذهب الى عمله فى الصباح التالى .. وقضى يومه غائب الذهن .. فقد ترك ذهنه يجول فى الحقيبة ويعبث بمحتوياتها ، ويتخيل لقاء صاحبتها الفاتنة الساحرة .. وقبيل المساء عاد الى الحجرة وهو يحس كما لو كانت هناك امرأة تنتظره .. أمرأة ترتدى ذلك القميص الأخضر ، ويفوح منها عطر ينفذ الى القلب قبل أن ينفذ الى الأنف .

ودخل الفتى الى الحجرة وأضاء النور .. فرأى ما ملأه دهشا ، لقد أعدت صاحبة الفندق الغرفة للنوم .. ليس له فقط .. بل لامرأة أخرى .. لقد وجد الحقيبة فارغة على أحد المقاعد .. وأبصر أدوات الزينة قد صفت

على التسريحة والشبشب الأخضر الأنيق أمام الفراش ، وأبصر القميص الأخضر قد علق على المشجب .. لقد أعد كل شيء حتى بات الفتى يحس بأن المرأة موجودة في الغرفه فعلا .

وشعر بأنه ارتكب خطأ .. فما كان له أن يبقى الحقيبة في الحجرة .. ولكنه لم يستطع أن يقاوم ذلك الشيطان الذى يكمن في نفسه ، والذى يتحرك ليحطم القيد كلما لاح له شبح امرأة فاتنة .. أو نصف فاتنة .. انه رجل متزوج ، يمثل نموذجا لزواج سعيد ، فامرأته لا تقل في الجمال والفتنة عن أولئك النساء اللاتى يتحرق شوقا اليهن ، بل انه كان في وقت ما - قبل أن يتزوجا - لا يرى في الحياة من هو أجمل منها ، وهى لطيفة المعشر ، ذكية عاقلة ، أمينة مخلصة ، تحبه كأشد ما تستطيع امرأة أن تحب ، وهو كذلك يبادلها الحب نفسه والاخلاص ذاته ، ومع ذلك ، ومع كل هذا كان الفتى لا يستطيع ان يقتل في نفسه ذلك الحنين الى الجمال والميل الى الفتنة .. وما كان في قدرته أن يسكت ذلك الشيطان الذى يوسوس في صدره .. كلما بدا له وجه فاتن أو صدر مكتنز أو سوق ملفوفة ممتلئة ، لقد كان يعتبر حبه لزوجه شيئا ، وتلك المغريات شيئا آخر .. لا علاقة لها بالاخلاص أو الخيانة .

وكان يشعر بأن هذه المرأة التى لم ير منها سوى الحقيبة ومحتوياتها .. قد أغرته كما لم تغره امرأة من قبل فقد أحس بأن نفسه لهفة اليها وحنينا الى احتوائها بين ذراعيه .

وخطر له في تلك الليلة أن يغتسل بقطعة من الصابون المعطر وجدها في الحقيبة .. وكانت القطعة قد استعملت من قبل ، فأحس وهو يمس بها جسده .. بأن تيارا يسرى في كيانه .. لقد مست القطعة من قبل جسدها اللدن الغض .

وتمدد في فراشه وقد فاح منه ذلك العطر العجيب .. لقد أحس بأن المرأة قد باتت منه على قيد خطوات .. وأنهما قد أصبحا جسدا واحدا .

وتمطى الفتى وتثاءب ، ومد يده ليمسك بالكتاب الذى وجده فى الحقيبة ، ولكنه ما كاد يضع يده على غلافه حتى شعر بالباب يفتح فجأة دون سابق انذار ، واذا بزوجته تقف بهذا الباب وقد علت وجهها ضحكة مشرقة .. كأنما قد سرها أن تفاجىء زوجها .

ولم تطل الضحكة ، فقد حل محلها دهش وذهول وسرعان ما تحول الى غضب شديد .. أن زوجها لم يكن وحده ، لقد كان مع امرأة أخرى ، وتلك آثارها تدل عليها .

وصعق الفتى فقد وجد أن من العسير عليه أن يحاول اقناعها بالحقيقة ، وأن المسألة كلها خطأ فى الحقيبة ، فقد كانت كل المظاهر توحى بأنه ينتظر امرأة ، وأن المرأة ستبيت معه ليلته .

وقبل أن يفتح الفتى فاه ليفسر الأمر ، أبصر الخادم يطل برأسه من الباب ليخبره فى أدب امرأة تريده !

يا للكارثة ! « جاءك الموت يا تارك الصلاة » .

أى امرأة تلك التى تريده فى ذلك الوقت وهو الذى لم تسأل عنه امرأة قط ؟ . أى ظروف خرقاء تلك التى دفعت امرأة – أيا كانت – الى السؤال عنه فى ذلك الوقت الذى لا يتمنى فيه شيئا ، سوى ألا تسأل عنه امرأة .

ولم تطق الزوجة صبرا فانهارت على أحد المقاعد وعصف بها الحزن فاستغرقت فى بكاء عنيف .

ووقف الفتى حائرا هنيهة ، ثم خرج من الحجرة ليرى المرأة التى تريده ، فاذا بها عجوز متصابية قد ارتدت ثوبا أخضر ، واستطاع الفتى أن يلمح على حقيبة يدها حرف « ز » ، ثم أبصر فى ركن الصالة حقيبته المفقودة !

اذا فهذه صاحبة الحقيبة ! .. ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على

العكس ، لقد سره الا تكون المرأة خبرا من ذلك ، وأسرع الى حقيبته فحملها فى يده وباليد الأخرى جذب المرأة الى حجرته وصاح بزوجته :

- هذه هى المرأة التى تريدنى .

ثم صاح بالمرأة :

- أخبريها ماذا تريدين ! .

وتعاون الثلاثة على اعادة حاجيات المرأة الى الحقيبة ، وشرد ذهن الفتى فأبصر طريق حياته يبدو مستقيما كما كان ، وحمد الله أن انعطافه كان فى احدى تلك الأزقة القصيرة التى سرعان ما يعود المرء منها الى طريقه السوى مرة أخرى .

★ ★ ★

مجانين البريد

كان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد .. حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة .. ويسميه فيما بينه وبين نفسه « مجنـــــــون بوستـــــــة »

كان الطريق طويلا ، والسفر يملأ النفس وحشة ومللا ، فما تقع العين الا على صفرة الرمال الممتدة المترامية .. حتى ليرتد البصر من فرط الحملقة في لا شيء كليلا متعبا ، ويصيب النفس ضيق وتبرم عندما تمر بها مئات الأميال من الصحراء القفرة الجرداء ، دون تغير ولا تبدل ، فتغرق في لهفة لأن تبصر أثرا من آثار الحياة . ومهما كان تافها فانه يقطع به ذلك الحبل الطويل من الجمود والسآمة .

كانت العربتان تنهبان الأرض نهبا .. وقد جلس فيهما صاحبنا مع بضعة جنود في طريقهم من الواحات البحرية الى القاهرة وقد خيم على الجميع صمت وسادهم سكون . وجلسوا فى أماكنهم لا تبدر منهم اشارة ولا حركة اللهم الا تلك الهزات والقفزات التى كانت لا تفتأ تراودهم بين آونة وأخرى كلما صادفت العربة تلعة من تلعات الأرض .

وبدأ صاحبنا في شرود تام عن كل ما حوله . لقد كان جالسا فى العربة « البيك آب » الى جوار السائق بجسده فقط ، أما ذهنه فقد كان فى غيبة بعيدة ، اذ كان يحلق به فى أجواء تختلف كل الاختلاف عن ذلك الجو الذى يشتمله جسده .. أجواء لذيذة ممتعة : لا قفراء ولا جرداء ، لا وهاد ولا نجاد بل خضرة ونضرة ، وسحر ونشوة .

لقد تناهى بذهنه الى القاهرة ، فقطع تلك البيداء الشاسعة فى لمح البصر ، تاركا جسده يعلوه الغبار وتحطمه « المطبات » . وفر بتفكيره حيث المدينة الصاخبة يستعرض تلك الأمنيات التى هى على وشك أن يحققها بعد بضع ساعات .

لقد مضى عليه عام منذ أن غادر القاهرة آخر مرة . واستقر مع وحدته فى الصحراء التى تشرف على الواحات البحرية ، وها هو ذا يعود اليها اليوم بعد فرط حنين ، وطول لهفة وشوق ما أعجب أمره ! كيف استطاع أن ينتظر تلك الشهور الطويلة دون أن ينفد صبره و هو اليوم يتعجل الدقائق والثوانى !

هذه الشهور التى مرت عليه دون أن يبصر فيها وجها جميلا ، أو يسمع صوتا عذبا ، أو يمتع بلقاء هنىء .. كيف استطاع احتمالها ؟ لا شك فى أن الفضل بذلك يرجع الى تلك الكوكبة من الرفاق الذين تفيض نفوسهم مرحا وتشع قلوبهم بشراً ، والذين جعلوا من تلك البقعه الموحشة موطنا للضحك والسرور ، وخلقوا من الملل والكآبة أنسا وحبورا .

كانت حياتهم سلسلة فكاهات وأضاحيك ، حتى انه ليكاد يجزم بأنه ما ضحك فى حياته قط قدر ما ضحك وقتئذ .. كان مرح الشباب يهيىء لهم مادة من الضحك لا تفنى فكانوا يضحكون من كل شىء بل من لا شىء .

وكان أكثر ما يضحكهم ، هو صاحبهم العاشق ، ولم يكن تميزه بتلك

الصفة ليعنى أنه لم يكن بينهم عاشق سواه . بل على العكس .. لقد كانوا كلهم عشاق ، فالعشاق والصبا توأمان وهما صنعوا الشباب ، ولكنهم اختصوه بتلك الصفة لفرط ما به من وله وصبابة ولأنه كان عاشقا ، مستجدا ، اذ كان حديث عهد بالخطبة . وكان رحيله الى ذلك المكان النائى قد حرمه من أمتع أيامه وأهنأ لياليه وزاده صبابة على صبابته وأضرم فى نفسه نار الشوق ولهيب الوله .. ولم يكن الفتى العاشق ليقل عن صحابه ميلا الى المرح واللهو ، بل ربما كان أكثرهم دعابة وألطفهم فكاهة .. فلم يكن فى هواه بالباكى الملتاع الذى تركت الفرقة عنده أشجانا وأحزانا ، بل جعلت منه منبعا للتسلية ومصدرا للطرب والمرح .

كان الفتى لا يأتى شيئا سوى الغناء ، وسرد الشعر ، والجلوس على حجر أمام مكتب البريد ! . أما الغناء فقد كان ولوعا بالمواويل يحفظ منها كمية هائلة .. وكانت له قدرة عجيبة على القائها .. وكان أحبها الى قلبه موال ما فتىء يردده فى كل آونة ، وهو « يابو الطقية الشبيكة مين شاغل بالك ؟ » . أما الشعر ، فقد وعت منه ذاكرته كل ماقيل فى الهوى والعشق ، والغزل والتشبيب مما للمجانين والعقلاء وللأحياء والأموات ، أما جلوسه أمام مكتب البريد فمسألة فيها كثير من الطرافة .

كان مكتب البريد فى البحرية – وأغلب الظن أنه ما زال – عبارة عن حجرة بجوار دار المأمور ، ولم يكن هناك شىء يثير الحنق فى نفوس الصحاب المرحين ، ويملؤهم ضيقا وغضبا قدر تأخر البريد الذى لم يحدث مرة واحدة أن وصل فى موعده فقد كانت وسيلة نقل البريد بين القاهرة والبحرية – وهى مسافة تقرب من الأربعمائة كيلو متر ليس بينها متر واحد ممهد بالأسفلت – هى عربة « فورد » بلغت من الكبر عتيا ، شعارها فى التأنى السمْحة ، فهى تكره العدو ، حتى لتخالها فى بعض الأحيان تمشى القهقرى ، وكثيرا ما ينهكها السير ، فتقف فى الطريق لتستريح ، وقد تطول بها الراحة الى حد أن ينسى سائقها أهو ذاهب الى القاهرة أم عائد

الى البحرية . وكثيرا ما كان أصحابنا يهجمون على عربة البريد وبنفوسهم لهفة الى ما حملته اليهم فاذا بها بعد طول غيبة ، قد أعادت اليهم بريدهم الذى رحلت به .

وكان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد ، حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة ، ويسميه فيما بينه وبين نفسه . « مجنون بوستة » . فقد انتهى الأمر بالفتى من فرط ما أصابه من تأخير البريد ، أن انتقى حجرا ووضعه أمام حجرة البريد . فلا تكاد الشمس تشرق حتى يتخذ محله عليه مضربا عن كل أعماله ، ولا يفارقه حتى تلفه ظلمة الليل .

ومرت الأيام والرفاق فى مجونهم ومرحهم ، حتى خولت لهم العودة الى القاهرة فى اجازات قصيرة ، الواحد تلو الآخر . ولم يكن هناك شك فى أنهم يرون أن حقهم فى أن يكون البادىء بالاجازة هو صاحبهم العاشق ، ولكن الفتى أصيب فجأة بالملاريا . فاذا هو لسوء الحظ طريح الفراش قد حطمته الحمى ونهكت قواه ، فوقع الاختيار على صاحبنا ذاك الذى قد جلس فى العربة وقد سبق ذهنه جسده الى القاهرة الصاخبة .

جلس الفتى يرقب فى رأسه .. كيف هو سيقضى الأيام الخمسة التى صرحوا له بها .. خمسة أيام فقط ؟ . لقد كان عليه ان يفكر جيدا فى كيفية الانتفاع بها والا سرقه الوقت وأفلتت منه تلك المتع التى كان يحلم بها .

لقد كان أول ما يجب عليه عمله ، هو أن يخفف من تلك المهام الثقيلة التى كان يجب عليه أن يؤديها وأولها هو زيارته لبيوت رفاقه وايصال رسائلهم اليها ، وكان عليه أن يبدأ ببيت صاحبه العاشق ، وتلك هى أثقل المهام .. فقد كان يكره أن يكون رسول شر ، وأن يحمل الى الناس من الأنباء ما لا يسر ، ولكنه كان مضطرا لأن يقابل خطيبة صاحبه ويحمل اليها نبأ مرضه بالملاريا مخففا قدر الامكان ويطمئنها عليه ويبلغها أشواقه ، وعليه بعد ذلك أن يقوم بتلك الزيارات الرسمية التى لابد منها .

على أية حال يجب الا يعطى لكل هذه الأمور السخيفة أكثر من يوم واحد ثم يتفرغ بعد ذلك الى ما هو أهم وأمتع . أجل . عليه أن ينظم وقته بحيث يتسنى له أن يقابلهن حميما ، وأن يعوض نفسه ما فاته فى خلال تلك الغيبة الطويلة .

★ ★ ★

الفتى الآن قد وصل الى داره فعلا بذهنه وجسده معا .. وقد انتهى من احتضان وتقبيل كل من فى الدار ، وخلع حلته العسكرية وأزال عناء السفر .. ثم ارتدى البدلة « الكحلى » و « الياقة المنشية » وهى أرصن ما يمتلك ، ووقف أمام المرآة لحظة .. ثم أنطلق من الدار وسط عاصفة من احتجاجات دون أن يأبه لرجائهم بأن يمكث بينهم قليلا فيطفىء شوقهم اليه .

لا . لا . أن المدة خمسة أيام فقط . انه فى عجلة من أمره ! وبعد فترة قصيرة كان الفتى يسير فى شارع الملك يحملق فى ارقام الدور حتى وقف أخيرا أمام الرقم المطلوب .

يا للعجب ! . أهذا هو حقا بيت الخطيبة المطلوبة ! . انه لم يتخيل قط أنه بمثل هذه الفخامة .. لا شك فى أنها (لقطة) . ترى كيف استطاع صاحبه العثور عليها ؟

ودفع الفتى الباب الحديدى وعبر الحديقة الواسعة الغناء ثم صعد بضع درجات وضغط الجرس ، ولم يطل انتظاره فقد فتح الباب وأطل منه وجه لم يشك فى أنه وجه خطيبة صاحبه .

أجل أنها هى بعينها ، كما أبصرها فى الصورة التى أراه اياها ! بل لقد كانت فى الحقيقة تبدو أصغر منها فى الصورة ، وتأملته الفتاة هنيهة متسائلة بعينيها عما يطلب ، ولكنه لم يكد يفتح فاه بالحديث حتى صاحت

باسمه في دهش كأنما قد استطاعت تمييزه فجأة وطلبت منه الدخول مرحبة دون كلفة .

ودهش الفتى عندما علم أنها عرفته من بعض الصور التى أخذت لهم مع صاحبه فى الصحراء ، وأدهشه أكثر من ذلك أنها تعرف عنه وعن رفاقه الشىء الكثير .

وجلس الاثنان فى حجرة تطل على الحديقة وكانت الشمس قد توارت فى الحجاب ولم يبق من ذكراها الا فلول من الشفق الأحمر قد أخذت تنحدر أمام جيوش الظلمة .

وبدأ الفتى يفكر كيف يسوق اليها نبأ مرض صاحبه دون أن يزعجها ، وأخذ ينتقى فى ذهنه وسائل اللف والدوران التى يمكن أن يسلكها الى غرضه دون أن تصدم الفتاة .

وتعجب في نفسه من تلك اللهجة التى كانت تخاطبه بها الفتاة .. حقيقة أنه ضيف ، وأن الأدب والرقة وأجبان فى مثل هذه الحالات ، ولكن رقتها نحوه كانت – الى حد ما – أكثر مما يستحق أو يتوقع .

ووجد الفتى نفسه – دون أن يدرى - يسترق النظر الى ساقيها ، فاذا هما آية فى التناسق والجمال ، ثم ارتفع ببصره شيئا فشيئا وأخذ يفحص بقية الجسد . فراعه ذلك الانسجام والاستواء ، وانتقل الى الوجه فأحس بسحر يشعر من عينيها وفتنة تفيض من شفتيها !! لقد كان صاحبه معذورا فى جلوسه على الحجر أمام مكتب البريد ، ولو كان هو مكانه ، لما استطاع أن يحتفظ حتى الآن بقواه العقلية !

وبدأ الفتى يقص ما جاء من أجله ، ولم يأخذ ذلك منه سوى لحظات قصيرة .. وادهشه أنه لم يبد على الفتاة ما كان يتوقعه من انزعاج وحزن ، ولم يزد ما قالته تعليقا على قوله عن بضع كلمات تمنت لصاحبه فيها الشفاء .

ولم يجد بعد ذلك ما يقوله .. فقام من مكانه مستأذنا فى الانصراف ، ولكن الفتاة نظرت اليه فى دهش ، وقالت :

- أبمثل هذه السرعة ؟

ثم أطرقت وأردفت بصوت خافت :

- أنا أعلم أن اجازتك لابد وأن تكون قصيرة ، وأن الساعات عندك ثمينة ، أثمن من أن تقضيها فى زيارة بيوت الأصدقاء ولكن كان يسعدنى أن تمكث عندنا بعض الوقت ، حتى نتناول الشاى على الأقل .

ولم يسع الفتى الا أن يجلس ، ولم يسعه أيضا - بالرغم منه - أن ينكر أن استبقاء الفتاة له قد أسعده ، وأنه قد بات يسره أن يقضى معها مدة أطول ، وأخذ يرقبها مليا ، وهى تتحدث عن الجو وعن الحديقة والزهور ، وعن كل شىء الا صاحبة .. ووجد نفسه يجاذبها الحديث ، وكأن بينهما صحبة قديمة . فقد كان يحس فى نفسه بأنهما قد التقيا قبل ذلك مئات المرات وكان يشعر أن الجو الذى شملهما ملىء بنشوة ممتعة شبيهة بتلك النشوة التى تسود جو العشاق .

وصمتت الفتاة فجأة ، وحدقت فيه حينا ، ثم هزت رأسها متسائلة :

- يخيل الى أننى قد التقيت بك قبل الآن . لست أذكر متى ؟ وأين ؟ ولكنى أكاد أجزم فى نفسى أنك لست غريبا عنى .

وضحك الفتى وتأملها هنيهة ثم أجاب :

- هذا ما أحس به نفسه وقد يكون اللقاء قد حدث فعلا ، ولكننا لم نلتق بأجسادنا ، بل التقينا بأرواحنا .

ورفعت اليه عينيها فالتقت بعينيه ، ومرت بينهما نظرة تحمل فى جوفها أشياء كثيرة ، نظرة من تلك النظرات التى تمر بين الرجل والمرأة

فتحمل الى كل منهما ذلك الشيء الذي لا يستطيعان الا فصاح عنه ، ذلك الشيء الذي يكمن في القلوب ولا يمكن تبادله الا عن طريق العيون .

وفجأة أحس الفتى بوخز في جانبه ، لقد خيل اليه أن صاحبه يرقبه ، صاحبه الذي يرقد في جوف الصحراء على بعد مئات الأميال ، والذي كلفه أن يحمل رسالته الى خطيبته .

لقد أحس الفتى بأنه قد ارتكب فعلا نكرا وأمرا ادا ، فقد كان عليه أن يبلغ الرسالة ثم ينصرف الى سبيله ، ومع ذلك فقد ارتضى لنفسه أن يجلس قبالة الفتاة فيجاذبها الحديث ، ويبادلها نظرات الحب المختلسة ، ويخبرها أنهما قد التقيا بروحيهما - أزهق الله روحه وفرق جسده - حتى يكف عن خيانة الأصدقاء !

ترى ماذا يقول عنه صاحبه ، وسائر رفاقه ، لو أبصروه على هذه الحال ؟ هب أن الفتاة قد راعت معه أصول الضيافة ، وأفرطت بعض الشيء في مجاملته لأنه صديق خطيبها أفكان يحق له أن يستغل رقتها ، فيتمادى في الجلوس معها ليمتع بصره بوجهها الجميل وجسدها الناضج ؟ أفكان يحق له أن يجلس ليسوق اليها ألفاظ الحب ونظرات الغرام ؟

لا . لا . ليس هذا من شيم الرجال ، يجب عليه أن يتمالك نفسه ويؤوب الى رشده .

وفجأة نفض رأسه كما ينفض المرء رأسه عندما يصعد من جوف الماء ، ثم نهض واقفا وقال في حزم واصرار :

- لابد أن أنصرف الآن ، لقد تذكرت أن لدى أعمالا هامة . وبدرت من الفتاة صيحة دهش وقالت في أسف :

- أتراني قد أزعجتك باصراري على ابقائك ؟ انى جد آسفة !

وساء الفتى نظرة الحزن التى بدت فى عينيها ولكنه صمم على أن

يكون حازما .. وكسا وجهه قناعا من الجلد والصرامة ، ومد يده اليها مودعا دون أن يحاول النظر الى عينيها ، ولكنها أصرت على أن تودعه حتى الباب الخارجي .

وسار بجوارها ، ورأى نفسه بتخلف قليلا فيتمنى له أن يرقب جسدها البديع وشعرها المسترسل على كتفيها . انه لم يجد فى ذلك أى حرج . فما دام قد صد نفسه وكبح جماحها ، أليس له الحق فى أن يتزود منها بنظرة أخيرة ، ولو للذكرى ؟

ووقفت الفتاة تودعه عند الباب الخارجي وما زالت تبدو فى وجهها علامات الأسف لرحيله السريع ، ولكنه شد على يدها وغادرها كأنه هارب من خطر داهم .

ولم يطق الفتى أن يمنع نفسه عن التفكير فى الفتاة . وأحس بها قد ملكت لبه وشغلت ذهنه ، وتعذر عليه أن يطرد صورتها التى استبدت برأسه ، ولم يسعه أن يتهم نفسه بالسخف والجنون .. وأى جنون هنالك أكثر من أن يترك نفسه تنغمس فى التفكير فى فتاة ليست له ولا يمكن ان تكون له ؟ ان هذا التفكير فى خطيبة صاحبه يعتبر ضربا من ضروب الخيانة ، ولكن ما حيلته والأمر ليس بيده ! لقد ابتعد بنفسه عن الفتاة ، وقد كان فى استطاعته أن يمتع بلقاء أطول .. ولكنه كان أمينا على عهد صاحبه ، فولى الأدبار . أجل لقد نجح فى الفرار منها ، ولكنه الآن لا يستطيع الفرار من طيفها الذى ملك عليه نفسه .

ما أحمقه ! فيم هذا التعلق منه بالفتاة التى لم يرها الا مرة واحدة والتى كان يعلم سلفا أنها محرمة عليه وأن مجرد التطلع اليها ليس فيه شىء من الوفاء ؟ ولكنه مع كل ذلك استمر يفكر فيها .. حتى لقد بات من كثرة تفكيره فيها زاهدا فى هاته الفتيات اللاتى كان يتحرق شوقا اليهن واللاتى كان يستحث الوقت وهو فى طريقه الى القاهرة لكى يتمتع بلقائهن .

وفى اليوم التالى وجد الفتى نفسه وقد أخذ يتلمس الأسباب والأعذار

لكى يزور الفتاة مرة أخرى .. وبدأ النضال بينه وبين نفسه .. يذهب أم لا يذهب ! لقد كان عقله يمنعه من الذهاب وضميره يحذره من أن يحيد عن جادة الصواب .. وكان قلبه يتحرق شوقا ، ويدفع به الى بيت الفتاة دفعا ، ولكن وجد نفسه أخيرا وقد وقف أمام باب الدار يضغط على الجرس !

وكان يحس باضطراب شديد .. حتى لقد حمد الله حينما خرج اليه الخادم فأنبأه أن أهل الدار قد خرجوا .. وعاد أدراجه وهو لا يكاد يصدق .. كيف ساقه جنونه الى أن يحاول العودة الى الفتاة .. وماذا تراه كان قائلا لها لو وجدها ؟

وأخيرا انتهت الأيام الخمسة ، دون أن يحس الفتى بتلك المتع التى كان يتوقعها .

فقد أقض مضجعه طيف الفتاة .. وسلبه تفكيره اليائس فيها كل راحة ومتعة .

وفى اليوم السادس عاد الى الواحات البحرية ، وفى ذهنه شرود وغروب بال ، وتلقاه رفاقه مهللين ، وسألوه فى لهفة أن يقص عليهم ما حمل من أنباء وأقاصيص ، ولكنه لم يقص عليهم شيئا ، فقد كان به ميل الى الصمت وزهد فى الكلام .

كان صاحبه قد أبل من مرضه .. وأقبل عليه يسأله عن خطيبته وكيف وجدها ، وماذا قالت له ، وكيف استقبلته .. فأجابه فى اقتضاب أنها بخير وأن مرضه قد أحزنها ولكنه طمأنها قدر المستطاع .

ومرت الأيام فاذا بالفتى لا يسعده شيء كالجلوس الى صاحبه ليسمع حديثه عن خطيبته ، فقد كان يحس بمتعته فى سماع تلك الأحاديث .. حتى انتهى الأمر به الى أن يعرف عنها كل شيء .. وحتى بات يشعر بأنه

يعرفها معرفة وثيقة ، بل أنه ليعرفها كما يعرف أقرب الناس اليه ، أو كما يعرف نفسه .

وفى ذات أصيل جلس الفتى يرقب قرص الشمس الأحمر يختفى ببطء خلف كثبان الرمال .. ولم يكن هناك أحب اليه من ذلك المنظر ، ولكنه فى تلك الساعة لم يحس بذلك الوقع الجميل الذى تعود أن يحس به ، فقد حجبه عنه ستار كثيف من الحزن الذى شمل قلبه وغمر فؤاده .. ولم يشعر الا وهو يسأل نفسه : ترى أية روية سيؤدى اليها ذلك الطريق العجيب الذى يسير فيه ؟ وماذا يمكن أن تكون نهاية ذلك الحب اليائس الشبيه بحب الخيالات وعشق الأشباح . لقد بات أشد من صاحبه لهفة الى رسائل البريد .. لا لأنه ينتظر خطابا لنفسه بل لأنه ينتظر خطابا من خطيبة صاحبه لصاحبه .

لقد كانت فى نفسه لهفة الى ذلك الخطاب ، فقد توقع أن الفتاة ستذكره فيه على الأقل لتخبر صاحبها أنها قابلته . ولم يكن بالطبع قد بلغ به الجنون حدا يتوقع أن تسوق الفتاة الى صاحبها كلمات الاعجاب به هو .. ولكنه توقع أنها ربما عرضت له فيه بكلمة مدح أو بكلمتين .. على أية حال ، وحتى لو لم تذكره البته ، لقد كانت به لهفة الى أن يقرأ منها ويستمع اليها حتى ولو كان كتابها وحديثها موجها الى غيره .

وتلفت الفتى حوله فاذا بصاحبه يقبل عليه فجأة وقد تهلل وجهه بشرا ، وكادت مشيته من فرط فرحته تكون رقصا . وقد أمسك فى يده رسالة كأنها تصريح بالدخول الى الجنة .

لقد كانت رسالة من خطيبته ، ما فى ذلك ريب ولا شك وقفز الفتى من مكانه وعدا الى صاحبه .

ونظر اليه صاحبه وقد تجسم الهناء فى قسماته ، وبدرت منه ضحكة .. ثم مد يده بالرسالة الى الفتى .

وأقبل الفتى على الرسالة يقرءها بشغف وشوق ، وتمادت أساريره فى الانبساط ، وبدا عليه من دلائل السعادة أكثر كثيرا مما كان يبدو على صاحبه . ولم يكد ينتهى من قراءتها حتى اندفع الى صاحبه يحتضنه ويقبله كأن به مسا من جنون . وكان الفتى معذورا . فقد وجد فى الرسالة أكثر مما كان يتوقع !

لم توجه اليه الفتاة طبعا كلمات حب ، حتى ولا اعجاب ، بل لم تذكر عنه شيئا ألبتة . ومع ذلك فقد وجد الفتى فى الرسالة أكثر مما كان يحلم به ! أجل لقد كان فيه شىء عجيب !

ان الفتاة لم تذكر عنه شيئا ، لا لشىء الا لأنها لم تره .. أجل .. لقد قالت الفتاة أنها كانت خارج الدار ، وأن التى قابلته هى أختها الصغرى ! .

وكان هذا أكثر مما ينتظره الفتى .. فقد أحس بأن سحب اليأس قد تبددت من حوله .. وأنه كان على شفا حفرة من الموت فأنقذ منها .

وبات الفتى ليله ساهرا .. فقد كانت سعادته أكثر مما يحتمل . وفى الصباح هدد الفتى من حوله ، أنه ان لم يسمحوا له بالذهاب الى القاهرة فورا لكى يخطب الفتاة .. فانه سيذهب سيرا على الأقدام .

وعلم من حوله أن جنون الحب قد أصابه ، وأنه قد يفعلها . فسمحوا له بالذهاب .

وعاد الفتى بعد أن خطب الفتاة ، وفى ذات صباح ، بعد أسبوع من عودته .. كان موظف البريد يفتح مكتبه فاذا به يبصر الفتى وقد حمل حجرا آخر وضعه أمام المكتب بجوار حجر صاحبه . فعلم أن « مجانين البوستة » أو مجانين الهوى قد زادوا واحدا .

★ ★ ★

أمل

آه من هذه الظلمة التى شملتنى ! .. وآه من هذه الوحدة المضنية .. لم لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ .. فقد تعلمت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطى دروسا فى الحياة .

الى قارئى فى كركوك .. القارىء الذى طلب الى أن أكتب اليه قصة بعنوان « أمل .. » اهدى هذه القصة ، لاننى لا أستطيع أن أرد لواحد من أهل العراق طلبا ، فانهم جميعا أعزاء على نفسى ، أحباء الى قلبى .

كان أول ما فضضته من الرسائل التى حملها الى البريد فى الصباح رسالة مليئة مكتظة وجدت بها خطابا طويلا قد شغل ما يقرب من خمس صفحات « فولسكاب » ، وأسرعت بقراءة التوقيع ، فوجدت المرسل صديقة لى لم تتعود قط أن تراسلنى ، اذ ليس بيننا سوى صداقة عابرة لا تستدعى أن يكتب أحدنا الى الآخر .

ونظرت الى صاحبى الذى جلس على مقعد أمام مكتبى وقذفت اليه

بمجلة ليتسلى بقراءتها حتى انتهى من قراءة الرسالة ، أو « العرضحالة» .

ثم بدأت القراءة ..

عزيزى :

لا أدرى ما الذى دفعنى الى الكتابة اليك .. أنت بالذات دون سواك ! بل لا أدرى ما الذى دفعنى الى الكتابة أصلا .. ؟ وأنا التى لا أكره شيئا مثل كتابة الرسائل ، ولا أستطيع أن أخط سطرين متتاليين الا بعد مشقة وعناء .

ولكنى أحس الآن كأن نفسى قد شملتها ظلمة حالكة ، فأحاول - بالكتابة اليك - أن أتلمس فى تلك الظلمة من يؤنس وحدتى ، ويخفف عنى وطأة هذه الوحشة المضنية ، أجل .. أنى أحس فى الفؤاد جمرة متأججة .. لو طويت صدرى عليها وحسبتها فى أضلعى ، لتركتنى رمادا أو هشيما .

هذا ما جعلنى أمسك بالقلم وأحاول الكتابة .. أما لماذا اخترتك أنت ، فلأننى فى حاجة الى من يستطيع فهمى ، والى من يستطيع فهم تلك العوامل النفسية التى تصطخب فى نفسى والى من يكون لديه الصبر الذى يمكنه من قراءة رسالتى حتى النهاية فلا يصيبه الملل بعد قراءة أسطر منها فيلقى بها فى ضيق وتبرم ، ولا يكون نصيبى منه الا بضع كلمات ساخرة فاترة .

أنا أعلم أنك لم تملك شيئا لى ، فلا عزاء لى عندك سوى الكلمات ، ومتى كانت الكلمات تجدينا ؟ اننى كنت حمقاء ، فتركت الفرصة تفلت من يدى أو على الأصح ركلتها بقدمى ولا أظنها ستعود بعد ، فأسوأ ما فى الحياة أن الحوادث فيها لا تتكرر مرتين دائما ، فيتعظ الانسان فى المرة الثانية بما ارتكب فى المرة الأولى ، فان الفرصة لا تكاد تمر بنا وتفلت من أيدينا حتى يصيبنا الفزع ونصيح بها أن تعود ، لأنها تعلمنا كيف

نفتنصها ، وكيف لا نجعلها تفلت مرة أخرى .. ولكن هيهات .. انها لا تعود .

أنت لا شك تعرف الدكتور (...) بل انى لأذكر انك كنت أول من عرفنى به ، عندما التقينا فى الصيف الماضي فى سيدى بشر ، وأنبأتنى ضاحكا بأنه طبيب أسنان و « نصاب » ! وطلبت الي الا أفكر أبدا فى الالتجاء اليه اذا ما أصبت « بوجع الضرس » ، لأنه سيشفينى من « وجع الضرس » ويضنينى « بوجع القلب » !

ولست أدرى ما الذى يجعلنى أذكر قولك الآن .. وتحذيرك اياى على ما كان به من هزل ومجنون ، وبالرغم من أنه لم يعلق بذهنى وقتذاك الا كما تعلق نكتة عابرة تافهة . أجل . أنه - على الرغم من هذا كله - يخيل الى أن الأيام قد حققت نبوءاتك ، فأصبت منها بلوعة فى الفؤاد وحسرة فى القلب .

لقد بدأ الأمر بيننا بأن أصبت أنا فعلا « بوجع الضرس » ، ولم أكن أفكر قط فى الذهاب اليه ، لا لشيء الا لأننى قد نسيته ، ولكن المصادفة وحدها هى التى ساقتنى اليه ، فقد قرأت اسمه ذات مرة على لافتة فى احدى الدور ، ولم أر ما يمنع من الدخول . فقد كان هو وغيره لدى سواء .

وعندما رآنى عرفنى للوهلة الأولى وأقبل على باسما مرحبا ، كأن بيننا قديم ود وسابق تعارف ، وتكررت بعد ذلك زيارتى له ، وبدأت أحس نحوه بالثقة والاطمئنان ، فقد اعجبتنى فيه براءة مظهره ولطف معشره .

وذات يوم أنبأنى أن معه تذكرتين للأوبرا وأنه تسعده مرافقتى اياه ، وصمت هنيهة قبل أن أجيبه ، لقد كان الذهاب يسرنى ، ولكنى لم أتعود قط أنى أخرج فى صحبة رجل غريب منذ وفاة زوجى ، أى مايقرب من ثلاث أعوام ، ووجدت هاتفا فى نفسى يكاد يقول نعم ، ولكنى وجدت فى القبول نوعا من الخيانة ، خيانة عهد قديم ، وحب ما زالت جذوره مغروسة

فى قلبى بالرغم من أن أوراقه قد جفت وتساقطت .

وأجبته بهدوء أنه لا يمكننى مرافقته الى أى مكان ، هو أو سواه من الرجال ، وبدا فى وجهه شيء من الخذلان وخيبة الامل ، ولكنه سرعان ما عاد الى سابق فكاهته والى أحاديثه المرحة الضاحكة .

وفى تلك الليلة اصابتى أرق شديد ، فقد تيقظت فى نفسى ذكريات هاجعة راقدة ، وعصف بى الحنين والشوق الى حبيب راحل نأى به الموت وأبعدته الأيام ، ووجدت القلب يناديه ويستعيد لياليه .

لقد تذكرت زوجي العزيز الذى كان يفيض بالأمل والحياة ، وذكرت أمانيه الحلوة التى ذرتهاريح الزمن وتركها الموت هباء فى هباء .

تذكرت كيف احتوانى بين ذراعيه القويتين ليلة الزواج ، وكيف سمعت همساته كأنها تغريد وترنيم ، « أنت زوجتى .. وسأحبك حتى آخر العمر » . آخر العمر ؟ . لقد كان يبدو حينذاك بعيدا نائيا ، لا تكاد تبصره العين أو تحس به النفس ، ولكنه مع ذلك كان قريبا منا ، أقرب مما نتصور ، فما مرت ثلاث سنين ، حتى أبصرناه على قيد خطوات ، أو قيد لحظات ، وأخيرا انتهى الأمر ، وأحسست بأن موته - وأنا فى السادسة والعشرين - كان بمثابة موت لى ، وكان لنا معا « آخر العمر ! .. »

ومرت الأيام وأنا لا أجد فى الحياة ما يستحق البقاء .. اللهم الا تلك الذكريات الحلوة الهاجعة فى النفس ، والتى لولاها لكنت والموتى سواء ، واستطاعت الأيام بعد ذلك أن تبرىء جراح القلب وتخفف من لوعته وأساه ، ولكنها لم تستطع أن تقلع جذور الحب المتفرعة فيه ، ولم تستطع أن تمحو الحنين الهادىء الصامت الذى كان يجيش به .

ووجدتنى أستمرىء الوحدة ، وأستطيب العزلة ، وحدة القلب وعزلته ، وان كان من التجنى أن أصف ما كنت فيه بالوحدة والعزلة ، اذ ما غادرنى طيفه لحظة واحدة ، وما كنت وحيدة بعد موته أبدا .

ولكن ما الذى أثار كوامن شجنى فى تلك الليلة ؟ وما الذى جعلنى آرق لا يغمض لى جفن ؟ أفعل بى ذلك مجرد دعوة وجهت الى فأشعرتنى أننى وحيدة ؟ أم بدأت نفسى الساكنة تتمرد وتثور ؟ .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك ، ثم ذهبت لزيارة الطبيب فأقبل على فى لهفة وشوق ، وألح فى هذه المرة أن أقبل دعوته الى السينما ، وأنبأنى أنه لا يستطيع أن يفهم سببا لرفضى ، الا أذا كنت أرفض صداقته ، وأرفض الثقة به .

ولست أدرى حينذاك هل أصابنى ضعف أمامه فقبلت دعوته ، أم اننى قبلت دعوته لانى اقنعت نفسى بأن المسألة أتفه من أن أتهم نفسى بالضعف لقبولها ؟ وأن اخلاصى لزوجى الراحل لا يمكن أن يتأثر بأمثال تلك العلاقات البسيطة التافهة .. على أية حال ، وسواء أكان هذا السبب أو ذاك فقد قبلت الدعوة .

وصحبته الى الدار بعد انتهاء السينما ، وجلست بجواره فى العربة جنبا الى جنب ، وخيل الى أنى أحس بالكثير من السعادة ، وبالكثير من الرضا .. السعادة والرضا المشوبين بشىء من الخجل ، وبشىء من الندم ، وتأنيب الضمير .

وفى هذه الليلة لم أذق النوم الا لماما ، ولم يضايقنى ذلك فقد كنت أحس بيقظة ممتعة ، وعندما كانت عيناى تغفلان كنت أرى أحلاما لذيذة ألتقى فيها بزوجى ، كما كنا نلتقى فى سابق عهدنا ، ولكنى كنت أرى فى بعض الأحيان أن وجه زوجى قد أخذ يتبدل شيئا فشيئا حتى يصير شديد الشبه بوجه صاحبى الجديد .

واستيقظت فى الصباح وقد عقدت النية على ألا أذهب لزيارته مرة أخرى .

لقد كان من الحمق أن أترك نفسى تندفع فى طريق مغلق . اننى

أصررت على ألا أتزوج مرة أخرى ، فمن العبث أن أحاول انشاء علاقة معه لا معنى لها ، ولا يعلم الا الله مداها ، ومن العبث أيضا أن أحاول خداع نفسي لأتركها عن بعد تتلمس المعازير التي أعلم الناس ببطلانها .

وخيل الى أنني استطعت أن أضع حدا للمسألة ، ولكن لم تكد تمضى بضعة أيام حتى التقينا مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة كان هو الذى أقبل على في البيت ، وقد كست وجهه سيماء الخطورة ، وحمل حقيبته في يده ، مدعيا أنه خشى أن يكون قد ألم بى ما منعنى من الحضور ، وهو يعلم أن أى تهاون في مسألة الضرس قد يؤدى بى الى التهلكة ، وكنت أعلم جيدا أن كلامه لا يعدو أن يكون كذبا في كذب لأن ضرسي لم يعد به أى شيء .

وقبل أن ينصرف أنبأنى بأن هناك رواية « هايلة » في الأوبرا ، وأن مشاهدتها مفيدة جدا « لوجع الضرس » .

وذهبت معه الى الأوبرا في ذلك المساء ، وبعد انتهاء الرواية جلست الى جواره في عربته ليوصلني الى البيت .

وفي الطريق توقف على شاطىء النيل هنيهة وأخذنا نتحدث ، وليس هناك شك في أنه محدث بارع ، فقد استطاع أن ينسيني بسرعة رغبتي في العودة ، وشيئا فشيئا زاد اقترابه منى ، ثم أمسك بيدى ، وبدأ حديثه يتحول الى همسات .

وهنا خيل لى أنى لن أستطيع أن أصف بالضبط تلك المرحلة الدقيقة التي مررت بها وقتذاك ، مرحلة الصراع النفساني العنيف ، والتأرجح بين الماضي والحاضر ، وبين الذكريات والحقائق .. أجل .. يخيل الى أنى لن أستطيع أن أجعلك تفهمني لأني أنا نفسي لم أكن أفهم نفسي .

أتراني حقا أحب ذلك الذى أجلس الى جواره وأدع يدى في يده ؟ ترى أن الشجاعة فقط التي تنقصني لتكون متعتي بحبه كاملة غير

منقوصة ؟ أترى لو استطعت أن أسدل الستار بينى وبين الماضى ، هل يذهب من نفسى ذلك الشعور بالقلق ؟

أم .. أم ترى العكس هو الصحيح ؟ وأنى لو أسدلت على الماضى ستارا لما أحسست قط بمتعة أو غبطة ، لأن ذلك الشخص الذى أسمع همساته الآن ليس الا مرآه تنعكس فيها صورة زوجى العزيز الذى أحببته بكل ما تملك المرأة أن تحب ، وأن تلك النشوة التى أحس بها الآن هى ملكى أنا .. هى كائنة فى نفسى ، وكامنة فى قلبى ، وأن كل ما فعله ذلك الشخص الجديد هو أنه حركها ، فجاش بها القلب ، واصطخب الفؤاد .

وأحسست به يرفع يدى فيضعها على فمه ، ثم يسألنى أن اكون زوجته .

وأحسست برجفة تسرى فى بدنى .. أنا ! . أنا أتزوج مرة أخرى ؟ ! أهذا هو الوفاء لزوجى الحبيب الراحل ؟ أيمكن أن استبدل بحبه حبا آخر ؟

ونظرت اليه ونزعت يدى من يده ، كأننى أتراجع من على حافة هاوية ، ثم هززت رأسى ببطء ، وأجبته هامسة :

« اننى قد أحببت مرة واحدة ، ووهبت قلبى ، فلا أستطيع أن أهبه مرة أخرى . أجل . لن أتزوج حتى آخر العمر . انى أحس بعزاء فى وحدتى » .

وأجابنى فى رقة وعطف : « ان من الجنون أن أفنى زهرة عمرى فى هذه الوحدة المضنية ، وأن القلب قد يحب مرة ، ولكنه يستطيع أن يحب مرة أخرى ، وأنه قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار ، فحرام أن أقتل قلبى بيدى ، وأترك العمر يذهب سدى » .

وقلت له نبرات حالمة وكأنى أحدث نفسى :

– ان القلب لا يموت ما دام الاخلاص يغذوه ، وماذا يضيرنى أن يذهب العمر سدى ، ما دمت موقنة انه فى يوم ما عندما ينتهى العمر ، سألتقى بزوجى مرة أخرى ، وأضع يدى فى يده .. انى أحب الوحدة لأنها لن تنسينى اياه .

ولم أسمعه ينبس بكلمة بعد ذلك ، فقد غمرته موجة من الحزن والخيبة ، فأدار العربة وأعادنى الى البيت فى سكون واطراق .

ولا أدرى ما الذى أصابنى مجرد أن افترقنا ، ولا أستطيع أن أفهم قط سر ذلك التبدل الذى داخل نفسى .. لقد جلست فى حجرتى وقد فاض بنفسى الحزن ، وتملكتنى لوعة شديدة ، فقد أحسست من حولى بفراغ ووحشة ، وخيل لى أنى فقدت شيئا عزيزا ، وتذكرت قول الرجل :« ان القلب قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار » .. أجل . ان قلبى قد بدا يزدهر مرة أخرى ، لقد كنت أحب الرجل ، لا شك فى ذلك .

ولم أحس وقتئذ بغضاضة عندما اعترفت لنفسى بأنى أحب مرة أخرى ، ولم أجد فى ذلك أى نوع من أنواع الخيانة ، فما كان حبى لزوجى الراحل ليحول دون حبى الجديد . وما كانت الذكريات الجميلة المقدسة فى نفسى لتحرمنى متعة من متع الحياة التى يتمتع بها كل كائن حى . أجل ، ان للموتى حبا ، وللأحياء حبا آخر .

وهكذا انقلب ذلك الشعور بالقلق الذى كنت أحسه بجواره ، الى شعور بالحزن عندما فارقته ، وعندما بت أخشى أن أكون قد فقدته الى الأبد .

ولكن لا .. انى قطعا لم أفقده ، فلا شك فى أنه سيعود ، ولا شك فى أنه سيطلب الزواج منى مرة أخرى ، وحينئذ سيجد منى مخلوقة أخرى ، وسأزيل من نفسه مرارة الخيبة التى سببتها له فى المرة الاولى .

ولكن الأيام مضت ، وهو لا يعود ، حتى بت أحس بقلق شديد ،

وحتى أقنعت نفسى فى النهاية بأنه من الخير لى أن أذهب أنا لأزيل من نفسه ذلك اليأس الذى سببته له ولأهيىء له فرصة أخرى .

وذهبت اليه فعلا ، بحجة أن « ضرسى » قد عاد يؤلمنى .

والتقينا مرة ثانية ، وليتنا ما التقينا ، فقد وجدته شخصا آخر ، لقد أقبل على فى برود وجمود ، كأن لم يكن بيننا شىء ، وظننته يحاول معاقبتى ، فقلت لنفسى : لا بأس ، فانى أستحق العقاب . ولكنه استمر معنا فى فتوره العجيب حتى لم أجد بدا من أن أحاول أنا من جانبى أن أقول شيئا أجدد به أمله فى أننى تغيرت ، وبدأت فعلا أتحدث عن مقابلتنا الاخيرة ، ولكننى رأيته يرفع الى رأسه ويقول فى صوت خافت :

– انى أشكر لك ذلك الدرس الذى علمتنيه ، لقد أريتنى مثلا فى الاخلاص ، وكنت فى حاجة الى ذلك ، فقد اعدت الى رأسى ذكرى صاحبتى الأولى التى ظننت أن القلب يمكن أن يستعيض بك عنها ، وأنه يمكننى أن أغذوه بك بدلا من أن أتركه يذوى ويموت ، ولكنك قلت أن القلب الذى يغذوه الاخلاص لا يمكن أن يموت ، وأن عزاءك فى الحياة هو أنه سيأتى يوم تلتقين فيه بصاحبك مرة أخرى ، فقلت لنفسى : لم لا يكون عزائى أنا الآخر هو أننى سألتقى بصاحبتى مرة ثانية ؟ أجل .. لقد أضحت الوحدة خيرا لى كما هى خير لك .

وأحسست ببرودة تسرى فى دمى ، وبقلبى يهوى بين ضلوعى .. اذا فقد كان يحاول أن يتعزى بى عن صاحبته ! لقد كانت خيبة الأمل شديدة على نفسى !

وتمالكت ، وحاولت أن أدع ابتسامة ترتسم على شفتى ، ثم ودعته وافترقنا . لقد كان الخطأ خطئى ، أنا التى دفعت الى رأسه ذكرى صاحبته ،لقد أعطيته درسا ما كان أقساه على نفسى .

آه من هذه الظلمة التى شملتنى بعد ذلك ، وآه من هذه الوحدة المضنية .. لم لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ لم لا تتيح لنا الفرصة مرة أخرى ؟ فقد تعلمت الآن كيف لا أدعها تفلت .. لقد عرفت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطى دروسا فى الحياة .

أترى الفرصة تعود ؟ لا أظن .. ولكن مع ذلك أعلل النفس بالأمل ، والا لما استطعت البقاء فى قيد الحياة لحظة « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » .

★ ★ ★

وأطبقت الرسالة ونظرت الى صاحبى بدهش شديد ، فقد كان هو نفسه الدكتور (...) بطل هذه الرسالة ... وصحت به متسائلا :

– ولكنى لم أسمع قط أن لك صاحبة قد توفيت .

ونظر هو الى بدهش أشد ، بعد أن ألقى المجلة من يده ، وهز رأسه مستوضحا ، ثم سألنى :

– صاحبة توفيت ؟ لى .. أنا ؟

ودفعت اليه بالخطاب ، فأقبل على قراءته بلهفة شديدة ، ولم يكد ينتهى منه حتى رأيته قد عصفت به نوبة شديدة من الضحك .. ثم قال لى وهو يقفز من مكانه :

– لقد « انطلت » عليها .. لم يكن هناك بد من هذه الكذبة ، حتى أراد لها ذلك الدرس الذى حاولت أن تعطينى اياه ، وحتى أخرجها من تلك الوحدة التى كانت تحاول أن تطوى فيها نفسها ، لقد كانت كذبتى خير علاج لها « ودوانى بالتى كانت هى الداء » . لقد كنت أعرف أنها تحبنى ولكن لم تكن لديها الشجاعة الكافية لأن تعترف بالحقائق ، وأن تسدل على الماضى ستارا ، فلم أجد خيرا من أدعى ان لى أنا الآخر صاحبة راحلة ،

وذكريات عزيزة ، فعصفت بنفسها الغيرة من الصاحبة ومن الذكريات ، وعرفت أن القلب يمكن أن يحب مرة ، وثانية ، وثالثة ، بل انه لا يكف عن الحب حتى يكف عن نبضه .

ورأيت صاحبى يعدو خارج الحجرة مسرعا ، فسألته الى أين ؟ فأجاب :

– أعيد لها الحوادث ، وأعطيها الفرصة مرة أخرى ، وأحقق لى ولها ، أملا ، يجيش فى نفسينا .

★ ★ ★

ترضية

كنت أعرف أنك هنا وكنت أقـدرك وأحترمك . ولو تركونى لجئت اليك امرأة شريفة وأصبحت زوجتك أما وقد أصروا على آرائهم وسخروا منى . فتعال . تعال . وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية .

انطلقت منه ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية ..

من كان يظن هذا ؟

من كان يخطر له على بال أن القدر سيمعن فى هزله وسخريته الى هذا الحد ؟ .

وعاد يقلب صفحات الصحيفة حتى استقر بصره مرة ثانية على الصفحة التى شغلته بصورها وأنبائها وقد تربع اسمها بالخط العريض على صدر الصفحة .

لقد كانت أمله في يوم ما ، أملا قريبا سهل المنال ميسور التحقيق .. أما الآن .. !

وعادت الضحكة الساخرة المريرة تنساب من شفتيه .

أما الآن !

الآن ... الآن !

لشد ما خذله الزمن فى هذا الآن .. وخيب فيه آماله ، وبدد أحلامه .

كيف كان يبدو الآن ، عندما كان ينظر اليه من بعيد ، من سنوات خلت ، وقد وقف فى مطلع الصبا ومشرق العمر يتطلع اليه بذهنه الحالم ونفسه اللهفى ، ويتصور ما وراء الغيب مليئا بالورود والأغاريد .

كان شديد الثقة بنفسه وبالزمن .. ثقة قد بلغت حد الغرور واليقين .

وكان يجزم لنفسه أنه سيضحى رجلا ذا شأن ، ولم يكن يقنع فى آماله بالمطلب المعقول ، بل لم يكن يتصور نفسه مجرد طبيب مشهور ، أو مجرد محام ناجح .. بل كان واثقا أنه سيصبح شخصية بارزة .. زعيما أو قائدا أو فيلسوفا يشار اليه بالبنان .

كانت الآمال تداعب نفسه كما تداعب نفس كل انسان ، وكان يستقبلها فى استسلام ودعة وحبور ومتعة .

كان يتخذ من أمانيه وسيلة لفترات رغد ، ولحظات هناء .

حتى لقيها . فاذا بالمنى تلح على نفسه ، وتصر على أن تصبح - من أجلها - حقيقة واقعة .

رآها أول مرة عند عودته من المدرسة وقد وقفت مع لداتها بالمرايل السود أمام باب المدرسة الايطالية القريبة من دارهم تهم بركوب السيارة المدرسية .. وتوقف برغمه فى مكانه ووجد بصره يتبعها حتى تستقر فى مقعدها ، واستدار رأسه مشيعا السيارة حتى اختفت فى أول منعطف .

كانت وقتذاك نسيج وحدها! .. لقد جذبه وجهها بين عشرات الوجوه المتشابهة ، فلم يبصر سواه أو يذكر غيره .

وجلس للاستذكار ، فوجد وجهها يرتسم على كل صفحة وأمسك بالقلم يحاول أن يرسمها من الذاكرة .. وهل كانت الذاكرة تعى حينذاك سواها ؟

رسم أنفها الدقيق ذا الطرف الأشم المرفوع ، ورسم شفتيها القرمزيتين المطبقتين فى ضيق وامتلاء ، ورسم شعرها الذهبى ذا الجدائل المترامية على أكتافها .. رسم كل هذا على الورق عشرات المرات ، ورغم مهارته فى الرسم فما استطاع مرة واحدة أن ينجح فى نقل تلك الصورة المطبوعة فى ذهنه اذ عجز ان ينقل بريق العينين وهالة الضوء المحيطة به .

كان وقتذاك طالبا بمدرسة شبرا الثانوية ، وكان يقطن فى بيت يطل على حديقة طوسون . وكان يتخذ طريقه دائما الى المدرسة عبر الحقول المليئة بالقصب والخضروات فى ذلك الممر الضيق المسمى « دهليز طوسون » ، ولكنه منذ أن رآها بدا يغير طريقه ويضيف اليه لفة واسعة حول المدرسة الايطالية ويضبط مواعيده بحيث لا يخطىء قط رؤيتها وهى تصعد الى السيارة أو تهبط منها . أما فى أيام الجمع فقد كان يجول حول المدرسة عله يلمحها من بين فتحات السور تلهو مع أترابها فى حديقة المدرسة .

وهكذا بدأ يضيفها الى قائمة أمانيه ويضعها ضمن المنى التى يعيش بها « زمنا رغدا » . والتى كان يجتر منها متعه اذا ما خلا الى نفسه فى جلسته المحببة فى سكون الليل والأهل نيام ، وقد اتكأ برأسه الى حافة المقعد ومد ساقيه على سور الشرفة وأخذ يقلب البصر بين السماء والحقول ، وينصب الى حفيف الريح تعبث بأطراف أعود القصب وتسرى بينها كموج هادىء ، ومن آن لآخر يتعالى صوت نقيق الضفادع ، أو هبوط قط تتسلق السور المغطى بأوراق اللوف .

ورويدا رويدا أخذت تتمدد فى ذهنه وتتضخم فى قلبه حتى احتلت كل تفكيره ، وتضاءلت بجوارها كل أمانيه .

لقد علمه الزمن بعد ذاك الكثير عن النساء ، ولقى منهن شتى أنواع المتع ، ولكنه لا يذكر أن مخلوقة واحدة استطاعت أن تهبه ذلك النوع المسكر المنشى ، الذى كان يحيطه بجو عاطر مزدهر .

كان لا يقارنها الا بزهر الخوخ البمبى المعقود بأطراف الأغصان الجرداء ، وكانت تبدو له جزءا من الطبيعة لا صلة لها بالبشر ، اذا حملت اليه أريج زهر البرتقال ، فهو عبيرها ، واذا ما وصل الى مسامعه هديل الحمائم ، فهو همس شفتيها .

وظل حبها كامنا فى نفسه مطويا بين جوانحه ، وهو قانع بمجرد مراقبتها من بعيد ، موقن بأنها لا تحس له وجودا ، حتى أبصرها ذات يوم عقب خروجه من احدى دور السينما ، وقد جلست فى عربة تقف فى شارع فؤاد أمام « شيكوريل » . فوقف يحملق فيها مشدوها ، وكانت هى مشغولة عنه بمراقبة الطريق والمارة ، ولكن أختها الصغيرة كانت تجلس بجوارها فدفعتها بمرفقها تنبهها الى ذلك المشدوه الذى يحملق فيها ، وأدارت اليه رأسها فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، وعلا وجهها احمرار شديد .. وسرعان ما حولت عنه بصرها مرة ثانية .

لقد عرفته ! ان بسمتها واحمرار الخجل .. يجزمان بأنه يعنى شيئا لديها .. وأنها قد أخذت بمرآه كما أخذ بمرآها .

وهكذا أخرجه ذلك اللقاء العابر من انطوائه .. وجعل حبه يتخذ دورا ايجابيا .. ومنحه ما كان يفقده من الشجاعة والثقة .

وبدأ بعد ذلك دور التجاوب بالنظرات والتفاهم بالعيون وطال به ذلك الدور وهو مغرق فى نشوته ، يود لو أعلن لكل من لقيه أنها قد أصبحت

وذات يوم حدثت المعجزة التى لم يكن يتصور وقوعها ، ورسم له القدر طريق الوصول اليها :

وكان ذلك فى احدى الزيارات العائلية .. فقد ذهب وأسرته لقضاء احد أيام العطلة فى منزل خالته بمصر الجديدة وعقب الغداء أخذت ابنة خالته تعرض عليه « ألبوما » مليئا بصورها هى ورفيقاتها فى المدرسة .. وفى وسط الوجوه المحتشدة أبصر بوجهها يضىء على الورق .

وأمعن النظر فى الصورة برهة .. ثم تمالك نفسه وسألها عن صاحبة الصورة .

فأجابت وهى تقلب الألبوم :

– انها منى حسين ابنة زكى بك حسين مدير مصلحة (...) لقد كنا معا فى « ألبون باستير » .

– فتاة لطيفة .

– أتعرفها ؟

تعرفه وأنها بسمت له ، وأضحى ككل عاشق يتوهم أن نظرتها اليه تعتبر حدثا فى تاريخ البشر .

ولم يكن يستطيع أن يتصور ماذا يمكن أن يحدث بينهما بعد ذلك ، ولا كان يخطر على باله أنه يمكن أن يحدثها فى يوم من الأيام .. وهو الانسان الخجول الكتوم ، القليل الخبرة بأحوال الحب .

كيف يصل اليها وهو لا يراها الا خارجة من المدرسة أو راكبة السيارة ؟ وكيف يأمل فى لقائها وهى .. فيما يبدو ، من نوع ارستقراطى لا يكاد يخرج الا فى عربة ..؟ ان الأمر يحتاج الى معجزه وهو لا يعتقد أنه يعيش فى عصر المعجزات .

– رأيتها بضع مرات فى المدرسة الايطالية التى تجاور بيتنا .

– أتعجبك ؟

– جدا .

وتضاحك الأثنان .. وقالت الفتاة :

– لقد تعلمت الشقاوة .

– هذه تهمة ظالمة . انى لم أرها الا من بعيد .

ثم صمت برهة وأردف متسائلا :

– أما زلت تعرفينها ؟

– لقد قابلتها منذ يومين .. ودعتنى لزيارتها ، وعاتبتنى على عدم السؤال عنها .

– ولم لا تسألين عنها ؟

– لأنى لم أكن أعلم أنك مغرم بها .

– والآن ؟

– والآن سأسأل كل يوم .

– وتزورينها ؟

– وماذا يهمك من زيارتى لها ؟

– لكى ترد الزيارة .

– آه .. فهمت .. وسيصادف وجودك بالطبع ساعة زيارتها ؟

– اذا كنت تتكرمين .

– أيها الخبيث .. ماذا تريد منها ؟

– رؤيتها والحديث معها .

– فقط ؟

– فقط ، وأدفع نصف عمرى .

– لا داعى لنصف عمرك .. أحتفظ به لمرة ثانية ، سأريك اياها مجانا لوجه الله .

– متى ؟

– احضر الى يوم الأحد القادم .

– أواثقة أنت من احضارها ؟

سأبذل جهدى .

وفى اليوم الخالد ذهب ممسكا قلبه من فرط اللهفة والخشية .

انه يذكرها يوم ذاك ، جميلة ناعمة هادئة ، قد جلست تنظر اليه فى دهش وخجل ، وقد أخذت ابنة خالته تقوم بواجب التعريف بين الاثنين .

ولم تمض برهة على لقائهما حتى كان كلاهما يقبل على صاحبه وكأن بينهما ودا قديما .

وتكرر اللقاء بينهما بعد ذلك فى بيت خالته ، ثم تحايلا على اللقاء وحيدين .

كان وقتذاك فى الثامنة عشرة ، وكانت هى فى الرابعة عشرة ، ومع ذلك فقد كانا فى حبهما أبعد ما يكونان عن الطيش والنزق واللهو ، كان كل منهما أعقل وأكبر من سنه ، وكانا فى تفكيرهما جادين كل الجد ، ساميين كل السمو .

كان أمامه سنة فى المدارس الثانوية ، وكان من رأيه أن يدخل السلك العسكرى حتى يسرع فى التخرج لكى يقرب موعد زواجهما ، ولكنها كانت ترى أن يدخل الهندسة ، فقد كانت تريده مهندسا بارعا عظيم الشأن ، ولم

نكن ترى هناك ما يدعو للعجلة ، ما دام كل منهما يرى صاحبه وينعم بلقائه .

واقتنع برأيها ، وبدأت أمانيه التى لم تكن تعدو مجرد أمانى يسلى بها نفسه ، تتحول الى هدف لابد من تحقيقه ، فقد كان يحس أن أباها أرفع من أبيه شأنا ، وأن أسرتها من الطبقة الارستقراطية ، ولهذا فقد ود أن يكون آهلا لها حتى يسهل على أسرتها قبوله ، وحتى يكون ندا لها .

لقد كان واثقا منها ، ولكنه رغب فى أن يجنبها معارضة الأهل .. وهو لا ينكر أنه اندفع فى عمل كما اندفع وقتذاك فى الاستذكار والتحصيل والسهر .. لقد صمم على أن يكون انسانا ذا شأن ، وأن يكون أرفع من أبيها الذى أصبح وقتذاك وكيل وزارة .

ولم لا ؟

انه يستطيع أن يكون جراحا نابغة ، أو مهندسا بارعا ، أو محاميا شهيرا ، ويستطيع أن يصيب من الثراء ما يهيىء به لها حياة أكثر رغدا من حياة أبيها .

أجل ! أنها تستحق كل خير ، ولابد أن يهبها ما تستحق .

تلك كانت أمنيات الصبا ، ورغبات التلمذة .

ماذا فعل بها الزمن ؟

لقد ذراها بنفخة واحدة .. لقد ضيعها بددا .

لقد رزقه بالمصاب من حيث لا يحتسب .

ففى ذات يوم ، صعدت مع ملايين الأرواح الصاعدة الى السماء روح أبيه .

لقد مات أبوه فى يوم الامتحان ، ومع ذلك فقد اجتازه ونجح الى

السنة الخامسة ، ولكن الاستمرار فى الدراسة كان أمرا متعذرا .. فقد مات أبوه دون أن يخلف لأسرته سوى مكافأة ضئيلة .. وكان عليه أن يعمل لكى يكسب قوته وقوت أسرته .

ونجح بعض الأقارب فى الحاقة بوظيفة كتابية .. ولكن كان عليهم أن ينتقلوا من بيتهم الى بيت أقل أجرا .. وأن يضغطوا مصروفاتهم بما يتناسب ودخلهم البسيط المحدود .

وهكذا غادروا الحى .. فقد عز عليهم أن يبدوا أمام المعارف بمظهر الأذلاء المحتاجين .

وهو يذكر لقاءها بعد وفاة أبيه .. ويذكر عزاءها له وتشجيعها اياه .. ويذكر شحذها لعزيمته و استنهاضها لهمته .. وقولها له أنها ستنتظره حتى يحقق آماله .

يحقق آماله ؟ كيف ؟ وبم ؟

لا . لا . لقد كان من الجنون أن يحاول التمسك بآمال حطمها الزمن .. ان عليه أولا وقبل كل شيء ان يطعم أسرته ويكسوها .. أما غير ذلك فيجب أن يطرح من الذهن .

ومرت الأيام وهو فى مهمته الجديدة مرهق مكدود .. لقد كان أجره من وظيفته تافها بالنسبة الى المطالب التى يجب عليه أن يؤديها لأسرته .

وفى ذات يوم سنحت له فرصة هيأت له مخرجا من تلك الحاجة والعوز .. ولكنها لم تكن فرصة خالصة .. بل كانت تحوطها بعض المساوىء التى تحتاج الى موازنة وتفكير .

لقد كانت وظيفته ساق فى أحد الفنادق الكبرى .

أجل .. ليسم ساقيا ، أو رئيس سقاه ، أو يسمونه ما شاءوا ولكنه لا يزيد على « جرسون » .

يا للسخرية ! .

أهذا هو المركز العظيم الممتاز الذى كان يتوقعه لنفسه ؟ لا .. لا .. انه لن يقبل .

ولكن الأجر كبير ، وأسرته فى أشد الحاجة اليه وهو عمل شريف لا غبار عليه .

لا . لا . يجب أن يقبل . ان رفضه اياه هو الأنانية بعينها .

وماذا يخشى على نفسه منه ؟ وممن يخشى ؟

يخشى من مخلوقة واحدة !

هى ..

ماذا تقول اذا علمت أنه قد أصبح « جرسونا » ؟

ولكنه لن يخبرها .

لقد انقطع عن رؤيتها ، ووطن العزم على نسيانها ، فقد كان من الخبل أن يأمل فيها .

وهكذا قبل العمل الجديد .

ومرت به الأيام الأولى فى عمله وهو مرتبك خجل ، ولكنه بدأ يتعوده شيئا فشيئا ، حتى اطمأن اليه ، ولم يعد يرى فيه ما يهدر كرامته ، ما دامت هى على الأقل لا تعرف .

وهكذا مر به الزمن ، وهو لا يحاول السؤال عنها أو معرفة أخبارها ، حتى فوجىء اليوم برؤية صورها فى الصحف وبقراءة أنباء زواجها من أحد أرباب الثروات والمراكز فى مصر .

وهكذا أصبحت علما من الأعلام تكتب فى صدور الصحف أنباء

ذهابها وايابها ، وتوصف حركاتها وسكناتها وترسم فى كل حال لها وترحال .

ولم يشعر من زواجها بحزن .. فقد كان يشعر أنه قد فقدها من زمن ، وأن من السخف أن يحاول التطلع اليها أو الحزن على فقدها .. لقد تراكمت ثلوج اليأس على قلبه . فما عاد يهفو لفرحه أو يرجف لحزن .

وناداه ذات صباح رئيس الفندق وأخبره أنه يثق فى ذوقه ومقدرته ، وأنه لذلك سيعهد اليه بخدمة نزيل عظيم سيحل بالفندق لقضاء شهر عسل هو وزوجه .

وأحس بقلبه يدمى ، فقد رأى أن سخرية القدر قد بلغت أشدها ، وحاول أن يعتذر ، ولكن صاحب الفندق أبدى دهشة وأصر على أن يتولى هو خدمتهما .

ولم يكن أمامه سوى الرضوخ والرضاء بالأمر الواقع ، والتعزى بالمثل « ماذا يضير الشاة من سلخها بعد ذبحها ؟ » .

ولم يعد له سوى أمل ضئيل يتعزى به ، وهو أن تكون قد نسيته .

وهكذا وقف ينتظر مقدمهما ، ووقفت العربة الفخمة أمام الباب ، وهرع الخدم يفتحون الباب ، ونزلت هى وزوجها تتهادى فى عظمة .

واشتدت ضربات قلبه ، وأطرق الى الأرض .

يا للقلب الذى لا ينسى ! . انه يتخبط فى صدره .. لقد تخلص من ثلوج اليأس وعاد يهفو ويصفق .

انها هى .. هى .. بطوطوفة أنفها وشفتيها القرمزيتين وشعرها الذهبى .

وهذا هو زوجها ، بوجهه المنتفخ ، ولغده المتدلى على صدره ، وبطنه المتدلى على ساقيه ، ورأسه اللامع البراق .

لعن الله المال .

ان هذا الخنزير الأبيض لو قدر بغير ماله ، لما وازى ثمنه أكثر من خمسة وعشرين جنيها هى ثمن ملابسه .

ويحه ! انها لا شك قد نسيته ، أو أنها تتعمد انكاره وتجاهله .

وماذا كان ينتظر سوى هذا ؟

هل كان يتوقع أن تهجم عليه فتوسعه أحضانا وتقبيلا ؟

كيف يمكن أن تعامل مليونيره مثلها سافيا مثله ؟

وأحس بالذلة والمسكنة . انها لا شك معذورة فى تصرفها ولكن أما كان يجب أن تمنحه نظرة معرفة لا يحسها سواه ! أكثر عليه أن تمنحه مجرد نظرة تعارف ؟

ومضى اليوم وهو قائم بالخدمة ، وهى لا تكاد تحس له وجودا ، ولا ترى فيه الا واحدا من الخدم .

لقد كان عليه أن يحتمل شهرا من الاذلال .

وفى المساء هبط الخنزير الأبيض وحده الى قاعة العشاء ، ثم انتقل بعد ذلك الى حجرة الورق وانهمك فى اللعب .

وبعد هنيهة أنبأه أحد الخدم أن السيدة تريد العشاء فى حجرتها ، وأنها تطلب أن يحمله هو اليها .

هو بنفسه ! أجل .. انه امعان فى الاذلال .. لم ؟ وماذا فعل ؟

ولكنّ لا بأس عليه ..أنه سيصمد أمام عاصّفة الاذلال . ماذا يضيره أن يحمل اليها العشاء ؟ أليس خادما ؟

وهكذا حمل الطعام ، ووقف يطرق باب حجرتها فصاحت به :

- أدخل - أدخل .

وفى الحجرة وجدها واقفة تنتظر ، ووضع الطعام على المائدة وهو مطأطىء الرأس دون أن ينظر اليها ، ثم استدار وهم بالخروج ، ولكنها قالت هامسة :

- تعالى .

وواجهها رافعا رأسه ، فعادت تهمس :

- اقترب .

واقترب منها حتى تلاصقا ، وأمسكت بيده فضغطت عليها فى حرارة وأردفت هامسة :

- دعنا نسخر منهم جميعا .. دعنا نسخر من القدر الساخر .. ماذا كنا نريد أكثر من شهر عسل فى مثل هذا الفندق ؟

وتردد برهة .. فقد سلبته المفاجأة صوابه ، ولكنه سرعان ما مد ذراعيه يضمها اليه وأطبق على شفتيها .

ثم رفع شفتيه برهة وأخذ يتمتم فى ذهول :

- ظننتك نسيتنى .

- أنا أنساك ! لقد صممت على انتظارك فسخروا منى . وعندما تقدم هذا « الشوال » من الذهب لخطبتى كادوا يجنون من الفرح ، واعتبروها فرصة العمر .. وكان من الجنون أن أحاول مقاومتهم .. فاستسلمت .

لقد ضحوا بى فى سبيل أغراضهم ، لقد تزوجوا هم صاحب الملايين ، أما أنا فقد كنت طعما لصيدهم ، كانوا كلهم مغرضين غير شرفاء ، فلماذا نكون نحن وحدنا شرفاء ! لقد سخر منا القدر عندما حاولنا

أن يسلك كل منا الى الآخر سبيلا شريفا ، وصمم على أن يضع بيننا هذه القنطرة من المال ، فلم نعبرها ؟ كنت أعرف أنك هنا وكنت أقدرك وأحترمك ولو تركوني لجئت اليك امرأة شريفة ، وأصبحت زوجتك . أما وقد أصروا على آرائهم ، وسخروا مني .. فتعال .. تعال .

أخذها مرة أخرى بين ذراعيه .

وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية ، وهيأ له شهر عسل على غير انتظار .

★ ★ ★

للمؤلف

اطياف	(قصص قصيرة	١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية	١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
خبايا الصدور	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
يا امة ضحكت	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
ارض النفاق	(رواية	١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
من العالم المجهول	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
هذه النفوس	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
انى راحلة	(رواية	١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
بين ابو الريش وجنينة ناميش	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
اغنيات	(قصص قصيرة	١٩٥١)
ام رتيبة	(مسرحية	١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة	١٩٥١)
صور طبق الأصل	(قصص قصيرة	١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية	١٩٥٢)
السقا مات	(رواية	١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
نفحة من الايمان	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية	١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
هذه الحياة	(قصص قصيرة	١٩٥٣)

البحث عن جسد .	(رواية	١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية	١٩٥٣)
فديتك يا ليلى . .	(رواية	١٩٥٣)
ليلة خمر . .	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
همسة عابرة . .	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
رد قلبي . . .	(رواية في جزاين	١٩٥٤)
ليال ودموع . .	(قصص قصيرة	١٩٥٥)
طريق العودة . .	(رواية	١٩٥٦)
ايام تمر . .	(مقالات	١٩٥٧)
من حياتي . . .	(مقالات	١٩٥٨)
لطمات ولثمات .	(مقالات	١٩٥٩)
ناديــة . . .	(رواية في جزاين	١٩٦٠)
جفت الدموع . .	(رواية في جزاين	١٩٦١)
ايسام مشرقة . .	(مقالات	١٩٦١)
ايام وذكريات . .	(مقالات	١٩٦١)
ايام من عمري .	(مقالات	١٩٦٢)
ليل له آخر . .	(رواية في جزاين	١٩٦٤)
اقوى من الزمن . .	(مسرحية	١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية في جزاين	١٩٦٩)
لست وحدك . .	(رواية	١٩٧٠)
من وراء الغيم . .	(مقالات	١٩٧٠)
ايام عبد النــاصر .	(مقالات	١٩٧١)
ابتسـامة على شفتيه	(رواية	١٩٧١)
طائر بين المحيطين .	(رحلات	١٩٧١)
العمر لحظـة . .	(قصــة	١٩٧٣)

رقم الايداع ٢٣٥١ / ٨٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه